مملكة السحرة

-ملحمة الحراس-

أحمد جبريل

رواية: مملكة السحرة (ملحمة الحراس)
المؤلف: أحمد جبريل
فكرة وإعداد: داليا بزان
تدقيق لغوي: لخضر بن الزهرة
تنسيق وإخراج داخلي: لخضر بن الزهرة
تصميم الغلاف: إسلام مجاهد
رقم الإيداع: 2212 / 2020
الترقيم الدولي: 978/977-6793-09-5
الطبعة الثانية: 2020
رئيس مجلس الإدارة: أ. د. محمود محمد السعيد
المدير العام: هالة البشبيشي

بريد إلكتروني: info@alhalapublishing.com
تليفون : 01110161117
العنوان: 26 ش 261 المعادي الجديدة
صفحة الفيسبوك: مركز الهالة الثقافي
https://www.facebook.com/alhalapublishing

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للدار، ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله بأي شكل من الأشكال، أو وسيلة من وسائل نقل المعلومات، ولا يجوز تداوله إلكترونيًا نسخًا أو تسجيلًا أو تخزينًا، دون إذنٍ خطيٍّ من الدار.

جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبّر عن رأي كاتبها، و لا تعبّر بالضرورة عن رأي دار النشر.

مملكة السحرة

-ملحمة الحراس-

(رواية)

أحمد جبريل

❁❁❁

لا أحب أن أنقل التشاؤمَ للناس،

ولا أريد أن أكتبَ روايات تعطي شعورًا باليأس لمن يقرأها،

أو أنه يريد الهرب،

أريد أن أكتب أعمالًا تقول:

«إن الحياة تستحق أن تُعاشَ، ويمكننا دائمًا البدء من جديد».

–أحمد جبريل–

❁❁❁

❁❁❁

جميع أحداث هذا العمل فانتزيا خيالية
مدموجةٌ بأساطيرَموغلة القدم،
ولا تمت للو اقع والتاريخ بصلة.

وأي تشابهٍ بين الأسماء والأساطير
هو على سبيل التفاخر ببعض أحداث القدماء
ليس إلا.

❁❁❁

❁❁❁

إهداء

إلى الإنسان؛

الكارثة الأولى التي حلت بكوكب الأرض!

❁❁❁

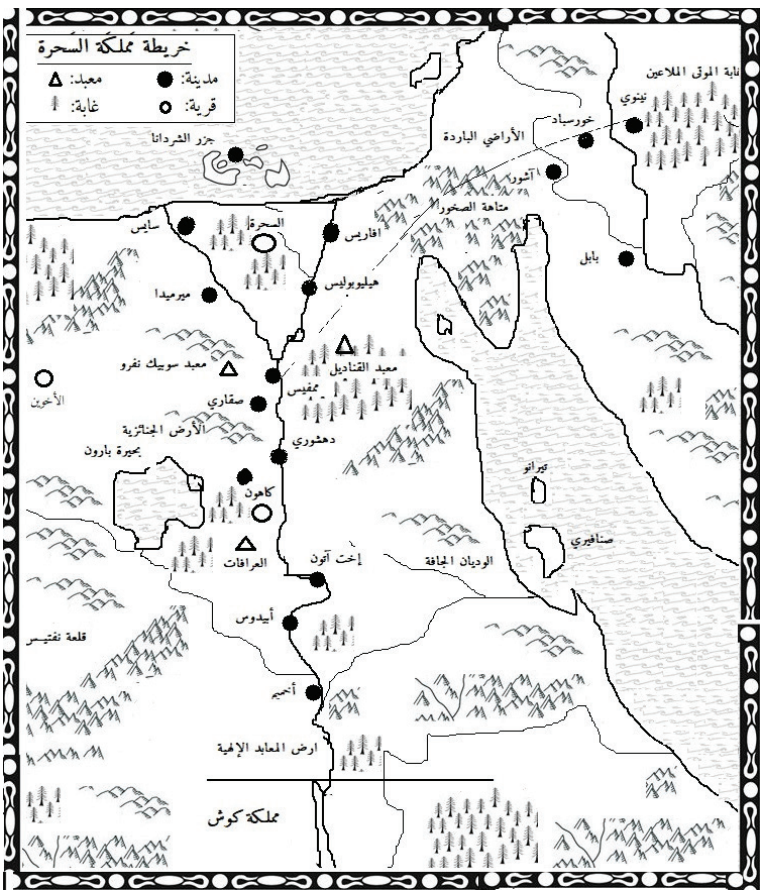
خريطة مملكة السحرة
مدينة:
معبد:
قرية:
غابة:
جزر الشردانا
تابة الموق الملاعين
نينوي
خورسباد
الأراضي الباردة
آشور
متاهة الصخور
بابل
سايس
السحرة
أفاريس
هيليوبوليس
ميرميدا
معبد القناديل
معبد سوبيك نفرو
الأخوين
ممفيس
سقاري
الأرض الجنائزية
دهشوري
بحيرة بارون
كاهون
العرافات
إخت آتون
الوديان الجافة
صنافيري
تيرانو
أبيدوس
قلعة نفتيس
أخميم
ارض المعابد الإلهية
مملكة كوش

01

الكهنةُ والسحرة والجان،

قادةُ الجيوش،

حكامُ الأقاليم والجنود،

جميعُهم حراس الإله.

والإلهُ هو حارس الرعية.

❁❁❁

02

كانت النار قد طالت كل شيء في المدينة، أحرق الدخان عينيه، ففركهما برسغي يديه النديبتين، وعندما فتحهما على اتساعهما بدت فيهما نظرة بائسة توحي أنه غير مصدق لما يراه، شاعرا بالضياع والإرهاق، لم يُخَيَّل له يوما أن برج شرفة المنزل في القلعة الذي وقف فيه مرارا منشرح القلب يتطلع في الإخضرار والإزدهار الضاجج في المدينة، ومن فوقه الآلاف من طائر الشرشور، جميل الصوت، ملَوَّن الريش، هو ذاته البرج الذي يقف فيه الآن مقبوضا حزينا يشاهد كل شيء من حوله يحترق بينما تحوم الغدفان بصوتها المزعج وسوادها الحالك في كل مكان من حوله.

تر اقص ضوء المشعل المتذبذب على الجدران من خلفه وطقطق لهيبه.

ببطء شديد التفت بوجهه يمنة، فخُيِّل له فجأة أنه يرى وجه سيده الكاهن على الجدار، وإن كان الوجه شاحبا والعينان ذابلتان منطفأتان أكثر مما يتذكرهما.

تساءل في نفسه هامسا باستغراب: «جلالة الكاهن !»، وقاطعه طيف سيده، قائلا: «لا تبتئس، ولا تضيع وقتك في الحزن.. فات الأمر

وبقي عليك تدوينه حتى لا ينساه الناس فتضيع العبرة».. فرد مرتبكا: «لكن! أنا محارب، وما أنا بكاتب».

قاطعه الطيف على الجدار مُجدَّدا: «رأيك ورأي أحدهم بك ليس بالضروري أن يكون حقيقيا، ليس بالضروري أبدا أن يكون حقيقيا يا نياخ هاو، الإنسان دائما يستطيع أن يكون ما يريده إذا ما رغب في ذلك حقا من أعماقه».

تردد صوت الكاهن في الفراغ عدة مرات وهو يتلاشى شيئا فشيئا من على الجدار، وما هي إلا ثوان معدودات مرت قبل أن يستدير ببطء، ويتوجه صوب كومة من أوراق البردي، أمسك بها مع القلم و اتكأ على الحائط المطل على بقايا المدينة المحترقة، رسم قوسين في أعلى الورقة وترك ما بينهما فارغا، ثم شرع يكتب أسفلهما مباشرة وهو يتطلع بحزن في الأنحاء يتطلع بوجه شاحب في المسلات المحطمة والأبراج التي تحترق وتماثيل الآلهة العملاقة التي باتت بلا رؤوس:

– لو أن نوح بن لامك علم مسبقا بما سيقترفه أحفاده من ذنوب، لقتل ابنه مصرايم حتى لا يهبط في هذه الأرض، أو لخرق السفينة وأغرق الجميع.

كتبها أعلى ورقة البردي، أسفل القوسين مباشرة، وكأنها افتتاحية رئيسية لما عزم على تدوينه قبل أن يهبط بقلمه قليلا للأسفل ويسترسل في الكتابة:

لم أكن طفلا عاديا، هكذا قِيل لي مرارا من قبل جدي وكهنة المعبد، كنت أعشق الاستماع إلى قصص الأساطير موغلة القدم في

صغري، أختي حتبت رع، وصديقي شبسكاف، و أنا، اعتدنا الهروب من العاصمة ممفيس عبر نفق أرضي طويل.

كان نفقا ضيقا ومخيفا، شديد الظلام، مليئا بالفخاخ القاتلة، تسكنه العقارب والثعابين والأرواح الفارة من جحيم العالم الآخر، كما أنه متصل بعدة متاهات؛ لم نعلم أبدا إلى أين تؤدي بمن يسلكها، إن دلفت بالخطأ إلى واحدة منها فأنت حتما في تعداد الأموات، لا أحد يجرؤ أن يهبط داخله إلا من يحفظون ممر اته عن ظهر قلب، وعلى الرغم من ذلك كنا نجتازه بخفة وسهولة بعدما تسللنا إليه عشرات المرات خلف الكهنة، ووضعنا علامات على الحو ائط دون أن يشعر بنا أحد.

كان النفق يفضي بنا مباشرة إلى الأرض الجنائزية في مدينة صقاري حيث المقابر والمعابد وأرواح المقاتلين الهائمة جنبا إلى جنب مع الرصد من الجن الموجود حول مقابر الآلهة والمسخَّر من قبل سحرة المعبد الأسود لحمايتها من اللصوص.

ما إن نخرج من النفق كنا نتسلل عبر ممر يضم ألف تمثال لأبي الهول، ومنه إلى داخل المعبد القديم المواجه لأملاك الملك رع.

كل ذلك لنستمع إلى قصص الأساطير الغريبة والمخيفة التي يرويها أجدادنا والكهنة لبعضهم البعض داخل بهو المعبد.

اعتدت أن أتصنَّعَ دور البطل الأسطوري تارة والشرير تارة أخرى أمام أختي وصديقي كل ليلة أثناء عودتنا للمدينة بعد سماعنا للقصص.

واعتاد شبسسكاف أن يلعب دور المنقذ لحتبت رع في كل مرة.

مرت السنوات، ما كنت أتصور يوما ما أنني قد أخبر أحدهم بقصة أسطورية، فلست بارعا في سرد القصص، لكن، كما قال جلالة الكاهن، ما رأيته لا يمكن أن يُطوى؛ فيصبحَ قيد النسيان.

فاجتياز نينوي وغابات الموتى الملاعين، ومخالفة عهد مهلائيل واستدعاء المردة من وادي سجين، وتحرير غيلان الجن مرة أخرى، كل هذه أشياء لا يجب أن تُطوى دون أن يعلم بأهوالها ما تبقى من البشر.

أمضيت من العمر أكثر مما تبقى فيه، إلا أن حياتي الحقيقية بدأت في ذلك اليوم.

❁❁❁

03

كانت الغابة هادئة، ساكنة تماما كمقبرة، إلا من صوت حفيف الأشجار وتساقط أوراقها المعتاد عليه في مثل هذه الأوقات من العام، كانت قد بدأت تكتسي بالظلال، والضباب خيم على المنحدر الذي ظهر فوقه نياخ هاو وهو ينحني ببطء وحذر نحو الأرض وفي ملامحه نظرةُ استغراب بدت واضحة تماما على وجهه مع الحيرة عندما جلس على ركبته اليمنى، و اتكأ بيده اليسرى على جذع شجرة دردار عملاقة ووجهه مثل وجه من ضل طريقه وليست هناك أي إشارة للاتجاهات، أو من وصل إلى وجهته بعد عناء ومشقة إلا أنه وجدها وجهة خاطئة.

كان مستغربا وحذرا في اللحظة ذاتها، يتطلع في نبتة غريبة الشكل وهو يقرب يده اليمنى منها ببطء شديد قبل أن يرتاب في الأمر ويتراجع فجأةً ساحبا يده بسرعة للخلف.

لم يستطع في بادئ الأمر أن يحدد إن كان ما يراه نبتة حقيقية أو أنها حيوان ملعون خرج لتوه من بيضة كبيرة، كانت النبتة ذا هيئة مخيفة، بدت له وكأنها رأس حيوان مفترس لم يره أو يسمع به من قبل، رأس فيه فك كبير خرج من الأرض لتوه، مغطى بمادة لزجة

تشبه المخاط، حمراء قاتمة اللون كالدماء، لها رائحة نتنة، غير أنها محاطة بغلاف لين خرجت منه يشبه رحم المرأة.

انتفض و اقفا، وكان الضباب قد تزايد من حوله بكثافة جعلت من الصعوبة عليه رؤية جذوع الأشجار والدروب الوعرة فيما بينها، كما أن حفيف الأشجار تزايد هو الآخر وشعر بنسمات هواء باردة تهب عليه من جهة الشمال وندفات من المطر البارد بدأت تتساقط فوقه، مما جعل الأجواء في المكان تبدو مخيفة... إلا أنه لم يعبأ للأمر، وظل و اقفا قرب النبتة للحظات قليلة يتطلع فيها بحيرة شديدة، بدا كمن يفكر في قرار يتخذه، وكان ذلك آخر ما فعله قبل أن يغمض عينيه، ويصوب كلتا يديه مضمومتين باتجاه النبتة، وقد أمسك بيده اليسرى سوارا فضيا ملتصقا بمعصم يده اليمنى كأنه قطعة منها وألقى بتعويذة سحرية فقال بصوت جهوري: «إنسيندیو».

انطلقت من بين يديه طاقة زرقاء اللون، ضربت النبتةَ ففجرتها على الفور، حولتها إلى أشلاء متناثرة تحترق فور ملامستها للأرض وتتحول إلى مادة سائلة ولزجة تنبعث منها أبخرة ذات رائحة كريهة للغاية، رائحة جعلته يستاء لدرجة أنه قام مسرعا بتغطية أنفه بالحرملة التي تحيط برقبته وكتفيه وقد ظهرت في ملامحه نظرة اشمئزاز... على الرغم من الرائحة النتنة التي أحاطت به، ظل و اقفا في مكانه يتطلع في بقايا أشلاء النبتة المحترقة، وقد اعتراه شعور المنتصر، إلا أنه لم يهنأ بهذا الشعور لثوان قليلة، فما إن التف بوجهه يمنة بغية المغادرة، وقبل أن يبرح مكانه، وقعت عيناه على واحدة أخرى، كانت قريبة منه للغاية.

مفاجأة غير سارة، أوقفته في مكانه مجددا وقد بدا مصعوقا وهو ينظر إليها ثابتا كمومياء محنطة.

حرك عينيه ببطء يشوبه قلق، وللحظة شعر بوحدته وسط هذه الغابة الكبيرة وهو يتطلع في المكان من حوله ممنيا نفسه ألا يجد غيرها، ولم يهنأ بما تمنى، إذ وقعت عيناه على واحدة أخرى بالفعل، كانت على بعد مسافة تقدر بعدة أمتار قليلة، وما إن تطلع بعينيه في مساحة أكبر، وجد غيرها عددا كثيرا منتشرا في كل مكان حوله، وبدت له كأنها رؤوس شيطانية خرجت لتوها من باطن الأرض.

لم يسمح للخوف بأن يتسلل إلى قلبه، كان صغيرا في السن، إذ لم يتجاوز منتصف العشرينات بعد، إلا أنه رأى كثيرا من الأشياء الغريبة والمريبة في حياته القصيرة، كما أنه كان قوي البنية، صارما، إذ عمل صيادا كما والده وأجداده لفترة قصيرة عندما كان صبيا صغيرا، قبل أن يصبح في شبابه مصارعا محترفا بعدما ترعرع وتمرن في حلبات القتال جنبا إلى جنب مع صديقه شبسكاف.

في نهاية الأمر التحقا سويا بفيلق حراس الكاهن الأكبر كاي تاي الذي علمهما السحر والحكمة قبل أن يهب كل منهما سوار السحر الفضي الخاص به بعدما أصبحا الحارسين الخاصين له ولقلعته مما أكسبهما ثقة كبيرة في أنفسهما.

على الرغم من أنه لم يخف، إلا أن شعورا بالقلق اعتراه على سيده الذي كان قد تركه يمارس طقوسه في حرية في معبد القناديل أعلى قمة الغابة الآمنة.

بعينين ثاقبتين وعقل شغلته الأفكار، نظر لأعلى عبر الطريق الصاعد نحو التل الذي يفضي في نهايته إلى معبد القناديل، إلا أن الضباب الكثيف أعاق رؤيته لأي شيء أمامه... على عجلة أغمض عينيه، وهم بوضع يده اليسرى على السوار في معصم يده اليمنى مرة ثانية وهو يلقي بتعويذة سحرية أخرى، فقال بصوت عال تردد صداه في الغابة التي اصطبغ أفقها باللون الأحمر مع اقتراب مغيب الشمس عن السماء: «شاكوفيساي... شا... كو فيساي».

رددها مرتين وهو يباعد بين يديه ببطء بطريقة أفقية بعد أن رفع يسراه عن السوار، فبدأت الأشياء من حوله تعرض له داخل عقله بوضوح تام وهو ما يزال مغمض العينين، رأى النبتة الغريبة انتشرت في كل مكان حوله حتى ملأت دروب وساحات الغابة، عددها تجاوز المئات وربما الآلاف، الكثير من الحيوانات تهرول في كل اتجاه مفزوعة تهرب من شيء ما؛ لم يستطع هو رؤيته، رأى الطريق الصاعدة إلى أعلى التل حتى معبد القناديل، ظهرت له عجلته الحربية ومن حولها اثنان من الخيل الأرقط، كانا يضربان الأرض بقدميهما، وكأن شيئا ما غير ظاهر يخيفهما، ثم ظهر له معبد القناديل واضحا تماما.

اثنتا عشرة شجرة عملاقة، مرصوصة بشكل هندسي دائري على مسافات متساوية تماما، الأشجار هيئتها هيئة قنديل البحر، لها غصون خضراء تكاد تضيء من شدة خضرتها، من الأعلى تتخذ شكلا مستديرا مقوسا ومجوفا مرفوعة على جذع رئيسي بيد أن الآلاف من الأغصان متدلية منها حتى الأرض وكأنها ستاريخفي ما بداخل المعبد، الأغصان الخضراء فسفورية اللون؛ تزداد إضاءتها كلما اهتزت بفعل الرياح الخفيفة التي تمر عبرها، كما رأى سيده الكاهن جالسا آمنا في

مكانه حيث تركه في وسط المعبد، كان سيده في منتصف الستينيات من عمره، أصلع الرأس، مرتديا ملابس بيضاء مصنوعة من الكتان الصافي، وعلى الرغم من سنه يبدو نحيلا كرجل أصغر عشرين عاما، لا تنقص ملامحه الوسامة وإن شابتها القسوة، مرتديا في معصم يده سوارا أخضر اللون، ومطعما بثلاث نجوم مضيئة نارية اللون.

كان مغمض العينين، واضعا كلتا يديه فوق ركبتيه ويتلو بعضا من الصلوات المقدسة وهو يقوم بالطقوس التي اعتاد أن يؤديها في معبد القناديل.

لم يشعر الحارس بالطمأنينة على سيده لمجرد رؤيته على هذه الحالة، إذ شعر أن طاقة شريرة وكراهية غير مألوفة انتشرت في أرجاء الغابة، فقرر أن يستطلع الجهة الأخرى من المعبد.

التفت بوجهه ينظر في الاتجاه الآخر من المعبد، فإذا به يرى حيوانا عملاقا في حجم خرتيت يخترق الضباب الكثيف ويجري بسرعة شديدة مندفعا وسط الأشجار يدهسها دهسا، قادما من مسافة بعيدة باتجاه المنحدر في الجانب الآخر من المعبد، متوجها صوب سيده مباشرة.

كان الحيوان يصطدم بالأشجار المتوسطة فيقتلعها والكبيرة تنكسر فروعها من كبر حجمه وقوته، كان له رأس خنزير يعلوه قرن خرتيت، فكه يشبه رأس النبتة الشيطانية التي أحرقها قبل قليل، بشع المنظر إذ أن أسنانه متباعدة عن بعضها البعض بشكل مقزز، والدماء تتقاطر من بينها، وجسده مليء بالشعر الكثيف مما جعله يبدو كالغيلان الشيطانية.

في لحظتها، ودون هوادة على نفسه، توجه توا قاصدا معبد القناديل، جريا بأقصى ما لديه من سرعة، يدفعه خوفه على سيده الكاهن.

كان الطريق إلى أعلى وعرا بشدة، مما جعله يتعثر مرتين متتاليتين جراء الضباب الذي حال بينه وبين رؤية إن كانت الأرض ممهدة أو أنها غير ذلك، في المرة الثالثة اصطدم بفرع شجرة عملاقة، وتسببت الصدمة في جرح قطعي برأسه وسقوطه أرضا.

وقف على الفور وهو يتحسس الدماء النازفة من جبينه، وقد انتابته حالة من الغضب جراء ما حدث له، إلا أنه لم يهدر وقته بالتفكير في حاله وما حدث، فأغمض عينيه وهو يضع قبضة يده على السوار وقال بنبرة صوت جادة: «ألوهومورا».

انفتح له باب في الفراغ، قفز بداخله واختفى على الفور.

كان الكاهن كاي تاي ما يزال جالسا في مكانه داخل المعبد، غير مكترث بما يحدث في الخارج، فمعبد القناديل ليس مجرد مكان عادي بقدر كونه مكانا سحريا، له طبيعته الثابتة التي لا تتأثر بما يحدث من حوله، درجة حرارته ثابتة طوال العام، حتى درجة إضائته لا تتغير في الليل أو النهار فالإضاءة المنبعثة من أغصان الأشجار وأوراقها توفر له إضاءة ثابتة طوال الوقت كما أنها تعكس وتحجب أشعة الشمس فتمنعها من الدخول إليه.

وعلى الرغم من ذلك، كان الكاهن مدركا لكل شيء يحدث، إلا أنه ظل ساكنا لا يبدي أي ردة فعل، مغمض العينين، واضعا كلتا يديه

فوق ركبتيه ويكمل طقوسه في هدوء وسكينة، وكأنه يعلم مسبقا بمجريات الأموروما ستؤول إليه.

انفتح الباب في الفراغ مرة أخرى، هذه المرة انفتح داخل معبد القناديل، إلى جوار الكاهن مباشرة... دلف منه نياخ هاو مندفعا وكأن أحدهم قذف به... كان ما يزال منزعجا غاضبا بوجه عبوس، حيث ظهر مقطب الحاجبين وهو يفرك رأسه النازفة المتألمة من أثر الصدمة التي حدثت له قبل ثوان قليلة.

كان مرتبكا، متوترا والدماء تسيل على جبينه، أراد لو يصرخ في سيده يقص عليه ما حدث وما رأى في الغابة، ربما لو نطق لقال له أن رؤوسا شيطانية غارقة في دماء ذات رائحة نتنة نبتت في الأرض، وانتشرت في الغابة، وأن شيطانا يتلبس جسد خرتيت لديه رأس خنزير بشع المنظر قادم بسرعة شديدة في الإتجاهنا الآن، إلا أن هدوء سيده وحالة السكينة التي ظهر عليها جعلته يرتاب.

للحظة، ظن أنه في كابوس أو أنه يعاني من نوبات جنون وخيالات مريضة، إلا أن صرخة مدوية أطلقها الحيوان القادم باتجاههم أعادت إليه اتزانه وأكدت له أنه في وعيه تماما وأن خطرا محدقا قادم إليهم.

لم يبرح الكاهن مكانه رغم صرخة الحيوان المدوية، بل إنه لم يفتح عينيه المغلقتين ولم يبد أي ردة فعل من الأساس، ظل ساكنا تماما في جلسته غير مكترث، في حين أن شعورا هائلا بالتوتر تملك من نياخ هاو وتسرب إلى أعماق روحه.

لم يكن يجرأ على مقاطعة طقوس سيده، في حين علمه أن سيده يرى أكثر مما يراه هو، ويعلم أضعاف ما يعلمه، كما أنه لديه من قوة السحر ما يمكنه من حماية نفسه جيدا، إلا أن سكونه في حد ذاته كان شيئا غريبا ومريبا، خاصة وأن الحيوان الغريب أوشك أن يصل معبد القناديل.

تصاعدت حالة التوتر في المكان، تزايد معها خفقان قلب نياخ هاو الذي كان يتنقل بعينيه ما بين الكاهن والاتجاه الآخر القادم منه الحيوان وقد تصبب وجهه عرقا، ثم أدرك والخوف يعتريه فجأة أن عليه فعل شيء ما، فلا يمكنه أن يلعب دور المشاهد أكثر من ذلك.

في تلك اللحظة، انطلق مسرعا إلى خارج المعبد وهو يجرد سيفه من غمده، كان سيفا متوسط الحجم والطول إلا أنه مصنوع في قلعة... ما إن رأى الحيوان بحجمه الحقيقي، عملاقا قادما في اتجاهه، وكان قد أصبح على بعد مسافة تقل عن عشرين مترا، وما زال يتقدم، تنقل بعينيه مرتين بين الحيوان والسيف، ثم أدرك في نفسه أن هذا السيف لعبة سخيفة أمام هذا الكائن العملاق الذي يبدو مفترسا وسوف يفتك به.

ألقى سيفه من يده على الفور، ثم عقد كلتا يديه سريعا بحركة مستديرة قبل أن يقبض مجددا بيده على السوار، فبدا كمن يستجمع قواه، ثم ألقى بتعويذة سحرية وهو يوجه كلتا يديه نحو الحيوان وأغمض عينيه في جزع وقال: «ستوبيفاي».

انطلقت من بين يديه طاقة بيضاء اللون، متعرجة، تشبه ضوء الرعد، صدمت الحيوان، صعقته على الفور، وتسببت في سقوطه

أرضا، إلا أنه لم يبق على الأرض سوى ثوان معدودات... حاول النهوض مجددا وهو يطلق صرخة غاضبة ومدوية ومخيفة، تردد صداها في الغابة حدا أفزع الطيور فجعلها تفر بعيدا عن الأشجار، كما تطايرت على أثرها الدماء اللزجة التي كانت تتقاطر من فمه وهو يضرب بقدميه الأرض، فبدا كمن يتهيء للانقضاض مجددا على الحارس نياخ هاو الذي نظر مسرعا في توتروقلق للخلف باتجاه معبد القناديل، نظرة قلق شديد وحيرة، ليست على سيده بل منه، إذ عزم على استخدام تعويذة سحرية محرمة، وكان قلقا من ردة فعل سيده، إلا أنه وجد نفسه مضطرا لذلك، فالتف بوجهه ثانية ولم يتوان للحظة في عقد يديه مرة أخرى وإغماض عينيه واستجماع أقصى ما لديه من طاقة وصاح قائلا: «سيكتوسيمبرا».

قالها وهو يفتح عينيه على آخر اتساعهما ويوجه كلتا يديه باتجاه الحيوان مجددا، فانطلقت من بينهما طاقة حمراء نارية اللون، وكان الحيوان قد أصبح على مقربة شديدة منه، فلو أنه تأخر ثانية واحدة في إلقاء التعويذة ربما كان في تعداد الأموات.

إلا أن التعويذة ضربت الحيوان مباشرة ففجرته، وحولته إلى أشلاء مما جعل دماءه تتطاير في كل مكان من حوله فلطخت الأرض والأشجار و انبعثت منه رائحة نتنه تشبه تماما تلك التي انبعثت من النبتة الشيطانية قبل قليل، كما أنها طالت إحدى يدى نياخ هاو فتسببت له في حروق على الفور، فتراجع بضع خطوات للخلف وهو منزعج متألم يزيل الدماء عن يده وجسده، وكانت تفور على ملابسه وتتفاعل وكأنها دماء حارقة، بيد أن السوار في معصم يده كان يضيء بشدة وتنبعث منه حرارة شديدة حد أنها آلمته للغاية.

لدى عودته معبد القناديل، كان ممسكا بمعصم يده و آثار الحرق بادية عليه. وما إن دلف من بين أغصان شجر القنديل وكان يلف قطعة قماش مصنوعة من الكتان حول معصمه إذ بصوت غريب قادم من السماء يصدح من حوله في كل مكان، فثبت على الفور في مكانه، وجرد سيفه من غمده مرة أخرى.

وعلى الرغم من ذلك نظر نياخ هاو إلى السيف في حيرة من أمره وكأنه يتساءل ما فائدة هذا الشيء فيما نواجهه.

ثم استدار دورة كاملة في حذر، حاول جاهدا أن يكتشف مصدر الصوت، بينما فاجأه الكاهن بفتح عينيه على اتساعهما وبدا منتبها منزعجا تماما من الصوت وهو ينظر نحو السوار الأخضر في معصم يده وكانت النجوم الثلاثة عليه تضيء باضطراب سريع.

استغرب الحارس من ردة فعل سيده في حين أن الأخير ظل على حالته منتبها ينظر إلى السوار وقد اعترته حالة من القلق واضحة تماما في ملامحه التي وشت بأنه غير مصدق لما يسمعه أو ما يراه.

كانت الأصوات تتكرر دوريا، مما جعل الحارس يحتاط أكثر، والتفت بتوتر في كل الإتجاهات، لكن الكاهن نهض من جلسته على الفور وقال: «فلنغادر».

سأله نياخ هاو في قلق واضح على وجهه: «ماذا يحدث جلالة الكاهن؟! وما هو مصدر تلك الأصوات؟» أجابه الكاهن بحدة يشوبها قلق: «لا تهتم... فلنغادر على الفور».

❁❁❁

04

كانت السماء قد اكتست بحجاب من السواد الحالك بالفعل قبل أن يبلغوا القلعة... وجدوا مشاعل كثيرة يحملها حراس وبعض من العامة وصوت جلبة في انتظارهم.

أحد الحراس فور رؤيته عجلتهم الحربية قادمة من بعيد التف بوجهه وهرول سريعا للداخل، اخترق الجموع متوجها نحو سيدة القلعة الجالسة منذ ثلاثة أيام في برج الشرفة المطلة على المدينة، وقال وهو يلهث: «لقد عثروا عليهم يا سيدتي».

انتفضت السيدة كاريسا زوجة الكاهن و اقفة بسرعة وهي تسأل: «رجالنا أم رجال المعبد؟».

أجابها الحارس: «لقد عادوا وحدهم... إنهم بخير تماما».

غمغمت كاريسا: «الشكر للآلهة».

كان رجالها يبحثون عن الكاهن وحارسه منذ ثلاثة أيام كاملة، لكن رجال المعبد خرجوا للتفتيش عنهم كذلك، وكان يهمها بشدة أن يجدهم رجالها لا رجال المعبد فهي لا ترغب أن يكون لهم الفضل عليها في شيء.

غادرت البرج بخطى متسارعة، توجهت نحو ساحة القلعة الخارجية تدفعها لهفة الاطمئنان على زوجها... وكان الرجال يقتربون من الكاهن رغبة منهم في الاطمئنان عليه وهو يقطع ساحة القلعة، لكنه تجاهلهم وهو يتحرك بسرعة.

كان يود أن يجري إليها ويتدثر في ثيابها وكأنه يبحث عن السكينة والاطمئنان، لكنه ما زال الكاهن الأكبر ولا بد أن يحافظ على وقاره... كان مدركا العيون التي تتبعه، والأصوات المكتومة التي تتساءل عما حدث و أين كان في تلك الأيام الماضية.

كانت الساحة مزدحمة بالحراس عندما دلف إليها نياخ هاو مندفعا خلف سيده، مزدحمة أكثر من اللازم في رأيه، لا يفهم ما الداعي لكل هذه الجلبة فهم تغيبوا بضع ساعات ليس إلا.

لم يكن يعلم أن ثلاث أيام كاملة قد انقضت عليهم في الغابة، ولو أنهم بقوا قليلا فيها لربما عادوا في زمان غير الزمان بعد أن فقدت الغابة عامل الزمن في تلك اللحظات التي انطلقت فيها أبواق السماء التي تتسبب في اضطراب الزمن، وتصنع فجوة كونية تتسارع فيها السنوات.

استقبلهما شبسكاف حارس السيدة كاريسا وصديق نياخ هاو بابتسامة عريضة وهو يحمد الإله على عودتهما سالمين، إلا أن عينيه كانت معلقة تماما على صديقه القادم من الخلف... كان قد قاد البحث بنفسه طوال الأيام الثلاثة المنقضية بعد أن قطع وعدا إلى حتبت رع شقيقة نياخ هاو بأنه سوف يعود به إليها سالما... ومنذ اختفى الكاهن ونياخ هاو لم ينم لأكثر من ساعة.

هذا المساء كان يشعر بكمد وإعياء شديدين حتى أنه استطاع الوقوف بصعوبة، لكن قواه تجددت الآن عند رؤية صديقه وسيده بخير.

التفت بوجهه ينظر إلى حتبت رع نظرة ذات مغزى مفادها أنه أوفى بوعده، بادلته بدورها النظر بعينين لامعتين وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة هادئة ازدادت وجنتاها احمرارا على أثرها وهي تومیء له برأسها بالشكروالامتنان، إلا أن ملامح وجه شبسكاف تبدلت فجأة واستشاط غضبا عندما سقطت عيناه على عجلة حربية سوداء توقفت أمام الساحة، كان لها شكل غريب ومخيف، حيث عُلِّقت على جانبيها وفي مقدمتها جماجم بشرية وجماجم خنازيروضباع.

هبط من العجلة حارس عملاق بطول ثمانية أقدام، يرتدي خوذة كبيرة، وترجل من خلفه رجل غريب الأطوار، يرتدي الأسود من قمة رأسه حتى أخمص قدميه، بدا من حركته أنه في عمر يقارب عمر الكاهن كاي تاي، إلا أنه كاهن رشيق الحركة. ودلفا مباشرة إلى الساحة، فعم صمت مريب.

تفرقت الجموع المحتشدة وهم يتهامسون فيما بينهم بخوف، صنعوا له ممرا يفضي مباشرة نحو الكاهن الذي كان ما يزال و اقفا يربت على كتف زوجته كاريسا وإلى جوارهما حتبت رع وشبسكاف ونياخ هاو الذي اقترب منهم هو الآخر فوردخول الرجل للساحة.

نظر شبسكاف إلى سيده الكاهن وهو يجرد سيفه من غمده، إلا أن صديقه كان أكثر منه تريثا وحكمه، إذ نظر إليه نظرة ذات مغزى وهو يومئ له برأسه بإشارة مفادها أن ما يفعله بلا فائدة.

حالة من التوتر والقلق لفت الأجواء وتزايدت مع كل خطوة يخطوها الرجل ذو الملابس السوداء نحو الكاهن الذي رفع يده وأشار بها إلى شبسكاف يطالبه بأن يغمد سيفه مرة أخرى، والتفت بعد ذلك وقد اعترته حالة استغراب بدت واضحة في ملامح وجهه وهو يقول: «خا... إم... ويست!!».

في وقت لاحق من الليل، داخل شرفة المنزل المطلة على المدينة، جلس نياخ هاو جنبا إلى جنب مع شبسكاف وبعض حراس الكاهن الآخرين وقد بدأ الإعياء واضحا في أوجه الجميع.

على جدران الساحة مشاجب عُلِّقَت فيها تماثيل متوسطة الحجم ممسكة بقناديل زيتية أُشْعِلت فيها نيران أضاءت المكان، الأرض مفروشة بالفراء بعضها أُخِذ من الأغنام وبعضها من الثعالب.

وعلى الرغم من تسامر الحراس ومزاحهم مع بعضهم البعض إلا أنه ظهر في حالة غير طبيعية، شارد الذهن، خائر القوى من كثرة التفكير، ما زالت أحداث اليوم تشغل عقله، ولولا أن سيده أمره بكتمان ما حدث وعدم الخوض فيه كثيرا مع بقية الحراس لكان الآن يسرده للجميع، ربما ليفتخر بنفسه وما فعله في الغابة، وربما بحثا عن إجابات تريح عقله الشارد في تفكير مستمر عن ماهية النبتة الغريبة والحيوان ذا جسد الخرتيت ووجه الخنزير والأصوات الغريبة القادمة من السماء.

كان الجميع ينظرون إليه من آن لآخر يحثونه على الحديث، لكن نظرة شبسكاف وحدها كانت المطمئنة حقا.

ترك الساحة بعينين متقدتين وتوجه نحو البرج في الشرفة، وقف يتطلع في التمثالين اللذين يرتفع كل منهما اثني عشر قدما، أحدهما يمثل كاريسا والآخر سيده كاي تاي وصوت الحيوان و أبواق السماء يتردد في أذنيه... لحقه شبسكاف الذي وضع يده على كتفه وقال: «نياخ هاو... أأنت بخير!».

كان نياخ هاو ممتقع الوجه عندما بدأ في الحديث؛ يحكي نسخته من القصة دون أن يلتفت إلى صديقه، وظل يسترسل في الحديث لوقت طويل، وعندما فرغ من الكلام كان الحراس جميعا قد غادروا الشرفة، ولم يبق معه إلا شبسكاف الذي تراجع خطوة للوراء متثاقلا باديا كرجل يرغب أن يكون في أي مكان آخر غير هنا بعد الذي سمعه، وقال: «ما الذي يجدر بي أن أفهمه من هذا بحق الآلهة؟ إن ما تقوله وما فسره لك الكاهن أثناء طريق عودتكما إلى هنا لا يعني سوى شيء واحد!».

قال نياخ هاو في هدوء شديد ومخيف: «نعم، لم نكن الوحيدين هناك، ولم نعد الوحيدين هنا، باتت غيلان الشياطين في كل مكان، لم تعد المدينة آمنة، هذا ما يظنه جلالة الكاهن».

اتسعت عينا شبسكاف الناعستان، واعتدل متوترا وسأله في حيرة مستغربا: «لذلك أتى الشيطان خا... إم... ويست إلى هنا؟!».

كان القمر على وشك أن يغادر السماء، وكان الكاهن ما يزال جالسا في مخدع نومه تنتابه هو الآخر حالة من القلق والتعب بادية تماما في وجهه مع الحيرة.

حاولت كاريسا الجالسة إلى جواره بملابسها الحريرية الزرقاء البراقة والتي تكشف من جسدها الضاجج بالأنوثة أكثر مما تخفي أن تهدئ من روعه، كانت شابة دائما، نحافتها جعلت منها امرأة لا تتأثر بعوامل السن، وكأن عمرها توقف في بداية الأربعين.

سألته إن كان قد تناول شيئا من الطعام وهي تمد يدها تمسك بشريحة من اللحم موجودة وسط مائدة مليئة بالطعام على مقربة منها، إلا أنه أشار بيده رافضا تناول أي شيء، فتناولت هي شريحة اللحم، وقضمت منها قضمة صغيرة وقد علقت عينيها على وجهه وهي تبتسم له ابتسامة ذات مغزى، وتنظر إليه نظرة مفادها أنها راغبة فيه، ربما لم تكن ترغب فيه حقيقة إلا أنها تدرك كأي امرأة أن احتضان رجل خائر القوى مرتاب يعيد إليه طاقته، ويبث في روحه شيئا من الأمان يشعره بالقوة أكثر مما يحتاج.

تعمدت أن تسقط حمالة كتفها لتظهر له شيئا من جسدها، إلا أن الكاهن أسقط رأسه على كتفها وربت بيده على ظهرها برفق شديد ولم يحرك ساكنا بعد ذلك، إذ ظل على حالته شاحب الوجه، وقد أخذ الشرود منه كل مأخذ.

في شرفة المنزل، كان نياخ هاو جالسا على الأرض بجوار صديقه شبسكاف وقد أعطيا ظهريهما للبرج، وكان الحديث بينهما ما يزال ممتدا لم ينقطع بعد عندما دلفت حتبت رع من الباب مضيئة كضوء الصباح، ودنت منهما بهدوء الظلال، وقالت بصوتها العميق المنكه بالموسيقا وهي تقدم الطعام إليهما: «استشعر قلبي أنكما ما تزالان مستيقظين، فرأيت من الجيد لو أحضرت لكما شيئا تأكلانه».

كان رداءها الأبيض يكسوها من قمة رأسها حتى أخمص قدميها، لباس طويل وفضفاض مصنوع من الكتان الأبيض، طُرِّزت عليه أشكال زخرفية تحمل اسم الرب رع إله النور.

تنقل نياخ هاو بعينيه بين ردائها الزاهي وبين الطعام في يديها، بينما علقت عينا شبسكاف على وجهها وكأنه يراها للمرة الأولى وقد كان ينظر إليها ذات النظرة في كل مرة تقع عيناه عليها.

قال نياخ هاو مداعبا شقيقته وهو يتناول الطعام من بين يديها وقد بدت عليه الدهشة لمرآها: «من المفترض أن تكوني في فراشك يا فتاة».

أجابته بصوت ناعم كقبلة وملامح بشوشة: «عز علي أن أترككما جائعين بعد يومكما الشاق».

قال ممازحا إياها وهو يرفع سبابته: «أنا فقط... أنا فقط من كنت في الخارج».

علقت حتبت رع في خجل وهي تختلس نظرة تتطلع بها مبتسمة في وجه شبسكاف: «وهو...».

ثم توقفت عن الحديث لثوان معدودات قضتها كاملة في النظر داخل عيني شبسكاف قبل أن تكمل جملتها قائلة بنبرة صوت ازداد فيها الخجل: «وهو من كان يبحث لي عنك».

حاول شبسكاف التظاهر بالجدية وهو يقول: «حتى لو... لا يجدر بك أن تكوني هنا... إنه جوف الليل البارد».

إلا أن ملامحه فضحته، لم يكن باستطاعته أبدا أن يخاطبها في جدية دون أن يبتسم.

كانت الساعة متأخرة بالفعل، لكن حتبت رع لم تمانع من السهر وإعداد الطعام لأجلهما، أو في حقيقة الأمر أنها اعتادت أن تخاصم النوم طالما أن أحدهما مستيقظ.

كانت تمتلك ما يكفي من حياء لأن يتضرج وجهها بحمرة الخجل وتلمع عيناها العسليتان، ولقد بدت جميلة حقا وهي خجول.

فكر نياخ هاو بشيء من الدهشة وهو يتأمل ملامح وجهها ويهمس في نفسه: «إنها تفعل كل شيء بشكل عفوي جميل ولا تستطيع إخفاء مشاعرها أبدا»، ثم ضحك فجأة في وجهها، مما جعلها تلتفت في الاتجاه الآخر تتحاشى النظر في عينيه.

كان يعلم جيدا بأمر الشعور المتبادل بينها وبين صديقه، بل كان يتلذذ بمتابعتهما وهما يسترقان النظر لبعضهما البعض أيما جمعهما مكان، وكان يحترم فيهما احترامهما له طوال الوقت.

قال شبسكاف مقترحا وهو يبتسم: «نياخ هاو... ألا تدعوها لتناول الطعام معنا؟!».

أمعن نياخ هاو النظر في وجه شقيقته الضاجج بالخجل لثوان معدودة ثم أشار إليها بالجلوس.

جثت على ركبتيها وحدجت شقيقها بنظرات عامرة بالمحبة قبل أن تغمض عينيها وكأنها تشكر الآلهة عليه.

حطت الأطباق، حساء ساخن من لحم الغزلان والشعير، سلطات من خضار الطماطم والسبانخ رشت عليه التوابل والمكسرات المسحوقة، إلى جوار سمك الترويت الطازج من النهر وقد طُهِي في أغلفة من الصلصال.

كانت حتبت رع تقدم الطعام طبقا بعد آخر، وعندما قدمت طبق اللحم تعمد شقيقها أن يختطف أول قطعة فيه وقدمها إليها بنفسه مقطعا شريحة من المفصل تليق بها كملكة وليس مجرد مدبرة لقلعة سيده الكاهن كاي تاي، و ابتسم وهو يضعها لها على طبقها.

لاحظت حتبت رع من الطريقة التي يتحرك بها نياخ هاو أن ذراعه لا تزال تؤلمه، لكنه لم ينبس بكلمة شكوى واحدة.

على الفور، انتقلت بجسدها الضئيل إلى كنف أخيها، وبرفق قبضت بيدها على معصم يده وهي تشير إليه أن يتوقف عن إطعامها وإطعام نفسه، من ثم بدأت في إطعامه بنفسها وقد لمعت عيناها وأضاءت وهي تتطلع في عينيه.

❁❁❁

05

بزغ النهار باردا صافيا مع شيء من الجفاف في الجو يشي بدنو نهاية الصيف، كانت القافلة التي تضم عشرينا من حرس الكاهن يمتطون الخيل والعجلات الحربية، تر افقهم بضع نساء من خادمات السيدة كاريسا يجلسون في عربات مخصصة لهم قد تحركت قبل بزوغ الشمس في رحلتهم الدورية للتبضع، كان على رأسهم شبسكاف ذي العينين الناعستين؛ الذي لم يكفه يوم واحد ليتعافى من مشقة الأيام الثلاثة المنصرمة التي قضاها في البحث عن الكاهن، كان نائما على متن عجلته الحربية طوال الوقت، يفتح عينيه ما بين آن وآخر بمشقة بغية اختلاس النظر والاطمئنان على حتبت رع في مكانها.

كانت حتبت رع من آن لآخر تلتفت بدورها هي الأخرى من حولها تبحث عنه، فتارة تجده على يسارها، وتارة من يمينها، وتارة خلفها، لم يكن يسبقها أبدا.

تستغرق الرحلة من سبعة أيام إلى عشرة، بحسب ظروف المناخ وحالة الأسواق ومدى تو افر ما يبحثون عنه، يقضونها جميعا على مقربة من ضفاف النهر، يمضون على الطريق من الفجر إلى الغسق، يمرون بالغابات والبساتين والحقول بالغة الجمال، وعبر القرى

الصغيرة والبلدات التجارية المزدحمة، يقضون حاجاتهم، وعندما يحل الظلام يخيمون ويلتهمون طعامهم على ضوء القمر أو أحد القناديل الزيتية التي تضيء لهم، ويتولى الرجال الحراسة بالتناوب.

في ليلتهم الأولى، كان الظلام سائدا عند توقفهم على مشارف قرية عند مدينة كاهون، قرب البحيرة الكبيرة بارون.

كانت حتبت رع لماحة، متوقدة الذهن دائما، في كل مرة تخيم في ذات المكان قرب البحيرة، تلمح نير انا تومض من بين الأشجار في مخيمات المسافرين الآخرين، وبدا لها في الرحلات السابقة أن عدد المخيمات يزداد كل رحلة عن سابقتها، كما تزداد الحركة على طريق البلدات التجارية بالنهار، حيث يأتي المسافرون في الصبح والظهر والمساء، مسنين وأطفالا ورجالا منهم كبير الحجم وضئيله، وفتيات جميلات وأمهات تضم كل منهن رضيعها إلى صدرها أو تصطحب طفلا صغيرا يلهو من حولها، بعضهم يقود عربات المزارع والبعض يركب متخبطا في مؤخرة عربات تجرها الثيران، جميعهم في حالة من البهجة، بالإمكان دائما أن تسمع صوت ضحكاتهم العالية والغناء في كل مكان تمر فيه.

لكن هذه المرة وجدت شيئا مختلفا، الأعداد قليلة، المخيمات تكاد تُعَد على أصابع اليد، عدد أكبر امتطى أحصنة القتال والخيول القزمة والبغال والحمير، أي شيء يمكنه أن يمشي أو يجري.

ارتابت في الأمر، وأخذت تراجع أحداث اليوم في ذهنها علها تفهم شيئا، تذكرت رؤية امرأة ما تبكي وهي تجر عددا من الخراف وبقرة حلوبا على ظهرها فتاة صغيرة، رأت حدادا شاحب الوجه يدفع عربة

يد وفيها أدواته، المطارق والملقط وحتى السندان، بدا أنه مغادر مكانه بلا رجعة، بعد قليل رأت رجلا آخر يدفع عربة يد أخرى، وإن كانت تحوي أشياء غيرواضحة ملفوفة بدثار.

أغلب من رأتهم قطعوا الطريق سيرا على الأقدام، وقد حملوا ممتلكاتهم على أكتافهم وفي أعينهم لاحت نظرات متعبة متشككة خائفة، يتجهون شمالا صوب العاصمة، صوب ممفيس، بينما يتجه شبسكاف ومن معه جنوبا باتجاه العاصمة القديمة، أبيدوس، التي أصبحت عاصمة الجنوب الآن، ما جعل عددا محدودا للغاية من المسافرين يلتفت إليهم ويوجه لهم نظرة مريبة.

تساءلت في نفسها عن سبب كونهم الوحيدين الذين يسلكون هذا الاتجاه.

كانت ما تزال تتطلع حولها بارتياب وتتذكر أحداث اليوم، مسافرون كثيرون كانوا مسلحين، ورأت سكاكين وخناجر ومناجل وفؤوسا، وسيوفا هنا وهناك، بينما صنع بعضهم هراوات من فروع الأشجار، كانوا جميعا يتحسسون أسلحتهم ويسلطون أنظارهم مع مرور العربات بهم، وفي النهاية يتركون الركب يمضي.

حاولت حتبت رع طرد هواجسها بعيدا، فأحصت ما تبقى معها من عملة في كيس النقود، وقررت أن تعطيه إلى شبسكاف، ثم هرولت ومن معها من فتيات صوب البحيرة.

تخلوا عن ملابسهن بسرعة وقد تعالى صوت ضحكاتهن وهن يهرولن في اتجاه الشاطئ، وما إن وطئن بأقدامهن الماء، وقبل أن

يتعمقوا فيه، ظهرت امرأة مجنونة من العدم، أخذت في الصراخ فيهن من على جانب الماء: «يا حمقاوات! ستموتن يا حمقاوات!».

كانت نحيفة كالفزاعة، زائغة النظرات ودامية القدمين.

صرخت الفتيات، فانطلق الحراس صوبهن في الحال كالسهام وأحالوا بينهن وبين المرأة، وحدها حتبت رع هرولت صوب شبسكاف تختبئ فيه وتخفي جسدها العاري خلف جسده.

أمر شبسكاف الحراس أن يتقصوا أمرها إن كانت عجوزا في غير وعيها وأن يبعدوها عن الفتيات ويعيدوها إلى ذويها إن كانوا قريبين.

لم تجرؤ حتبت رع والفتيات على الاستحمام، على الرغم من أن رائحتهن صارت كريهة لأقصى حد كرائحة من سقط في الوحل، فروائح كثيرة طالت ثيابهن أثناء التجول في الأسواق وبين القرى ورائحة العرق قد تمكنت منهن، إلا أن شيئا ما أخبرها ألا تقترب من الماء.

فتاة واحدة وقفت شبه عارية تتطلع في وجوه الجميع وهي صامتة إلا أن شفتيها وحاجبيها كانوا يتحدثون بلا صوت قبل أن تخلع ما تبقى من ملابسها وتلقي بنفسها في الماء بطريقة أوحت أنها فتاة لعوب بعدما تعمدت إبراز أنوثتها للحراس.

استاءت حتبت رع مما شاهدته، إلا أنها أسرت الأمر في نفسها وازداد استياؤها عندما انضم شبسكاف إلى صف الحراس المتوجهين إلى الاستحمام، وألقوا بأنفسهم جميعا في الماء جنبا إلى جنب مع الفتاة.

كسر حارس محظوظ القليل من الخشب الجاف من جزع شجرة قديم، كانت الشجرة ميتة منذ زمن طويل مما سهل عليه تقطيع أغصانها، بينما جمع شبسكاف وحتبت رع برفقة حارسين آخرين القش.

أشعل شبسكاف الشرارة الأولى بنفسه، وهوى ليم اللهب بمعطفه إلى أن تأجج، فبدا كأن أغصان الشجرة عادت إلى الحياة ثانية في ضوء النار، إذ دبت الحركة في رقصات من لهب داخل كل قطعة من الخشب، أخذن يدرن ويتواثبن في فساتين وهاجة من الأصفر والأحمر والبرتقالي، وسرعان ما أصبح الجو دافئا حولهم.

وسرعان ما جلس شبسكاف متقاطع الساقين وجها إلى وجه مع حتبت رع يلتهمها بعينيه كما كان يفعل دائما، ورا قبته بدورها عن كثب، ثم تناول من استحموا ومن لم يستحموا عشاء من فطائر اللحم الساخن وشربوا قليلا من النبيذ.

أخذت حتبت رع رشفات قصيرة من دورقها المليء بعصير التفاح قبل أن تتناقله الفتيات فيما بينهن وتلتهم هي الفطير الساخن، الفتاة اللعوب وحدها رفضت تناول الدورق، كانت تجلس بطريقة تكشف أجزاء من جسدها الريان بعدما ارتدت ملابس قصيرة للغاية، وقالت في غنج مقصود ومفتعل: «أبي كان يسمح لي أحيانا بشرب كوب من النبيذ».

وغمزت بعينها وهي تضيف: «أصبحت يافعة أكثر، ولا يناسبني عصير التفاح»، ضحك شبسكاف ومن معه ببلاهة شديدة وإن كانت ضحكة شبسكاف مفتعلة.

قالت اللعوب وهي تلعق شفتيها بلسانها بحركة دائرية حتى سال لعابها بعدما تناولت رشفة من دورق نبيذ أخذته من أحد الحراس: «النبيذ أحلى بكثير»... قالتها وهي تتعمد سكب القليل منه أسفل شفتيها فسال على عنقها كماء النهر وجرى إلى مفرق نهديها قبل أن تعض على شفتيها تصطنع الخجل.

امتعضت حتبت رع التي همت و اقفة وتحركت صوب شبسكاف حتى وقفت أمامه مباشرة وحدجته بنظرة غاضبة وكادت أن تحرقه وهي تزفر في وجهه وتقول بحدة: «لقد نلنا من التعب ما فيه الكفاية، فلنذهب للنوم وليذهب الحراس إلى مناوبات حراستهم».

ثم دارت على عقبيها وقد اعترتها حالة من الغيظ الشديد بدت واضحة تماما في ملامحها وهي تتوجه صوب خيمتها.

في وقت لاحق من الليل، تفاجأت به خارج الخيمة، يستأذنها أن تخرج إليه لتأخذ منه شيئا ما.

ابتسمت فور سماعها صوته، إلا أنها سرعان ما بدلت ملامح وجهها بملامح غضب مصطنعة وخرجت إليه.

وجدته يعطيها قربة ماء أحضرها لها من الينبوع الدافئ كي تستحم، كان يعرف أنها لا تطيق أن تبقى هكذا حتى الصباح.

اختطفتها من بين يديه بوجه عبوس، وكان يعرف أنها لا تحتمل أن تنظر في وجهه دون أن تبتسم، فظل ممسكا بالقربة، وعندما رفعت عينيها في عينيه أطال النظر فيهما حتى هزت رأسها أخيرا و ابتسمت، فتركها.

توقف أمام خيمتها يحرسها حتى تنتهي، خلعت ملابسها و انسدل شعرها الطويل على ظهرها، وأصبحت عارية تماما، ولم تبدأ صب الماء فوق رأسها حتى تأكدت عبر خصاص الخيمة أنه ما يزال و اقفا يحرسها وقد أعطاها ظهره.

في الصباح التالي، قبل طلوع النهار، فتحت عينيها قبل أن تتسلل خيوط الضوء الشاحب الأولى من خصاص خيمتها، خرجت وتجمعوا خارج الخيام، ظهرت جميع الفتيات على طبيعتهن باستثناء الفتاة اللعوب بدت على غير حالتها، كانت أكثر سعادة ملامحها تشي أن شيئا ما غير اعتيادي حدث معها ليلا مما جعلها في حالة انتشاء.

توجهت حتبت رع صوبها بخطوات متسارعة، وقفت أمامها مباشرة وأخذت تتفحصها لثوان معدودات، كانت كدمات زرقاء اللون مائلة إلى الحمرة في انحاء متفرقة من رقبتها وقرب مفرق النهدين، فاستشاطت حتبت رع غضبا لما رأته، و اتسعت عيناها العسليتان عن آخرهما في لحظتها وهي تلتف.

توجهت مباشرة صوب شبسكاف الذي كان يتجهز مع الحراس لمغادرة المكان، سحبته من معصم يده و ابتعدت به قليلا حتى توارت به خلف شجرة صفصاف عملاقة، وقبل أن تتفوه بكلمة واحدة مس شفتيها الممتلئتين بإبهامه منعها عن الكلام، وقال وهو ينظر في عينيها: «أقسم بجميع الآلهة أن لا أحد سواك»، انتفضت في غيظ، حاولت أن تتحدث، فضغط بإبهامة مرة أخرى على شفتيها لكن هذه المرة تعمد أن يضغط على شفتيها وقال: «ورب حتبت رع، لم أغادر خيمتي منذ تركتك».

ابتسمت، ولمعت حمرة الرمان على شفتيها الممتلئتين، وقالت تتوعده وهي تستل خنجرا من بين طيات ملابسه وتشير به في يدها بعيدا عنه: «أقتلك يا شبسكاف، أقتلك و أقتلع عينيك».

تبسم ضاحكا من قولها وهم يدفعها برفق للخلف وهو ما يزال ممسكا بكلتا كتفيها حتى التصق ظهرها بجذع الشجرة، ونظر داخل عينيها مباشرة، فأغمضت عينيها وتنهدت وأسقطت الخنجر من يدها.

قضوا يومين كاملين في التبضع، قبل أن يمضوا على الطريق مرة أخرى قاصدين مدينة آخت آتون، وهي مدينة تتبع مملكة الجنوب الواقعة تحت حكم الإله ست.

في مساء ذلك اليوم، قرب المدينة، توقف حارس يمتطي فرسا سوداء، كان يتسلل، بدا مغادرا للمدينة إذ كان يحمل متاعا على جانبي الفرس.

تفحص عرباتهم ووجوههم، اكتشف من فوره أنهم غرباء يتبعون مملكة الشمال وإلههم أوزيريس، وأنهم هنا بغرض التبضع، قال ناصحا ولكن بنبرة مريبة: «عودوا أدراجكم، عودوا... لم تعد المدينة آمنة».

وتحرك من فوره دون أن ينتظر منهم ردا... لم ينتبه شبسكاف ومن معه لحديث الحارس، وأكملوا السير كأن شيئا لم يكن.

على مشارف المدينة كان الطريق قد اكتسى بالظلال من حولهم مما أوحى أن الظلام بات وشيكا، لاحظت حتبت رع قبرا صغيرا على جانب الطريق، كومة ثرى صغيرة حددت من النظرة الأولى أنها لطفل.

كان هناك شاهد قبور فوقها وأراد حارس أن يعرف اسم الطفل، قفز من عجلته الحربية، وقبل أن يخطو باتجاه الشاهد قال له شبسكاف بحدة أن يدع الأموات وشأنهم، فعاد إلى عجلته مرة أخرى.

بعد بضعة فراسخ لمحت حتبت رع المزيد من القبور، صف كامل محفور حديثا، بعدها لم يقطعوا مسافة إلا ورأت قبورا على جانبي الطريق، فانقبض قلبها شاعرة بالخوف بلا سبب واضح غير رؤيتها للقبور.

لاح لها على مسافة ليست ببعيدة معبد حددت أنه معبد العر افات، كانت قد زارته مرات عديدة من قبل برفقة نيآخ هاو وشبسكاف نفسه، وهو معبد تقيم فيه أربعة من الساحرات هن ميليت، وأنهاري، وحنت تاوي، وروي، وهن ساحرات تمر عليهم قو افل المسافرين ليتباركوا بهم بعد أن ذاع صيتهن في حسن قراءة مستقبل الناس ومداواة المرضى كما أن لهن قدرة ذائعة الصيت على طرد الأرواح الشريرة و إبعادها عن المنازل وحقول المزارعين.

عند اقترابهم من المعبد، قالت حتبت رع وهي تتطلع في حيرة وقلق بعينيها في الأنحاء: «فلنخيم هنا الليلة». فردد شبسكاف من خلفها موجها حديثه للحراس وإن كان بنبرة صوت أعلى ولهجة آمرة: «فلنخيم هنا الليلة».

كان المكان قد بدأ يكتسي بالظلام من حولهم عندما انتهوا من نصب الخيام، قالت اللعوب بغنج تعمدت إظهاره وهي توجه نظرة ذات مغزى إلى أحد الحراس بعينه: «لقد نلنا من التعب قسطا وفيرا، فلماذا لا نتناول الطعام ويذهب كل منا للنوم!».

رمقت حتبت رع الفتاة بنظرات مرتابة، إذ كان الوقت مبكرا للغاية على النوم، إلا أنها لم تعلق، ودارت على عقبيها بلا تردد وتوجهت إلى خيمتها.

لاحظ شبسكاف تغيرها الواضح على وجهها و أفعالها، إلا أنه لم يذهب من خلفها، إذ فضل البقاء مع الحراس برفقة الفتيات، ربما رغب في إعطائها شيئا من المساحة الشخصية، أو أنه أراد ذلك بالفعل.

جلس برفقة الحراس حول مائدة صغيرة صنعتها الفتيات وشرعوا جميعا في تناول الطعام بنهم شديد، وحده شبسكاف لم يستطع ابتلاع لقمة واحدة من الطعام، كعادته في كل مرة يشعر فيها أن حتبت رع ليست على ما يرام.

في وقت لاحق من الليلة، كانت حتبت رع يقظة تماما، وبدا لها الهدوء الذي ساد ليلتها غريبا، وإن بلغ مسامعها صوت شبسكاف والحراس مع الفتيات وطقطقة النار، وحتى تململ الأحصنة الخافت، لكن على الرغم من هذا شعرت كأن العالم يحبس أنفاسه، خاصة بعدما تطلعت في السماء عبر فرجة صغيرة في سقف خيمتها ووجدت أن النجوم اختفت وكأن السماء بها كتلة سوداء قد ابتلعتها جميعا، والطيور على الأشجار غابت أصواتها تماما... وجعلها هذا الصمت ترتجف.

التفتت بوجهها عن الفرجة، سحبت ذراعها من كم و أنزلت رداءها وخلعته، ثم كورته لتنام فوقه، وكافحت من أجل النوم رغبة منها في دفع هواجسها بعيدا.

في وقت متأخر من الليلة نفسها، بعد أن حل صمت تام في المكان، رأت عبر خصاص باب الخيمة ضوءا متذبذبا يمر أمامها وسمعت وقع أقدام ميزت أنه للفتاة اللعوب يلحق بها شخص آخر لم تستطع أن تميزه من خطو اته، فخرجت متسللة من خلفهما وهي تكمل ارتداء ملابسها، انتظرت حتى ابتعدا مسافة كافية قبل أن تهرع صوب خيمة شبسكاف.

في طريقها رأت الحارسين المنوط بهم نوبة الحراسة يغطيان في نوم عميق وقد اتكأ كل منهما بظهره على جذع شجرة، فانتابها فزع مفاجئ، وتسارعت دقات قلبها وراء الضلوع وحبست أنفاسها وهلة عندما رأت خيمة شبسكاف فارغة، واغرورقت عيناها بالدمع على الفور، وشقت تنهيدة وجع صدرها في ذات اللحظة التي تلألأ دمعها الهابط كالسيل على وجنتيها.

كان شعرها الكستنائي الطويل منسدلا على كتفيها وظهرها، تحركت يداها بتيبس غريب كأن هذه أول مرة تستخدمهما للف شعرها ثم استلت خنجرا من الخيمة، دسته تحت ملابسها وهرعت مهرولة خلف الضوء المتذبذب الذي ابتعد وأصبح صاعدا على الدرجات القليلة المفضية إلى داخل معبد العر افات.

كانت تعدو عدوا في الظلام الحالك، تقطع الممشى المؤدي إلى المعبد، ومرت من بين أربعة تماثيل عملاقة في ساحته الخارجية، كل واحد منهم لواحدة من العر افات وبطول عشرة أقدام.

صعدت الدرجات من خلفهم بخطوات تباطأت وأصبحت مترددة على الرغم من ذلك كان دمعها ما زال كالسيل ينهمر على وجنتيها

بغزارة، كان يخيفها حقا أن تجد ما ظنته حقيقيا، قالت لنفسها بنبرة صوت مشوبة بالدموع وهي تسحب الخنجر من أسفل ملابسها بيدين ترتعشان: «سوف أقتلع قلبك يا شبسكاف، سوف أقتلع قلبك».

دلفت من باب المعبد العملاق والذي كان مواربا، وفي اللحظة التي وطأت فيها بقدميها داخل المعبد، تعالت صوت العلاقة الحميمة بين الفتاة اللعوب ومن معها في غرفة منزوية وصدح صوتهما في أرجاء المعبد بأكمله بيد أن ضوء المشعل معهما جعل انعكاس خيالهما يظهر لها على الحائط.

كان الرجل والفتاة يتصارعان، وبدا أن كليهما قد انتزع ملابس الآخر حتى باتا عاريين، ولم تتبين حتبت رع من الرجل، كان ظهره لها وحجب جسده الفتاة اللعوب عن نظرها وهو يدفعها إلى أعلى قبالة الحائط.

سمعت أصواتا ناعمة تصدر منهما، وأدركت أنهما يتبادلان القبلات، ثم استدارا فظهر طيفاهما بوضوح على الحائط، كان الرجل يتجول بيده على بقع محددة يقصدها، ولا بد أنه كان يؤلمها في تلك البقع، لأنها بدأت تتأوه بصوت خفيض، مع ذلك قالت: «توقف... أرجوك توقف»، لكن صوتها كان ضعيفا مستسلما، ولم تحاول أن تدفعه بعيدا عنها، بل دفنت يديها في شعره وجذبت وجهه إلى نهدها.

راقبتهما حتبت رع بعينين متسعتين من الذعر غير قادرة على التقاط أنفاسها، وشعرت بقلبها ينسحق داخل الضلوع، وهزت رأسها بالنفي غير مصدقة ما تسمعه أذناها وتراه عيناها.

في تلك اللحظة، ارتخت تماما فسقط الخنجر من يدها، وبمشقة واضحة رفعت يدها الأخرى ووضعتها فوق وجهها وهي ما تزال تبكي.

لم تلاحظ أن المعبد على غير عادته، لا حراس، لا مشاعل تضيئه، يبدو كالبيت الخرب، تفوح منه رائحة الدم... أعمتها غيرتها واندفاعها، إلا أنها شعرت بحركة غريبة في الخارج، فالتفت خائفة. رأت طيفا حالك السواد يخرج من بين الظلال المحيطة بالتماثيل الأربعة؛ قبل أن يمر عبر الباب مندفعا كالريح الغاضبة باتجاه مصدر الصوت.

لم يكن الطيف قد رآها، وتوقف عند باب الغرفة التي يصدح منها صوت الفتاة وحجب رؤيتها لظليهما على الحائط...

مس خيط رفيع من نور القمر وجهه، تعرفته على الفور من بشرته الرمادية كثيفة الشعر وعينيه الحمراء كالدماء، «إنه أحد غيلان الجن التي سمعت عنها».

قالتها وشهقت شاعرة بقلبها ينخلع خوفا على شبسكاف... اشتمت رائحة أنفاسه الكريهة عندما فتح فمه وسال لعابه وهو يتأهب للانقضاض عليهما.

تراجعت خطوة للخلف، واحتبست أنفاسها في اللحظة التي اندفع فيها الغول نحوهما وحدث كل شيء في لحظات معدودة... كادت تصرخ عندما سمعت صوت جلبة شديدة أعقبتها صرخة ألم مدوية لم تتكرر، إلا أن يدا هبطت فوق شفتيها ومنعتها عن الصراخ، ثم رأت رجالا يجرون للداخل ومن حولها، يحملون الحراب والمشاعل.

جعلتها أضواء المشاعل في يد الحراس ترى جثث حراس آخرين ممن كان منوطا بهم حماية المعبد والعر افات.

تأهب الحراس ممن ير افقون شبسكاف لمهاجمة الغول، إلا أن شبسكاف وحده كان يعرف أنهم لن يستطيعوا مجابهته، فأنزل يده عن وجه حتبت رع وهو يسحبها بيده الأخرى ويجعلها خلف ظهره واضعا إياها بين جسده والحائط، وأمسك بيده اليسرى السوار في معصم يده اليمنى.

كان الغول في تلك اللحظة خارجا من باب الغرفة تتقاطر الدماء من فمه، ممسكا في يده رأس الفتاة بعد أن اقتلعها من الجسد.

أحد الحراس صوب فأسه باتجاه الغول دافعا إياه بقوة شديدة، فأصابه الفأس في رأسه مباشرة، مما أغضب الغول، فانقض عليه في لمح البصر. أسقطه أرضا على الفور وأصابه بجرح قطعي في كتفه وبينما حاول الحارس المفزوع أن يدافع عن نفسه تدارك شبسكاف الأمر بسرعة قائلا تعويذة النور التي تخيف الغيلان بصوت مرتفع وهو يوجه كلتا يديه باتجاه الغول: «لوموسيتاي».

انطلقت من بين يديه طاقة قوية، صنعت فقاعة ضوئية أضاءت المكان بشدة من حولهم، مما جعل الغول يصرخ ويُصَاب بالجنون، فترك الحارس على الأرض وهم بالهرب قفزا من أحد نو افذ المعبد.

رأى شبسكاف أن عليهم ترك المكان على الفور وعدم البقاء فيه طويلا، تحسبا لعودة المزيد من الغيلان، خاصة وسط هذا الظلام الحالك، تأبط حتبت رع ضئيلة الجسد وكأنها قطعة منه وخرج بها

من المعبد ومن خلفه الحراس الذين عملوا على مساعدة الحارس المصاب، وتوجه بها توا إلى المخيم ولم يتركها تخرج من بين ذراعيه حتى اطمئن قلبها.

في الصباح الباكر، سمع شبسكاف حارسا يخبر آخر بنبرة صوت خائفة: «كلاب الجحيم، الغيلان، لا فارق. كل شيء انتهى هنا، ولنغادر هذا المكان الملعون في الحال». إلا أنه رفض المغادرة وقرر العودة إلى المعبد، حتى يعثر على جثة الحارس والفتاة ويبحث خلف الأمر.

أثناء توجههم صوب المعبد، أمرهم شبسكاف أن يتخذوا حذرهم ويتأهبوا. قال الحارس الذي ضرب الغول بالفأس وكان معلقا ذراعه في رقبته وبئن من الألم: «قتلته، ضربة الفأس قتلته، قسمت جمجمته شطرين».

ساخرا ابتسم شبسكاف وكان يتقدمهم مسافة تقل عن ثلاثة أمتار ولم يبال بما سمعه، إذ كان يعلم أن الغيلان لا تموت بسهولة هكذا على أيدي حراس عاديين.

لدى اقترابهم من أسوار المعبد وقعت عيناه على عدد من نبتة أصابع الشيطان بالقرب من السور، فقال للحراس وهو يرفع قبضة يده يشير إليهم بعلامة التوقف في الحال: «توقفوا جميعا». ثم تركهم وشرد متسللا في حذر وابتعد عنهم مشيا على قدميه وهو يتفقد الأرض حول الأشجار التي تحيط بالمعبد.

وجد كثيرا من نبتة أصابع الشيطان قد انتشرت في المكان، فمال برأسه مقتربا من إحداها، فوجدها مقضومة، ولاحظ بقايا

الكثير من نبتات أخرى، فعلم أن كثيرا من الغيلان كانت هنا، وأنهم وجدوا طعامهم وفيرا في المكان.

لدى عودته إلى بقية الحراس، دلفوا إلى المعبد، وتجولوا داخل أروقته.

كانت مفاجأة في انتظارهم، إذ وجدوا جثث العديد من حراس المعبد مشوهة تماما، والخادمات كذلك، وفي نهاية جولتهم داخل أروقة المعبد وجدوا العر افات الأربعة معلقات في القاعة الرئيسية على الحائط وقد حُرِّقت وتفحمت أجسادهن تماما، و اقتُلِعت العيون من الجثث ولا أثر للأساور السحرية في أيديهن، بدا واضحا أنهن قد تعرضن للتعذيب بغرض ما وفي النهاية تعرضن لنوع شديد من السحر الأسود؛ كان أكبر من قدرتهم على التصدي له، فأحرقهن بهذه الطريقة البشعة.

كان لدى شبسكاف شغف أن يكتشف ماذا حدث في المكان، وكان عليه أيضا أن يقدم تقريرا لسيده الكاهن لدى عودتهم، فأغلق عينيه وهو يمسك بسواره وألقى بتعويذة تمكنه من رؤية ما حدث مؤخرا في هذا المكان، إلا أنه فور إلقائها رأى سوادا حالكا، ثم تعرض للصعق في معصم يده بعدما ارتفعت حرارة السوار، ففهم من فوره أن ما حدث هنا كان بفعل سوار شديد القوة فيه سحر أسود يفوق قدرته بكثير.

في تلك اللحظة أمر الحراس أن يأخذوا الجثتين في الغرفة المجاورة ويغادروا المكان على الفور.

بالقرب من المخيم، شرع الحراس في حفر قبرين للحارس والفتاة.

قالت حتبت رع في نفسها وهي تحدج شبسكاف المنزوي بعيدا قرب شجرة عملاقة، وقد مطت شفتيها وعقدت حاجبيها: «ترى... أين كان في الليل؟».

توجهت إليه مندفعة، وهي ما تزال عاقدة حاجبيها، وقفت أمامه مباشرة، وسألته: «أين كنت في الليل».

نظر إليها لثوان معدودة في صمت وقد شعر من أعماقه أنها مجنونة بالفعل. وقبل أن يعطيها ردا سمع نعيب الغربان الذي تز ايد فجأة، وعندما رفع عينيه لأعلى، لاحظ امتلاء الهواء بالطيور، أغلبها غدفان بدت من بعيد بحجم الذباب وهي تحلق وتدور في السماء حول المعبد.

التفت وتطلع في أوجه الحراس الذين فرغوا لتوهم من دفن الجثتين، ورأى الأوساخ على ملابسهم وتحت أظافرهم وفي أقدامهم، كما رأى الشحوب والقلق في أوجه الفتيات الجالسات بعيدا قرب الخيان والأحصنة، فقال لنفسه هامسا بصوت يكاد يسمع: «لا بد أن نعود إلى ممفيس».

❁❁❁

06

بزغ صباح يوم عيد الحصاد في العاصمة ممفيس مشرقا كثير الريح، التي دفعت السحاب في السماء وساعدت في هطول بعض ندفات المطر الباردة... في هذا العام، تزايدت المزارع أمام الغابات، والقرى والمعاقل التجارية أصبحت أكبر ومتقاربة لبعضها البعض، والتلال أصبحت أقصر ويكسوها الخضار والوديان منبسطة، والأسواق متزايدة وممتلئة بالخيرات، والحصول على الطعام والمؤن صار سهلا يسيرا على العامة.

تحت شجر الأكاسيا والتفاح، في ساحة القصر الإلهي الخضراء، نُصِبت موائد طويلة من خشب الصنوبر المتين أسفل الأسوار شاهقة الطول التي تكسوها النقوش والرسومات الزاهية، وتتخللها المسلات الذهبية العملاقة.

بُسِطت على الموائد مفارش من الكتان الذهبي استعدادا لاستقبال العامة من أجل الأحتفال، وكان حراس القصر قد عملوا على قدم وساق مع الجزارين وخدام القصر لثلاث ليال متتالية في المذبح وأماكن إعداد الطعام من أجل تجهيز الولائم لهذا الاحتفال الكبير.

من جميع أنحاء البلاد أتى كبار الكهنة والتجار والأبطال الذي تحكى عنهم الحكايات، كما امتلأت الساحة بعامة الناس، مزارعين وعمال الحقول والصيادين ورعاة الماشية و أبناء أصحاب الحانات وكانوا جميعا أصحاء، فتيات جميلات وأمهات يمتلكن أنوثة كاملة، فالأثداء ناهضة، والملابس مزينة وزاهية، والوجوه بشوشة، جميعهم جنبا إلى جنب تحت الأشجار وحول الموائد، في وجوههم نضرة النعيم.

كان السلام يحف المكان ويسبغ عليه السكون والهدوء ويجعل التطلع فيه مريحا ويبعث الطمأنينة... وكانت جموع العامة ما تزال تتو افد إلى ساحة القصر قادمة من أنحاء متفرقة في المدينة والمدن المجاورة، بينما التف بعض من أتوا إلى القصر الإلهي لأول مرة حول منصة نصف مستديرة وعملاقة، فوقها خمسة من التماثيل الذهبية العظيمة القائمة في مقدمة القصر، اثنان عن اليمين و اثنان عن اليسار، طول كل واحد منها اثنا عشر قدما، ويمثلون الآلهة الأربعة، أوزيريس وزوجته إيزيس حكام مملكة الشمال، وست وزوجته نفتيس حكام مملكة الجنوب... بينما يتوسطهم متأخرا قليلا التمثال الخامس بطول خمسة عشر قدما، مصنوع كاملا من الذهب الخالص، ممسكا في يده صولجانا في أعلاه بلورة ذهبية مضيئة وممتلئة بالزئبق الأحمر، وهو لإله الشمس والنور، رع.

كانت الساحة ممتلئة بصفوف من المسلات العملاقة مرصوصة بطريقة هندسية فائقة الدقة، جميعها على شكل زهرة اللوتس، عمدانها مدبوغة باللون الأبيض ومزخرفة بالأخضر والأحمر، والنقوش عليها باللون الذهبي، ترفرف أعلاها ستائر من

الحرير الأبيض والأحمر، موصولة ببعضها البعض، وضعت خصيصا لحماية الحشود من آشعة الشمس أو المطر.

الجميع من العامة كانوا يمشون بين المسلات، أسفل الستائر الحريرية، حاملين معهم الورود، لا شيء غيرذلك، إذ أن الإله أوزيريس كان قد منعهم في الأعوام السابقة من إحضار الهدايا.

فوق الأسوارو في شرفات القصر، وقفت خادمات القصر الإلهي تلقي بالورود وزهر اللوتس والقرنفل على المارة بالأسفل.

في موعد محدد، دقت الطبول وقرعت الأجراس بواسطة الجنود الأشداء على إيقاع ملكي، ورفع على الأسوار صف طويل من الر ايات الحريرية البيضاء التي رفرفت في الهواء فور رفعها، ثم دوت أصوات الأبواق.

توجهت أنظار الجميع صوب باب القصر العملاق الذي انفتح على مصراعيه.

خرج من الباب واح تي، متحدث القصر الإلهي، وهو رجل عملاق الجسد، أسود البشرة، ذو لحية بيضاء، له عينان ضيقتان تنم عن ذكاء، يرتدي وشاحا طويلا من الحرير الأبيض المطرز بخيوط من الذهب والفضة، وله كمان واسعان، ممسكا في يده اليمنى صولجانه المصنوع من العاج والذهب، وفي يده اليسرى بوق عملاق.

من خلفه خرج الأخوان مونتورع، حارسان يرتدي كل منهما خوذة قصيرة مذهبة ومعطفا أحمر موشى عند الحواف بالساتان الفضي، وعلى صدره خِيطت زهرة اللوتس بالذهب الأبيض.

كلاهما يناهز السبعة أقدام طولا، عريض الكتفين وضيق الخصر ومفتول العضلات، إن اقتربت منهما ورأيت وجهيهما بوضوح، وجدتهما نسختين متطابقتين لا يمكن التمييز بينهما، فالاثنان لهما الفك القوي نفسه والعينان السوداوان العميقتان.

خرجا مهرولين وخلف كل واحد منهما صف من حراس القصر الإلهي، توجه أحدهما إلى يسار المنصة والآخر إلى يمينها، ولم يكن أي من حراس القصر يحمل أسلحة، فقد جاءت أوامر الإله أوزيريس واضحة منذ توليه الحكم، إذ تنص على عدم حمل السلاح في وجه شعبه أيا كانت الأجواء.

ما إن أخذ الحراس أماكنهم، وقف الأخوان مونتو رع على جانبي العرش المعد مسبقا للإله أوزيريس وزوجته، بينما توسط واح تي المنصة، ورفع البوق في يده اليسرى وكان يُسمى بوق الصيد الثمين، فهو بوق عظيم، مصنوع من العاج الأبيض المأخوذ من جمجمة فيل عملاق، منقوش عليه إهداء ملكي، كان قد وهبه له إله مملكة كوش الجنوبية في وقت سابق بعد أن اقتلعه من رأس فيل إفريقي بري.

نفخ واح تي في البوق ثلاثة مرات متتالية، إلا أنه أطال النفخ في الثالثة قليلا حتى تراجعت تماما أصوات الحشود المتجمعة أمام المنصة... عندها فقط، أنزل البوق ونادى بصوت عال، قال: «حيوا أوزيريس ملك الأرض كلها، حيوا إيزيس ملكة مصر كلها».

تعالت صيحات الحشود مرة أخرى تزامنا مع ظهور أوزيريس برفقة زوجته إيزيس ومن خلفها صف من الخادمات وقد خرجوا مترجلين من الباب العملاق حتى وصلا منتصف المنصة، وتوقفوا

أمام التماثيل الخمسة، ثم لوحوا للجموع المحتشدة أمامهم قبل أن يلتفا عائدين ليجلسا على عرشين ذهبيين، طول كل منهما ستة أقدام.

دار حولهما ضف الفتيات، خادمات القصر، ونثروا فوقهما الورود الملونة وزهر اللوتس وزهر القرنفل، بينما توجه صف آخر إلى حافة المنصة، وأخذوا يلقون بالورود وزهر اللوتس والقرنفل على العامة تحت المنصة. وتعالت صيحات الجموع وامتزجت بأصوات الطبول والأجراس مع الأبواق.

كان الإله أوزيريس قوي البنية، عريض المنكبين، شديد الرشاقة والحسن، يملك عينين أخاذتين، شعره بني فاتح ووجهه متناسق الملامح، اكتسب محبته من صفاته وقتما كان صغيرا، إذ كان رقيق القلب، حسن الخلق، يترفق بجميع المخلوقات، ولا يهين أحدا، من رآه هابه، ومن عرفه أحبه، يألف الناس ويألفونه، لا ينطق بفحش ولا يعيب على أحد، ولا يعيب حتى طعاما، لين، وعندما تولى الحكم لم يجعل في أرضه سائلا، ولم يكن بفظ ولا غليظ.

واليوم جعلت منه زوجته إيزيس صورة بالغة الأناقة وقد ثبتت معطفه الحريري الأبيض عند الكتف بدبوس على شكل ورقة شجر ذهبية، وألبسته سترة مشغولة من الذهب الأصفر والأبيض، ولكن شيئا من هذا لم يلفت أبدا انتباه الحشود...

أكثر ما لفت انتباه الحشود دائما في أوزيريس هو الخير والعدل والمساواة، فقد كان دائما الحاكم العادل المحب للجميع.

أما أيزي س فارتدت فستانا من الحرير الأصفر الذهبي، وطوقت عنقها الأبيض كالحليب بالياقوت الأزرق واللؤلؤ القمري والذهب الأبيض، ولم يكن جمالها الأخاذ أو لون عينيها الزرقاوين هما ما تشتهر بهما فقط، فقد اشتهرت بين العامة بالطبيبة الساحرة، وذلك بعدما قطعت وقتا من حياتها وجعلته لمعالجة العامة من الناس مستخدمة قدرتها السحرية وقوة سوارها وما تعلمته من علوم الطب على أيدي الكهنة.

اقتربت صفوف الحشود من المنصة مهللين، وبدأوا تباعا في وضع الورود والزهور أمام ملك الأرض، وفي اللحظة ذاتها، نفخ واح تي في البوق مجددا، ثم بدأ يقدم الآلهة واحدا تلو الآخر، ويسمح لهم بالصعود إلى المنصة لتقديم الهدايا ومباركة إله وملك الأرض كلها أوزيريس وزوجته، فنادى بصوت جهوري عال، قال: «هاثوور، إلهة الحب».

تقدمت هاثوور مترجلة تمشي على استحياء، بردائها الأحمر الزاهي المطرز بالذهب، وفوق رأسها تاج على هيئة قرني غزال تتوسطه بلورة حمراء اللون، كانت بالغة الجمال، بيضاء كالثلج، عيناها بندقيتان وجسدها ضاجج بالأنوثة.

انحنت أمام أوزيريس وزوجته وهي تقدم لهما هدية عيد الحصاد، ثم غادرت المنصة، فنفخ واح تي في البوق مجددا، ونادى مرة أخرى، قال: «توت، إله الحكمة».

تقدم توت على الفور حاملا بين يديه صندوقا موشى بالأحجار الكريمة، مليء بالذهب وقوارير الزئبق الأحمر، ثم توالى تقديم الآلهة

واحدا تلو آخر، وكل منهم تصاحب لحظات دخوله دقات طبول ذات إيقاع ثابت حتى يقدم الهدايا للإله ملك الأرض كلها.

وبينما يقدم واحي تي أحد الآلهة، إذا بحاملي الأبواق وضاربي الطبول يعطون إشارات ملكية، إذ تعالى صوت الأبواق للغاية ودقت الطبول دقا ذا إيقاع ملكي في إشارة منهم أن شخصا عظيم الشأن قد حضر.

توقف واح تي من فوره عن الحديث و انتبه الجميع، فإذا بموكب طائر في الهواء يحمله الحمام الأبيض يقترب ويحط على المنصة، نزلت منه إلهة الحماية، سيدة الديار، نفتيس، أخت الإله أوزيريس.

كانت مجيئها غير متوقع، إذ أن اليوم هو يوم عيد الحصاد في الجنوب أيضا، ويجب عليها أن تكون متواجدة في قصرها إلى جوار زوجها الإله ست من أجل الاحتفال.

شعرت إيزيس أن هناك شيئا ما غير طبيعي بمجيء نفتيس وتركها القصر الإلهي في الجنوب يوم عيد الحصاد، فأغمضت عينيها وتواصلت ذهنيا مع زوجها أوزيريس طلبت منه أن يسرع في إنهاء طقوس الاحتفال.

في تلك اللحظة هب و اقفا والتفت ناحية واح تي وأشار إليه ببدأ توزيع الهدايا والعطايا التي أتت بها الآلهة على أشخاص تم اختيارهم من بين العامة على أسسس تم وضعها في وقت سابق بعد مشاورات كثيرة بين أوزيريس وكبار الكهنة والعاملين في القصر الإلهي، إذ أعطيت الهدايا لصاحب أفضل محصول، و أفضل مهندس معماري

قام بتصميم بناء يمكن للشمس أن تدخله طوال العام وتطل على نقطة محددة في يومين فقط في العام يتم تحديدهما بواسطة المهندس ذاته.

وعلى هذا المنوال تم توزيع الهدايا والعطايا على عدد من المتواجدين الذين تقدموا مسبقا للقصر الإلهي بما صنعوه في خلال عام الحصاد.

ما إن انتهى توزيع الهدايا، أشار واح تي إلى حاكم الأرض كلها أوزيريس يعلمه بالانتهاء، فأشار له الأخير ببدأ آخر طقوس الاحتفال، وكان منوطا به أن يكون إطعام جميع الحشود كما يحدث في كل عام، أي أن تحط أطباق الطعام على الموائد الصنوبرية، ويجلس العامة جنبا إلى جنب ويتناولوا الطعام، إلا أن هذه المرة كان الأمر مختلفا، لم يخرج الحراس حاملين الطعام ليوزعوه على الموائد الكبيرة، بل خرجوا حاملين الطعام وقد قُسِّم على شكل وجبات متساوية، محفوظة بعناية شديدة، إذ يمكن لكل فرد أن يحمل واحدة أو اثنين بين يديه والخروج بها من القصر.

وفي تلك اللحظة، قال أوزيريس موجها حديثه للجموع المحتشدة: «لا تأكلوا فرادى، اذهبوا إلى ذويكم، تناولوا الطعام معهم جنبا إلى جنب، فإن خير الطعام ما تتقاسموه مع أمهاتكم وزوجاتكم وأطفالكم».

تعالت صيحات الحشود، فأشار أوزيريس إلى واح تي بأن ينفخ في البوق من أجل تهدئتهم كي يكمل ما لديه من قول.

وأطلق واح تي من فوره البوق ثلاثة مرات متتالية، فهدأت الحشود مجددا، وشرع الملك يكمل ما تبقى من حديثه: قال: «هذا العام جاء الحصاد وفيرا، والخير مضاعفا، لذا فالجميع معفيون من الضرائب حتى فيضان النهر القادم».

❁❁❁

07

في أبيدوس، تراجعت المزارع أمام الغابات والرمال، والقرى والمعاقل التجارية أصبحت أصغر مساحة مما يتوقع أن تكون عليه، ومتباعدة كثيرا عن بعضها، وقل روادها، والتلال أعلى، وشديدة الانحدار يكسوها الصخر، والوديان أعمق، شحيحة الخيرات، والعثور على الطعام صار عسيرا.

في وقت مبكر من صباح يوم عيد الحصاد، كانت سرية من حراس إله الجنوب ست قد تجولت في أسواق وشوارع المدينة والقرى المجاورة، حملوا صفوف من العربات التي تجرها الخيول بالسمك المملح والخبز الجامد والدهن واللفت، وأجوله من الفاصوليا والشعير وقوالب من الجبن الأصفر والزبدة.

صف كامل من هذه العربات حمل باللحم الضائن وقوارير النبيذ، صف آخر من العربات التي تجرها الأفيال الضخمة أحاط به فئة من أفضل الحراس مدججين بالسلاح بعضهم ممسكا بحيوانات ضارية كالأسود والنمور، حملت بالعملات الذهبية وقطع الذهب الخالص، أُخِذت جميعها عنوة من أغنياء التجار والمزارعين كنوع من الضرائب.

عُرِف عن أهل الجنوب أن خيراتهم تملأ الخزائن حتى قِيل أنها لا تنضب أبدا، خزائن منازلهم ممتلئة طوال العام، كل فرد فيهم ممتلئ البطن بالطعام، لكن ومنذ تولى ست الحكم تبدل كل شيء، كل لقيمة أكلت بالفعل، والآن قد أصبحوا مجبرين على التعايش مما تنبته الأرض.

لجأ بعضهم لاحتراف السرقة من أراضي الغير، وبعضهم فر إلى مملكة الشمال...

بينما وجد بعضهم في الغابة ملاذا لهم، فيذهبونإليها كل صباح مع طلوع الشمس، ومع حلول الغسق يعودن بظبي معلق من عامود بينهم، أو بزوجين من طيورالسمان يتدليان من أحزمتهم، بينما يعمل الصبية والفتيات وقليل من النساء على قطف التوت الأسود النابت على الطريق، أو يتسلقون الأسوارليملأوا جوالا بالتفاح إذا تصادف أن مروا ببستان أحد الأغنياء وكان مثمرا.

على مشارف المدينة، بالقرب من قلعة القصرالإلهي، كان النهار قد انتصف، عندما ظهرت مجموعة مكونة من عشرين أو ثلاثين رجلا يرتدون القمصان المصنوعة من حلقات معدنية وخوذات قصيرة، أغلبهم شديد البنية ذوي بأس شديد كما تشي الأصوات التي يصدرونها أو أصوات الذين يتجرعون الألم على أيديهم.

كان صوتهم عاليا للغاية، لديهم حراب وتروس وأحصنة، ويقفون وجها لوجه مع بعض من سكان القرية الذين جثوا على الأرض في خوف وهلع ينتظرون العقاب بعدما فشلوا في توفير الضرائب المفروضة عليهم لهذا العام.

وكان عقاب من يعترض أو يتعثر أن تصادر ممتلكاته إن كانت ذا قيمة أو تحرق إن كانت غير ذلك، وفي حين آخر من الممكن أن يقتل أو يحرق إذا واجههم معترضا أو أن تؤخذ إحدى فتياته إن كانت ضاجعة بالأنوثة لتوضع في جناح العذراوات لخدمة الإله ست وأعوانه.

كانت رائحة الدخان تبلغ الأنوف، حيث الحقول خراب متفحم لأميال في كل اتجاه، والبيوت مجرد هياكل مسودة، وقد تناثرت جثث الحيوانات المحروقة والمذبوحة على الأرض، تحت غطاء حي من الغدفان آكلة الجيفة التي تنعب غاضبة إذا قاطع أحد وجبتها.

في هذه الأثناء، مرت قافلة عسكرية مكونة من عشرة عجلات حربية سوداء، غريبة الشكل ومهيبة، التفت رتل الجنود بأكمله نحوها، تابعوا القافلة بأنظارهم وهي تبتعد على الطريق الذي يفضي في نهايته إلى قلعة القصر الإلهي.

تقدم العربات ثلاثة من الحراس يمتطون الخيل، بدا أن أحدهم هو القائد، وتأخر عن العجلات خمسة آخرين، توشحوا جميعا بالأسود من الأعلى إلى أخمص الأقدام، وارتدوا خوذات سوداء طويلة، وحملوا معهم سيوفا ورماح، كانت العجلات منطلقة بسرعة شديدة وكأن ما يجرها غيلان من الجن وليست أحصنة.

رأى حراس المقدمة جثثا محروقة معلقة على خوازيق حادة قرب أسوار قلعة القصر الإلهي، وقد رفع أصحابها أيديهم أمام وجوههم كأنما يحاولون مقاومة النيران التي التهمتهم التهاما، قال أحدهم ساخرا: «إنها لأناس امتنعوا وعارضوا دفع الضرائب».

عندما بلغوا القلعة كانت الشبكات الحديدية مسدلة بالفعل أمام البوابات، أمر حارس بالتوقف على مسافة مناسبة من المكان، وقال للحراس الآخرين أن يحرسوا العربات ريثما تفتح لهم الأبواب.

حلق سرب من الغدفان من داخل الأسوار عندما دخلوا من بوابة القصر العملاقة، فبادلتهم الغدفان التي معهم في أقفاص فوق اثنتين من العربات بنعيب صارخ يصم الآذان.

كانت قلعة القصر الإلهي تطل عابثة، عشرة أبراج أسطوانية هائلة متوجة بالمتاريس الحديدية، حصن أمامي ضخم، أروقة مقنطرة وجسور مغطاة، ثكنات وزنازين وصوامع غلال، أسوار واقية عملاقة مزودة بفتحات الرماية، كلها مشيدة بالحجارة الباهتة، لا رسومات على الحوائط، مسلات قليلة تبدو باهتة هي الأخرى، لا تماثيل باستثناء تماثيل الخداع المصبوبة على الأسوار وتمثال واحد فقط للإله ست في ساحة أمام القصر، طوله ثلاثون قدما مصنوع من الذهب الخالص.

أما القصر الإلهي فقد بدا مظلما ساكنا كمقبرة، التماثيل الحجرية مع الحراس على الأسوار تبدو ضبابية مشوشة...

ما إن تنظر إليه تشعر وكأن العالم تسربل بالظلام، كما أن الجثث المحترقة بالخارج فاحت منها رائحة نتنة نفاذة، وحتى جنود القصر مع الخادمات تبدو في وجوههم نظرات الشعور بالقلق الدائم...

كان ست في جناح العذراوات يضاجع القاصرات ممن أخذهم عنوة من عائلاتهم في غياب زوجته السيدة نفتيس التي اتخذت

لنفسها قلعة تعيش فيها بعيدا عنه برفقة بعض خادماتها وعددا لا بأس به من الحراس الذين هربوا من جحيم زوجها...

كان بعض الحراس يقفون حوله وقد أعطوه ظهورهم حسب أوامره في اللحظة التي دلف فيها أحد الحراس من الباب و أبلغه بحضور كبير السحرة، الكاهن يورشو وبعض جنوده، كما أخبره أن بعض الكهنة وكبار التجار قد بدأوا في التو افد على القصر من أجل تقديم الهدايا والقر ابين مع الضر ائب بمناسبة عيد الحصاد.

بعنف معتاد عليه، دفع ست الفتيات عن الفراش، ونهض عاريا متوجها صوب الحارس وهو يسأله مستفسرا بارتياب: «السيدة نفتيس!!».

أجابه الحارس خائفا: «ما تزال في قلعتها، لم تأت إلى هنا بعد».

دلف يورشو كبير مهندسي ست وكاهنه إلى الجناح دون استئذان ومن خلفه اثنان من حراسه، وقاطعهما بنبرة صوت فاح منها خبث واضح، قال: «نفتيس نفتيس... إنها في ممفيس منذ الصباح، أظن أنها جنبا إلى جنب مع أوزيريس الآن».

أشار ست بحركة فظة للحرس قائلا: «أتركونا وحدنا».

ونظر إلى يورشو في حنق وهو يتوشح رداء أزرق اللون مطعم ومطرز بالذهب والفضة وقال: «كنت لا تزال تعرف معنى الكياسة و أنت صبي»... فبدا على يورشو شيء من الأسف مشوب بالندم، وقال بنبرة صوت آسفة: «لقد أغضبتك يا سيدي، لكن تلك لم تكن نيتي إطلاقا».

أثارت نظرة ست في عقل يورشو ذكريات قديمة، لطالما كان ست طفلا ماكرا ومتهورا، قوي البنية، عملاقا، له ملامح قبيحة، شفتان مشقوقتان، وعين بها عور، فظ، غليظ القلب، لكن بعد كل ضرر أو إزعاج يتسبب فيه يبدو عليه الأسف الشديد، وكانت هذه واحدة من مواهبة، لكن السنين لم تغيره كثيرا.

وعلى عكسه تماما، كان يورشو صبيا مرحا وضئيل الحجم، كبر ليصبح رجلا ضئيل الحجم، أقصر من ست ببوصة أو اثنين، رشيقا وسريع الحركة، لديه الملامح الحادة التي لا تُنسَى، والعينان الضاحكتان ذاتا اللون الأخضر الداكن، كانت لديه لحية صغيرة مدببة على ذقنه، وخيوط من الفضة في شعره الأسود على الرغم أنه لم يبلغ الثلاثين بعد.

كانا صديقين منذ نعومة أظافرهما، إذ أن يورشو كان الابن الوحيد للكاهن حنكليس والذي كان كاهنا في زمن والد ست الإله رع قبل أن يقسم الحكم بين الأخوين أوزيريس وست، بيد أن يورشو تنقل بين المعابد والكهنة فتعلم فنون السحر حتى استطاع أن يصبح كبير السحرة والمهندسين المعماريين وذلك بفضل تسخيره للجن ومقدرته على فتح بوابات بين العوالم الخفية.

سأله ست في حنق شديد لم يستطع إخفائه: «كيف عرفت أن نفتيس غادرت المدينة؟».

أجاب بابتسامة ماكرة ومشوبة بالغرور: «يورشو... يعرف كل شيء».

كان وجه ست محتقنا لدرجة أنه بدا كأن الدماء ستتفجر منه في أي لحظة، وصاح بصوت مختنق من فرط الغضب: «سوف أقتل أوزيريس، سوف أقتله، وسوف تساعدني في ذلك وإلا سأضع رأسك على خازوق!».

انحنى يورشو و ابتسم ساخرا، ثم دار على عقبيه بلا كلمة أخرى وهو شاعر بنظرات ست على ظهره، ومع خروجه بخطوات واسعة من جناح العذراوات استمر الحوار بلا توقف كأن شيئا لم يكن، وقال: «إن صراعك ليس مع أوزيريس يا جلالة الإله، فلم تبدد قواك في قتاله ولديه أسوار قوية وجيش كامل العدد، بينما تحتاج إلى كل رجل لكي تحقق مسعاك؟ ثم إن هناك أشياء أهم من هذا الآن».

انتبه ست وهو يمشي من خلفه، وصفق يورشو عند اقترابه من الباب، فتقدم اثنان من حراسه حاملين صندوقا ثقيلا من خشب الأرز المطعم بالفضة والذهب ووضعاه عند قدميه، فنظر ست إليه مستغربا وهو يتساءل في نفسه عما يمكن أن يكون في داخل الصندوق، ثم فتح الغطاء بالخف الذهبي الذي ينتعله في قدمه القوية، فوجده مليئا بالأساور السحرية فضية اللون والخضراء ذات الثلاث نجمات كما وعده يورشو.

التقط واحدا منها وقربه من سواره الذهبي في معصم يده الذي يتزين بخمس نجمات نارية اللون، فتوهج السواران وبدا أن ست المبتسم في حينها يقاوم بسعادة تجاذب السوارين لبعضهما البعض إلا أنه في النهاية ترك السوار الفضي يسقط فوق سواره ليسيل كالماء ويندمجا في بعضهما البعض قبل أن تبرز نجمة سادسة في

سواره الأصلي، في تلك اللحظة، أغلق الصندوق وقال مقهقها: «أنا أيضا عندي لك هدية.

ثلاثة ليالي كاملة تقيمها في جناح العذراوات.

وكل رجل وامرأة وطفل من أتباعك سيعطي ما يشاء وما يستطيع أن يحمله من طعام ومال وثياب أوذهب، ولهم حرية اختيارما يشاءون من قبو الضر ائب.

❁❁❁

08

ثلاثة أيام مرت قبل أن يصل شبسكاف أخيرا إلى مشارف الطريق المار عبر الغابة القديمة والذي يفضي مباشرة إلى العاصمة، كان على عجلة من أمره، إلا أن هطول الأمطار طوال ساعات متواصلة جعله يتوقف ويتأخر... انتظار توقف المطر جعله شاعرا بالضجر والملل، مما أعطاه انطباعا بأنها ثلاث أيام طويلة، وكذلك حتبت رع، بدت شاعرة بالملل والقلق المشوب بالخوف إلى جواره.

تحركوا عند توقف الأمطار، دلفوا إلى الغابة بالفعل إلا أن الأرض المبتلة أبطأت من حركتهم، بعدما أصبحت زلقه للغاية، مع ذلك تعثرت العربة التي تحمل الفتيات في صخرة صغيرة، ولم تستطع الأحصنة جرها، فتوقفت.

انتبه شبسكاف لتوقف العربة في الخلف، والتفت يعاين الأمر، إلا أن الحارس الذي يقودها لم يحسن التصرف، إذ رفع السوط في يده وانهال به على الأحصنة التي تجر العربة، مما أثار فزعهم فانطلقوا جريا بأقصى ما لديهم، وكانت الأرض طينية شديدة الانحدار، فاصطدمت العربة بعدة صخورونتوءات، كما أن أفرع الأشجار التي يمرون أسفلها كانت كالسياط تلسع أجساد الفتيات.

تمسكت الفتيات في بعضهن البعض، وتعالت صرخاتهن خوفا من السقوط وتألما من لسع الأغصان.

«تمسكي جيدا»، قالها شبسكاف لحتبت رع وهو يمسك كتفها ليؤكد عليها قبل أن يصرخ في الأحصنة التي تجر عجلته الحربية ويدفعها للحاق بعربة الفتيات... لم تجد حتبت رع شيئا تمسك فيه سوى جسد شبسكاف نفسه.

أثناء مطاردتهم للعربة كانت الصخور والنتوءات تجعل عجلتهم تهتز بقوة مما جعل حتبت رع تحتضنه من ظهره بكل ما أوتيت من قوة، وقد شعرت برعشة محببة تتسلل إلى قلبها لم تشعر بها من قبل وهي تستنشق رائحته وتحتك فيه مع كل ارتطام يحدث لهما، إذ كانت هذه مرتها الأولى التي تقترب فيها منه لهذه الدرجة مذ كانوا أطفالا ومنذ أصبحت شابة يافعة.

تعثرت عربة الفتيات في صخرة من الصوان متوسطة الحجم، تسببت في انكسار القضيب الذي يمسك عجلاتها فانخلعت إحداها و انقلبت العربة بالفتيات.

لحق بهم شبسكاف الذي وقف بعجلته ومن خلفه بقية الحراس، حاول النزول عن العجلة، إلا أن حتبت رع كانت ممسكة فيه بشدة وما تزال مغمضة العينين، التفت إليها مستغربا فوجدها مبتسمة لم تدرك بعد أنهما توقفا.

و ابتسم بدوره وهو يزيح يدها عنه، ففتحت عينيها على اتساعهما متفاجئة من نفسها.

قفز شبسكاف من فوره قرب العربة.

كانت الفتيات متفرقات على الأرض وقد لُطِّخت وجوههن بالطين والوحل، وكذلك الحارس هو الآخر كان ملطخ الوجه بالطين، تطلع فيهم شبسكاف وبقية الحراس ولم يكن أي منهم قد أُصِيب بسوء بالغ.

توقفوا في مكانهم حتى أصلحوا العربة وأعادوها للعمل مرة أخرى، وطوال الوقت الذي استغرقوه كانت حتبت رع لا تفعل شيئا سوى التطلع بعينين لامعتين وملامح متهللة أساريرها ووجه مزين بحمرة الرمان في وجه شبسكاف الذي يساعد الفتيات ويطمئن على حال كل واحدة منهن قبل أن يتوجه نحو الحارس قائد العربة ويطمئن عليه ويطمئنه.

لما انقطع المطر تماما وظهرت الشمس عادوا للطريق مرة أخرى، وأمرهم شبسكاف أن يسرعوا من حركتهم على الرغم أن الأحصنة منهكة تماما، لكنه لا يستطيع أن يمهلها فرصة للراحة خشية أن يضيع يوم آخر على الطريق... واستغرقوا أقل من نصف يوم حتى وصلوا أخيرا إلى بوابات ممفيس مع غروب الشمس.

كانت أسوار المدينة مضاءة تماما بفعل المشاعل الزيتية المعلقة في كل مكان على مقربة من بعضها، والبوابات ما تزال مفتوحة على مصراعيها أمام البغال التي تجر عربات العامة محملة بالمحتفلين الذين أتوا من أماكن بعيدة، والعجلات الحربية من فوقها كبار التجار والسادة وتجرها الأحصنة مغادرة هي الأخرى بعد انتهاء احتفالية عيد الحصاد، وكل شخص يحمل معه ما وهب إليه بجوار وجبته التي حصل عليها.

عبر طريق مرصوف بالأحجار المنقوشة، تحيط به مسلات عملاقة معلق فيها قناديل زيتية كبيرة الحجم تضيء للعامة، اخترقوا الحشود المغادرة متجهين مباشرة صوب منزل الكاهن، وتقابلت عجلة نياخ هاو العائد برفقة سيده الكاهن من القصر الإلهي أمام بو ابة المنزل في ذات اللحظة التي وصل فيها شبسكاف وكانت حتبت رع ما تزال جالسة إلى جواره، وأحست بصدرها ينشرح وقد تهللت أساريرها لرؤيتها شقيقها و اقفا أمام عينيها، و ابتسمت لأول مرة منذ ثلاث ليال.

لدى وصولهم، ساد الهرج والمرج ساحة القلعة الأمامية.

قفز الرجال جميعا، القادمون من الداخل بطاقتهم الكاملة والعائدون مرهقون برفقة شبسكاف فوق العربات يفرغون حمولتها، براميل النبيذ وأجولة الدقيق والتو ابل والأسماك واللحم المملح وأجولة الزبيب والبندق والتوت المجفف واللحوم والطيور.

حارس واحد ترجل ببطء يتكأ على حارس آخر، كان مصاب بالحمى، وكان الحارس نفسه الذي أصيب في معبد العر افات إثر سقوطه أمام الغول.

هز الكاهن رأسه بامتنان إلى شبسكاف مرحبا بعودته، ثم دلف إلى المنزل، بينما نظر نياخ هاو في وجه شقيقته، ومن الوهلة الأولى استطاع أن يحدد أنها في وهل إلا أنها تتعمد إخفاءه... دنا إليها، وأمعن النظر في وجهها بركن عينه، وفهمت من فورها أنه غير مطمئن، فقالت بأسى لم تستطع إخفائه: «أردت أن أعود إلى إليك، أردت أن أعود إلى الديار».

حاولت بكل قوتها أن تكون شجاعة، لكنها تشعر في أحيان كثيرة أنها مجرد فتاة صغيرة رغم كل شيء... تركها نياخ هاو ودنا خطوتين وهو مستاء من شبسكاف، ونظر إليه نظرة تساؤل تحمل عتابا واستفسارا واستياء في آن واحد.

أراد لو يسأله عما حدث إلا أن عينا صديقه الشاحبتان وملامح وجهه المرهقة جعلته يتريث ويصمت، كانت حتبت رع تراقب الموقف بعينيها في قلق بالغ لاحظه شقيقها فتبسم في وجه صديقه وهو يصفعه برفق على كتفه ويرحب بعودته سالما إلى الديار. مما جعلها تبتسم ابتسامة هادئة تعبر عن إطمئنان تفشى في صدرها.

في وقت متأخر من الليل، تعمد شبسكاف ألا يحظى ومن معه بالراحة قبل أن يعطي تقريرا لسيده، فتوجه صوب الكاهن ترافقه حتبت رع واثنان من الحراس الذين رافقاهم الرحلة، وفي شرفة المنزل المطلة على المدينة وقف يقص تفاصيل ما واجهوه في رحلتهم منذ مغادرتهم ممفيس وحتى لحظتهم الراهنة.

مرت لحظة والكاهن يبدو كأنه لم يسمع، فلم يلح عليه غضب أو تشكيك أو حتى استياء لما سمعه، فقط حدق إلى مائدته المرسومة بفك مطبق عن آخره، وسأل: «أأنت واثق؟».

قال شبسكاف: «رأيت الجثث بعيني يا صاحب الجلالة، والحراس قاموا بدفنهم معا.

العرافات قُتِلت أيضا، وعُلِّقت جثثهم العارية محروقة على حائط المعبد بعد أن نزعت الأساور من أيديهم».

نظر الكاهن بركن عينيه إلى حتبت رع، فأومأت برأسها مؤمنة على كلام شبسكاف، وأردفت: «الجميع شاهدوا ما حدث هناك، كان الأمر بشعا ومخيفا».

شبك الكاهن أصابع يديه تحت ذقنه، وكانت عيناه مظللتين بحاجبيه الثقيلين وفمه مكبوسا عن آخره وقد أخذ فكه يتحرك بصمت، فدائما ما يصر بأسنانه عندما يتوتر.

كان يشعر بنظرات الجميع المسلطة عليه، وأخيرا سألهم: «هل رأى أحدكم مؤخرا رؤيا وهو نائم؟».

اهتز ضوء القنديل المعلق على الحائط، وتنسمت الريح في اللحظة التي تناوبوا النظرات فيها إلى بعضهم البعض، فأضاف الكاهن موضحا: «زوجتي... السيدة كاريسا، في منامها ليلة أمس بكت وهي تحلم بقطيع من الغيلان يطاردها في الغابة... ولما جاء الصباح استيقظت بعينين جافتين محمرتين، خائفة، وليس بإمكانها أن تذرف دمعة واحدة أخرى، ومنذ ذلك الحين وهي صامتة تماما».

اضطرب أحد الحارسين ممن رافقا شبسكاف وانتقل بعينيه يتطلع في وجوه من حوله قبل أن يتحدث مترددا: «أنا يا سيدي... أنا... منذ يومين، رأيت الغدفان تطارد الناس في الشوارع، كان حجمها أكبر كثيرا مما هي عليه، وكانت ذات شعر أسود أشعث، تحمل الجثث وتطير بها عاليا قبل أن تسقطها غارقة في الدماء مفقوءة العينين».

نظر شبسكاف إلى نياخ هاو بعينين حائرتين بدت فيهما نظرة باردة تماما، وقال وهو يتلعثم في عباراته: «لثلاثة أيام متتالية لم تغمض لي

عين، كنت أبحث عنكما في الغابة والمعابد والأودية، لدى عودتكما جاء النوم أخيرا، ومعه أتت الكوابيس.

حلمت بقلاع تحترق وأناس موتى ممزقين فوق قبورهم، كما رأيتني ونياخ هاو جنبا إلى جنب في قتال اختلطت فيه الآلهة بالكهنة مع الغيلان...».

توقف لثوان معدودة عن الحديث، بدا كمن يتذكر رؤياه، وازدرد ريقه قبل أن يسترسل في الحديث وكان صوته متهدجا متكسرا: «كانت الجثث في كل مكان تحمل ملامح صارخة، وكان الظلام سائدا...».

وتوقف عن الحديث مرة أخرى، فأحاطته نظرات استياء من الجميع تطالبه بأن يكمل، وطقطق أحد القناديل الزيتية وتذبذب لهيبه قبل أن ينطفئ عندما أضاف وهو ينظر نحو الكاهن الذي حدجه بنظرات تطالبه أن يكمل حديثه: «كانت جثة جلالة الكاهن على الأرض وكان هذا آخر شيء رأيته قبل أن أسقط صريعا إلى جواره».

صعق نياخ هاو، وتجهمت ملامح الكاهن، بينما ضيقت حتبت رع عينيها وقضبت حاجبيها وهي تنظر إلى شبسكاف مغتاظة قبل أن تصفعه على مؤخرة كتفه وهي تقول: «لماذا لم تخبرني مسبقا بتلك الرؤية يا شبسكاف، أم أن عليَّ أن أعرف الأشياء متأخرا شأني شأن الغرباء!»، وتوقفت عن الحديث للحظات، قبل أن تتخذ نبرة صوتها مسارا آخرا مليئا بالدموع وهي تقول: «ثم... إذا كنت تحسب أني سأسمح لك بأن تتأذى، فأنت مريض بالحمى، مريض بالحمى وسوف أقتلك يا شبسكاف».

لم يبد الكاهن -الذي كاد أن يبتسم أو أنه ابتسم بالفعل- أي ردة فعل، كانت حتبت رع له دائما فتاة لطيفة، رقيقة ومهذبة، ويعرف أنها كانت غارقة في حب شبسكاف حتى النخاع، وكانت لتفعل أي شيء من أجله.

زفر نياخ هاو، وقد فهم أنها أغفلت المقصد كعادتها المتكررة، فقال ضاغطا على كلماته ليذكرها: «نحن في حضور جلالة الكاهن».

أشاحت حتبت رع بنظرها هامسة وهي تهز رأسها: «لم أضع هذا في الاعتبار».

التقف شبسكاف يدها في محاولة منه لطمأنتها، فانتزعت يدها منه وهزت رأسها قائلة وهي تزفر: «سوف أقتلك». وتزحزحت قليلا للوراء نحو نياخ هاو.

سأل الكاهن بكياسة شديدة وهو يفرك وجنته: «و أنت يا نياخ هاو؟».

قبل أن يجيب، في مكان بعيد في المدينة بدأ أحدهم يقرع ناقوسا ينذر بالخطر. فنهض الكاهن عن مقعده وخطى متثاقلا صوب برج شرفة المنزل أعلى نقطة في القلعة، بينما سبقه شبسكاف ونياخ هاو.

رأيا دخانا متصاعدا حددا أنه قرب أحد المعابد المترامية على أطراف المدينة، نظرا إلى بعضهما البعض قبل أن يلتفتا سويا نحو الكاهن وقد وضع نياخ هاو يده فوق سواره الفضي وتأهب لإلقاء تعويذة يفتح بها بابا ينتقل من خلاله إلى مكان الحادث، إلا أنه وقف ينتظر إذن الكاهن.

في تلك اللحظة، هبت رياح مفاجئة، اهتزت على أثرها القناديل الزيتية المعلقة على الحوائط اهتزازا عنيفا قبل أن تنطفئ ويعم الظلام، وانفتح باب سحري في الفراغ إلى جوارهم، بقي مفتوحا لثوان معدودات دون أن يخرج منه أحد.

أخذ نياخ هاو وشبسكاف والحارسين الآخران وضع الاستعداد للقتال، إذ استل كل واحد منهم سيفه من غمده، إلا أن الكاهن كاي تاي نظر إليهم وأشار بأن يهدءوا، كان يعرف أن أحدا ما لا يجرؤ أن يقتحم منزله بهذه السهولة، كما أن فتح باب سحري وإبقاءه مفتوحا لثوان قليلة دون أن يدلف منه أحد، علامة استأذان، وتيقن الكاهن من ذلك عندما ألقيت عبر الباب قطعة نقدية ذهبية وسقطت على الأرض، فأشار بيده إلى شبسكاف الذي وقعت أسفل قدميه، وقال: «أعدها مرة أخرى».

كانت هذه إشارة بالموافقة لمن بالطرف الآخر أن يمر عبر البوابة.

على الفور، دلف خا إم ويست من البوابة، متوشحا بالسواد من الرأس إلى أخمص القدمين، ملثم الوجه، وممسكا في يده ثلاث رؤوس لغيلان تم فصلها عن الجسد، رؤوس عملاقة؛ كل واحد منها في حجم رأس عجل ضخم، تتقاطر منها دماء سوداء ورائحة كريهة للغاية تدل على أنهم قُتِلوا للتو.

تراجع الحارسان للخلف وقد أصابهما فزع، بينما لم يحرك أي من الكاهن أو نياخ هاو وشبسكاف ساكنا، إلا أن حتبت رع أحست كأنها في كابوس، إذ انتابها فزع مفاجئ لدى سقوط عينيها على رؤوس

الغيلان المقطوعة، وتسارعت دقات قلبها وراء الضلوع وحبست أنفاسها وهلة وهي تختبئ خلف شقيقها.

كانت الأجراس ترن والريح تصدر صوتا مخيفا، وشعر خا إم ويست بتزايد دقات قلبها الذي بدأ ينبض بعنف من الخوف، فقال من خلف اللثام: «عليك أن تلوذي بالهدوء الآن يا فتاة، فما يخيف حقا لم يأت بعد».

وارتجفت أنفاسها في حلقها وهي تلتصق في جسد نياخ هاو، فدنا منها شبسكاف، التقف يدها وقبض عليها بلين تشوبه شدة، وعندما رفعت عينيها إلى عينيه هز رأسه و ابتسم وهو يهمس قائلا بكياسة: «أنا هنا».

تطلع خا إم ويست في القناديل المنطفئة قبل أن يحرك يده باتجاهها ويشير بأصبعيه السبابة والوسطى بطريقة أوحت كأنه يقذف شيئا صغيرا من بينهما، فانطلق من بين أصابعه لهب صغير أشعل القناديل مرة أخرى وهو يقول معتذرا: «آسف، إنها عادة قديمة»... قاصدا بذلك إطفاءه القناديل قبيل انتقاله لمكان آخر.

ارتجفت حتبت رع وهي ما تزال تنظر نحو رؤوس الغيلان الثلاثة في يد الساحر والدماء تتقاطر منهم، وهمست في أذن شبسكاف بصوت خفيض للغاية: «أريد المغادرة».

قال خا إم ويست الذي يستحيل أن يكون قد سمع همسها وهو ينظر إليها في وقار ويشير بيده نحو الباب: «بالطبع يمكنك ذلك يا فتاة».

مما جعل الفزع يدب في قلبها، إذ لم يسبق لها أن ترى هذا النوع من السحر.

قال الكاهن موجها حديثه إلى الحارسين: «انصرفا».

ولما تحرك شبسكاف ونياخ هاو ومن بينهما حتبت رع، قال: «ابقيا أنتم».

ووجه حديثه إلى خا إم ويست بنبرة صوت بدا فيها ممتعضا، قال: «ماذا تريد؟ أو ما الذي أتى بك إلى هنا؟».

التفت خا إم ويست إلى الكاهن نصف التفاته، ونظر إليه بركن عينه وقال بالامتعاض ذاته في نبرة الكاهن: «أعطيتك بيتي وقلبي، أعطيتك مخطوطات من هامونابترا وتعويذات لم يسبق لأحد بعد إمحوتب أن عرف بشأنها، أعطيتك الأبنوس والذهب، وبساتين التفاح، أعطيتك عطورا ورمانا، واعتزلت الحياة بأكملها نافيا نفسي في المعبد الأسود تاركا أياك تعيش هذه الحياة كما ينبغي، وعندما آتيك تقابلني هكذا!».

كان شبسكاف ونياخ هاو مع حتبت رع يشعرون بقلق عارم، فلم يسمع أحدهم من قبل عن خا إم ويست إلا أنه الشيطان الذي لا يهاب شيئا، يرتكب الفظائع ويحرق من يخالفه الرأي، حتى الآلهة نفسها تحسب له حسابا.

في حين أن الكاهن كان هادئا تماما وهو يتحدث إليه، خاصة عندما أعاد عليه السؤال مرة أخرى وبكياسة: «خا إم ويست... ماذا تريد؟! وما الذي أتى بك إلى هنا؟».

زفر الساحر وهو يلقي بالثلاث رؤوس على الأرض، وكانت بقعة من الدماء السوداء قد تجمعت أسفل قدميه، ثم أخرج خريطة جلدية من بين طيات ملابسة وثبتها على المائدة بعنف مقصود وقال وهو يزفر غضبا: «لا تتعمد مضايقتي، لا تتعمد. ألق نظرة على هذه الخرائط».

نظر الكاهن بطرف عينيه وقال: «هذه خرائط قديمة، خرائط المعابد في القطرين».

أشار خا إم ويست على العلامات في الخريطة، وقال: «انظر هنا، وهنا، وكذلك هنا... انظر لجميع العلامات، وآخرها هنا».

وختم حديثه وهو يشير خارج الخريطة، يشير حيث الدخان المتصاعد والأجراس ما تزال تضرب والناقوس ما يزال يصدح صوته.

ونقر على ألواح المائدة الخشبية الخشنة بأصابعه وأضاف: «كل من يملك سوارا سحريا في الجنوب تعرض للقتل والحرق قبل أن تقتلع عينيه وينتزع منه السوار، والآن يحدث الشيء ذاته هنا في الشمال. أهنيس، كاهون، ميديوم، اليوم قتلت عرافاتهم والكهنة بذات الطريقة».

علق شبسكاف الذي كان غير مأخوذا بالمفاجأة، قال: «إنه الشيء نفسه الذي حدث للساحرات في معبد العرافات بمدينة آخت آتون».

ثم أشار إلى رؤوس الغيلان: «وهذا الشيء أيضا كان هناك».

كان وجه الكاهن كاي تاي ممتقعا تماما عندما قال مستغربا: «رأيت نبتة أصابع الشيطان في الغابة وقد انتشرت بالآلاف، سمعت ونياخ هاو صوت أبواق السماء قبل أيام بوضوح تام فوق معبد القناديل، وبالأمس، بالأمس رأيت بالمنام خسوفا كليا والقمر مغطى بالدماء بعد أن ضربه مذنب أحمر اللون...».

احتقن وجه خا إم ويست حنقا وقال محتدا: «هذا هو الفرق بيني وبينك يا كاي تاي، هذا هو الفرق... جئتك قبل أيام وكنت موقنا أن شيئا مريبا قد حدث لك، ولكنك أسريته في نفسك».

وقفا صامتين لثوان معدودات، قبل أن يضيف خا إم ويست بملامح بدت قاسية ساخطة وصوت بدأ يتثاقل: «في جميع الأوقات، دائما ما يكون الوضوح أقرب الطرق لتجنب الغرق، وفي الأوقات الصعبة يتوجب علينا تنحيه الخلافات جانبا، فلا يجب أن نجعل من أناس ماتوا منذ زمن وأوقات فاتت سببا في تفرقتنا بوقت نكون فيه أحوج ما يكون لأن نجتمع».

أنهى حديثه ولم ينتظر ردا، إنما أضاف:

«لا تنبت أصابع الشيطان إلا بعدما يفتح أحدهم الحاجز بين البشر والجن ويستدعي الغيلان التي تتغذى على هذه النبتة، وإن انتشرت بالآلاف كما يقول حارسك فهذا يعني أن الكثير من الغيلان باتوا بيننا».

كان الغضب قد تمكن منه، وشعر أن كاي تاي يحتاج للتفكير مليا، لذا التف بوجهه وترجل نحو الحائط وهو يشير بكلتا أصبعيه،

السبابة والوسطى إلى ما بين قنديلين مع أغماض عينيه وهمس بصوت خفيض للغاية «الوهوموروا»، فانفتح له باب ضوئي على الحائط عبر من خلاله وأختفى قبل أن يتلاشى الباب فورعبوره.

في خضم الأحداث المتسارعة والتوتر الذي أحاط بالجميع، وقف الكاهن شاردا مضطربا للحظات، شاعرا بالعيون المتسائلة المسلطة عليه، إلا أنه هدأ تماما وقل اضطرابه لما رأى زوجته كاريسا التي أطلت بوجهها عبر الباب قبل أن تدلف منه وتتحرك صوبه مباشرة.

بعد ثوان من الصمت شعر أن عليه أن يتحدث، ويتحدث كثيرا... لم يكن نياخ هاو وشبسكاف مجرد حراس عاديين كبقية الحراس، ولا حتبت رع مساعدة زوجته الأولى ومدبرة القلعة كذلك، لطالما اعتبرهم شيئا من كيانه، غير أنهم كانوا كذلك بالفعل.

عاد إلى مقعده على المائدة وجلس، ثم مال برأسه عليها وطقطق بأصابعة على سطحها الخشبي الخشن وكان يعرف أنهم يترقبوه، ينتظرون منه إجابات كثيرة.

دنت منه زوجته كاريسا، وربتت على كتفه برفق، فلما رفع رأسه إليها، ووقعت عيناه في عينيها، أومأت له برأسها تطمئنه وتحثه على إفراغ ما في جوفه من أسرار.

اطمأن الكاهن، فأمرهم بالجلوس قبل أن يقول: «الرب سيد الآلهة والملوك جميعا، هو خالق تلك الطبيعة والوحيد القادر على تغيير قوانينها، ولا شيء يستعصي عليه، كما أنه لا يفعل شيئا دون

أن يبعث إشارات مسبقة، هذه الإشارات تأتي كنذير قبل مجيء حدث كبير، قد يحذر من النار والدماء التي تتبع هذا الحدث، وكل شيئ له سبب لا يعلمه إلا الرب، والمعجزات مخفية بتلك الأسباب، لذا عندما تروا تلك الإشارات، احذروا».

ثم أمعن النظر في وجوههم، ووجد أن أحدا منهم لم يفهم شيئا مما قاله، فرفع الكأس إلى شفتيه ورشف من النبيذ الذي أحضره شبسكاف وحتبت رع مؤخرا، وجده شديد الحلاوة لكن قوي جدا، مع ذلك لم يبدُ عليه أنه مستمتع، إذ نظر في الفراغ للحظات، بدا كمن يستعيد شيئا من ذكريات موغلة القدم، و اتضح ذلك عندما استرسل في الحديث يوضح لهم أن كهنة الأرض السوداء، كيميت، تعلموا السحر منذ القدم، إذ تواصلوا مع الجن واستخدموه في حياتهم اليومية، لحراسة القبور ونقل الأشياء الثقيلة ومعرفة مسارات السفن في البحر، وكان ذلك مقتصرا على قلة من الكهنة، قلة قليلة جدا منهم، يمكن عدها على أصابع اليد الواحدة، ولكنهم تمكنوا منه وبرعوا فيه بعد حادثة رع التي رتبها له رب الآلهة والملوك جميعا.

في تلك اللحظة، حضرت الخادمات ووقفن قرب الباب، امرأة أربعينية العمر، ريانة الجسد، خمرية البشرة، حادة الملامح، رداؤها الطويل مصنوع من الكتان، ولها عين نافذة، إذ استطاعت بنظرة واحدة بطرف عينها أن تميز الأجواء المتوترة من حولها، فتوقفت فور دخولها من الباب لثوان معدودات حتى أشارت لها السيدة كاريسا الو اقفة قرب الكاهن بالدخول.

كان من خلفها ثلاث خادمات أخريات ارتدين الملابس ذاتها، جميعهن في سن صغيرة قد يكن في بداية العشرين من العمر أو إنهن في العشرين بالفعل.

لما سمحت لهن السيدة ريانة الجسد بالبدأ في وضع الطعام، اتخذت ثلاثتهن مواضعهن على ثلاثة جوانب من المائدة الخشبية المستطيلة، ملأن الأطباق على المائدة بحساء من القشدة والفطر والزبدة، قدموه في أوعية مذهبة، قبل أن يضيفوا فطائر الذرة الحلوة وكعكات الشوفان الساخنة المخبوزة بقطع من البلح والتفاح والبرتقال، بعدها توالت الأطباق نزولا على المائدة، قطع من لحم الديوك مع شرائح من لحم الإوز المطبوخ في صلصة من الخوخ والزعفران كما أضيفت شرائح اللحم البقري والنبيذ المغلي المحلى بالعسل ومضاف إليه اللوز المسلوق.

لاحظت كاريسا والتي ما تزال واقفة تشرف بنفسها على رص الأطباق أن أحدا من الجالسين حول المائدة لم ينظر إلى الطعام، وكأنهم لا يروه.

ولما كانت شاعرة بالمسؤولية تجاه الجالسين، وأرادت أن تكسر حالة الكآبة والتوتر المخيم على الأجواء، نظرت في عيني زوجها وهي تميل عليه وهمست بلطف في أذنه: «الطعام على المأدبة». فقال بكآبة مستغربا: «المأدبة؟ أي مأدبة؟».

همست له مجددا، لكن هذه المرة في غنج مصطنع وهي تغمزه بعينها قاصدة بذلك أن تحرره من الضيق ليس إلا: «مأدبة الطعام الذي سيمكنك من مجاراتي في غرفتنا حتى الصباح».

كانت كاريسا تساعد زوجها دائما في الخروج من أي حالة نفسية تستحوذ عليه عبر مداعبته بالحديث و إبراز جمالها الأخاذ، إلا أنها في تلك الليلة فشلت على الرغم أنها ارتدت فستانا من الحرير الفضي الموشى بالفراء، يكاد كماه الفضفاضان المبطنان بالكتان الأرجواني الناعم يمسان الأرض، وكانت قد صففت شعرها بأناقة تحت شبكة فضية رقيقة تلتمع فيها جواهر أرجوانية وذهبية.

وعلى الرغم أن الكاهن لم يرها بهذا الجمال من قبل قط، لكن التوتر ظل مهيمنا على ملامحه.

قالت في رجاء موجهة حديثها للجميع: «لا يمكنكم الجلوس بلا طعام أكثر من ذلك».

وقربت كأسا من النبيذ إلى زوجها الذي أخذه منها وهو يقول موجها حديثه إلى نياخ هاو وشقيقته بالإضافة إلى شبسكاف الجالس بينهما: «يمكنكما تناول الطعام، بينما أقص عليكما ما لدي من حديث».

ورفع كأسه وشربه في مرة واحدة ثم أنزله فارغا على الطاولة، وفي الوقت الذي بدأوا فيه تناول الطعام على مهل حكى لهم وهم يأكلون...

كان ذلك في الزمن الغابر، ذات يوم صيفي شديد الحر، في بلاد آشور، حيث الأرض السوداء فيما بين النهرين... كانت جموع الناس كبيرهم وصغيرهم، نساء ورجالا، يتجولون في سوق مدينة نينوي الكبير كعادة كل يوم، بعضهم يمشي على الأقدام وبعضهم يمتطون البغال وآخرين يركبون العربات التي تجرها الخيول للتبضع والتجارة،

يرتدون ملابسهم الطويلة والقصيرة المصنوعة من الصوف والكتان لكنها بلا أكمام أو بنصفها.

كان يومهم صعبا وشاقا على غير العادة، إذ ارتفعت الحرارة عن معدلاتها الطبيعية، وازدادت معها رطوبة الهواء، فترى تاجرا تصبب وجهه عرقا، يجفف وجهه المرهق وهو يتحدث إلى أحد المشترين يعرض عليه الأواني الفخارية والخزف التي تحيط به من كل جانب، بينما صبيه الشاب حليق الشعر، خمري اللون، عسلي العينين، مفتول العضلات، واقفا من خلفه وقد قام بخلع سترته بعد أن بللها العرق تماما نتاج مجهوده المضاعف في حمل ونقل البضائع الثقيلة وارتدى سترة بديلة مصنوعة من الكتان يتوارى فيها... لم يكن الحر فقط ما جعل يومهم شاق، بل الزحام والتدافع الذي أحال بينهم وبين الهدوء فصار كل واحد منهم منفعلا بشدة وفي حالة نفسية سيئة.

كان أحد التجار ممن امتلكوا حانوتا مطلا على النهر ذا وجه بشوش وبدا صوته مفعما بالحياة وهو يعرض بضاعته على بعض المشترين على الرغم أنه كان يجفف العرق عن جبينه بقطعة من الكتان في يده وممسكا بآنية فخارية في يده الثانية، إلا أنه تركها فجأة تسقط على الأرض وتتحطم، وقد تغيرت قسمات وجهه لأخرى مستغربة عندما أطال النظر بعينيه صوب النهر بإمعان ملفت للنظر، وصرخ فجأة بصوت جهوري مشوب بالهلع برره بإشارته إلى ماء النهر: «انظروا... انظروا».

التفتت جموع الناس بتتابع، ليروا مياه النهر الكبير الهادئة وقد تحولت إلى ثلاث موجات مضطربة تجاوز ارتفاع كل واحدة منها

العشرة أقدام، وأخذت تتلاطم في بعضها البعض بشدة لم يحدث أن رأوا مثلها من قبل.

صاح أحد المارة بدهشة يشوبها فزع: «وكأن الروح بثت فيها»، وخُيِّل له أنها تتخذ هيئة أجسادا بشرية لكنها عملاقة وتتقاتل.

صاح آخر صارخا، وكان من الرعاة، وأخذ يتراجع للخلف مفزوعا، فيسقط على ظهره وينهض، يتراجع مجددا بنفس الهلع، فيسقط قبل ينهض للمرة الثالثة إلا أنه في هذه المرة نزع نعليه المصنوعين من جلد طبيعي وأخذ يستعد للهرب وهو يقول صارخا: «إنها الشياطين».

بينما علق شخص آخر وكان ممن يشترون من التاجر البشوش وقد وقف متواريا خلف صبي التاجر مفتول العضلات، قائلا بنبرة صوت مترددة غير مصدق لما يراه: «إنها أرشكيجال». رددها قبل أن يجثو على ركبتيه تمجيدا لها، إذ كان قاصدا بذلك أرشكيجال سيدة السحر، إلهة العالم السفلي، التي يعبدونها كي ترحمهم في العالم الآخر.

بينما سادت حالة من الفوضى ما بين أناس يصرخون ويتعثرون ويتدافعون وتشتبك أرجلهم في البضائع وفي بعضهم البعض من فرط العجلة وآخرين يشاهدون في قلق وخوف إلى جانب من جثوا على الأرض ظنا منهم أنها إلهة العالم الآخر، ترجل عجوز كبير عن بغلته وكان ذا علم من الكتاب، مشى نحو ضفة النهر بضع خطوات متأنية، وكان له وجه مجعد وعينان ضيقتان للغاية وذقن صغيرة ومدببة، وهمس في نفسه بكياسة قائلا: «السيدان... هاروت وماروت».

كانت الأمواج قد اتخذت هيئة ثلاثة أشخاص يتقاتلون، اثنان منهم على هيئة رجلين عملاقين، لكل منهما عينان واسعتان أرجوانيتان ومضيئتان، يحاولان إجبار امرأة تبدو في مثل حجمهما أو أصغر قليلا ولها نفس العيون الأرجوانية المضيئة على الغوص معهما مرة أخرى في الماء، بينما تحاول المرأة جاهدة أن تهرب من بين أيديهما وتتوجه نحو الشاطئ، وبينما بدا أن الرجلين سوف يتغلبان على المرأة، أطلقت صيحة قصيرة تشبه الصراخ، وعلى الرغم من قصر الصيحة إلا أنها كانت مدوية شقت عنان السماء وبثت الرعب في قلوب الناس الذين سمعوها في جميع أنحاء المدينة من أقصاها إلى أدناها، كانت صرخة قوية حتى أن بعض الناس خروا ركعا على الأرض واضعين أيديهم فوق آذانهم من فرط شدتها التي كادت تصم آذانهم.

تبع هذه الصرخة تغير في الجو، إذ هبت ريح صرصر عاتية ولها صفير، تطايرت الأشياء في السوق من شدتها، وازدادت معها برودة الهواء ورطوبة الجو، وامتلأت السماء عن آخرها بالغيوم السوداء الحديدية التي لم يعرف أبدا من أين أتت، ثم رعدت وبرقت بشدة.

كان الناس يسمعون الرعد فيشعرون من قوته أنه يدب في قلوبهم، وهطلت الأمطار كما لم تهطل من قبل، وكانت الأمواج الثلاثة ما تزال تتقاتل عندما انسابت سيول عارمة على منابع النهر الكبير، فأغرقت الأسواق والشوارع، وهرع الناس جميعا عائدين إلى المنازل بملابس بللها المطر، كل منهم حاملا ما استطاع من أشيائه، واستمرت السيول متواصلة لوقت طويل، ظلت فيه أمواج النهر تضطرب حتى فاض على الضفتين، وتدفقت مياهه في كل مكان

عندما تمكن الرجلان أخيرا من الغوص بالمرأة عنوة في باطن النهر، وفي اللحظة التي كادت تختفي فيها بالكامل داخل الماء أطلقت صرختين متتاليتين ومدويتين غاب صداهما مع غوصها أسفل الماء.

قلة قليلة من الناس ظلوا يشاهدون ما يحدث والماء يتقاطر بشدة فوق رؤوسهم حتى أغرق وجوههم وملابسهم، واشتدت أمواج النهر المضطرب حتى لفظ أسماكه على الضفة، وكانت بين تلك الأسماك سمكتان كبيرتان جميلتان للغاية وغريبتا الشكل، قفزتا على الشاطئ حتى عادتا إلى المياه مرة أخرى، وسبحتا إلى وسط المياه حيث كانت الأمواج الثلاثة تتلاطم بقوة، وبدأتا بدفع بيضة كبيرة في حجم حبة النارجيل، لم يسبق لأحد أن رأى في حجمها من قبل، كانت طافية على السطح بعد أن لفظها النهر، ولم يُعرف أبدا من أين أتت هذه البيضة، وألقت السمكتان بها إلى ضفة، وإذ بحمامة بيضاء كبيرة الحجم تتقدم سربا مكونا من بضع مئات من الحمام تهبط من السماء عموديا وتحتضن البيضة وتطير بها بعيدا عن مجرى النهر.

هبطت بها فوق جبل صخري منحدر ومرتفع، لا يذهب إليه الناس، واستلقت فوقها حتى فقست خلال يومين، ومن داخل البيضة خرجت طفلة صغيرة للغاية، لكنها رائعة الجمال، بيضاء كالثلج، شعرها منسدل على وجهها، ولها عينان أرجو انيتان مضيئتان كاللاتي كانت للأمواج فوق النهر، ومن حولها أسراب الحمام الأبيض الذي رفرف عليها بأجنحته ليرد عنها حر النهار وبرد الليل لأيام متتالية، لكن ذلك لم يكن كافيا، ولا مناسبا، فبكت الطفلة، ولم تعرف الحمائم ماذا تفعل.

إلا أن حمامة ذهبية في حجم غداف خرجت منطلقة من وسط مياه النهر بعد أن شقتها شقا من حيث ظهرت البيضة لأول مرة، وتوجهت مباشرة صوب قمة الجبل حيث حطت الحمائم والفتاة، ثم هبطت على مقربة منهم وتجسدت في هيئة بشرية.

فتاة يافعة، شديدة الجمال، لها وجه وجسد أبيض كالحليب، ذهبية الشعر أرجوانية العينين المضيئتين، شعرها منسدل على كتفيها وحتى الأرض، مرتدية فستانا من اللون النيلي الأخاذ، حسناء، ونحيلة، إلا أنها امتلكت صدرا ناهضا، بدت في هيئتها البشرية كأنها في منتصف العشرينات من العمر، فوق رأسها تاج مضفر على هيئة غصن الزيتون الأخضر، في معصمها سوار ذهبي براق، نقشت عليه عشرات النجوم البارزة، كل منها مذهبة لامعة.

ترجلت وسط الحمائم ولم يفزعوا لرؤيتها، بل تراقصوا في الهواء فرحين بقدومها، حتى أن بعضهم حط على كتفيها... لما دنت من الفتاة احتضنتها، وهمت تقبل جبينها وقد ترقرق الدمع من عينيها إلا أنها كانت دموع سعادة... بدا أنها في عجلة من أمرها عندما أعادتها لفراشها مرة أخرى والتفت بوجهها وهي تقبض على السوار في معصم يدها وشرعت في إلقاء كلمات بلهجة لم يُسمَع بها من قبل.

بدت كلماتها كتعويذات سحرية ألقتها في كل اتجاه، فإذا بالأرض مهدت من حولها على إثر تعويذة، وغرست الأشجار، العشرات من التفاح المزهر، والعشرات من الكروم الأحمر والأصفر، المانجو والبرتقال والرومان والزيتون ونباتات؛ زهرها متباين الألوان، رائحتها فواحة بشدة على إثر تعويذة أخرى، ثم ضربت الأرض وهي تلقي

بتعويذة ثالثة، فانفجر ينبوع ماء عذب بارد وآخذ يجري ويلتف بين الأشجار وحولها، وأخيرا وضعت لها كوخا صغيرا مغطى بنباتات الزينة والورود، وكان هذا آخر ما فعلته قبل أن تدنو من الفتاة مرة أخرى لتحتضنها بعينين فاضت بالدموع تلوح فيهما نظرة الوداع، ثم خلعت السوار من معصمها وعقدته بضفيرة من شعرها على يد الطفلة وهي تعدها: «سوف أكون دائما إلى جوارك، قدر المستطاع».

قفزت الفتاة في الهواء و اتخذت هيئة الحمامة مرة أخرى وشقت السماء مغادرة المكان تاركة إياه من خلفها وقد تحول إلى واحة من الخضار الضاجج، شديدة الجمال مليئة بالفواكه والظلال والمياه، معلقة في أعالي الجبال.

كانت الطفلة تكبر بسرعة غير طبيعية، فبعد شهور قليلة أصبحت الطفلة الصغيرة فتاة يافعة وبدا عمرها قريبا من الستة عشر عاما، ووجدت الحمائم أن الفواكه وحدها لا تكفي لإطعامها، فبدأت تبحث لها عن الغذاء، واهتدت إلى مكان يضع فيه الرعاة ما يصنعون من جبن، وحليب، وخبز طري، فأخذت الحمائم منها بمقدار ما تستطيع حمله بمناقيرها أو بين بعضهم البعض، لتقدمه للطفلة.

مع الوقت انتبهت زوجة أحد الرعاة إلى جبنها وخبزها المنقور وحليبها المنقوص، فأخبرت زوجها الذي قرر مع ثلاثة آخرين ترك أحدهم لير اقب المكان، وكان راعي قصير القامة بدينا، لكنه لئيم وطماع.

وشاهد الراعي عشرات الحمائم وهي تحط حول الجبن وتلتقط قطعه الصغيرة، وتملأ مناقيرها بالحليب وتطير به إلى مكان ليس

ببعيد، فأخبر رفاقه الثلاثة، و اتفقوا على اتباع الحمائم حتى يعرفوا القصة.

لدى وصولهم إلى الجبل، تسلقوه بمشقة كبيرة مدفوعين برغبة عارمة في معرفة ما الذي يفعله الحمام بالحليب والجبن.

عند القمة قال الراعي الطويل: «لا بد وأن هذا المكان بيت للأفاعي العملاقة أو الشياطين الفارة من الجحيم، لا يمكن لأحد من البشر أن يأتي هنا».

رد عليه الراعي القصير: «كل هذا الكلام عن الأفاعي والشياطين ليس مخيفا ولا مسليا حقا، إنه لا يغير شيئا من حقيقة أننا هنا بالفعل».

ودس يده في معطفه، وأخرج خنجرا صغير الحجم، فلاحظ الراعي إلى جانبه حالة التوتر التي خيمت على ملامح صديقه القصير ومد يده من فوره إلى مقبض سيفه وإن بدا من مقبضه أنه سيف مصنوع في ورشة رخيصة. لكن قبل أن يستله قال الراعي القصير وهو يطل بإمعان وقد بدت له الأشجار الخضراء على مشارف الواحة: «وكأنها الجنة».. بينما قال آخر بلهفة وهو يطأ بقدميه في الظلال أسفل الأشجار: «انظروا... جميع الأشجار محملة عن آخرها بالفاكهة».

كانت جميع الأشجار خضراء ومثمرة بالفعل، وإن كانت في غير أوان إثمارها.

كان الراعي الطويل ما يزال قابضا على سيفه شاعرا بالقلق المشوب بالخوف عندما قبض صديقه القصير على خوخة، وسأله

مبتسما متهلل الملامح: «أترغب في واحدة يا أخي؟ إنها من واحة نينوي السحرية، وأؤكد لك أنك لم تتذوق شيئا بهذه الحلاوة من قبل»، وقضم من الثمرة بنهم شديد ليسيل العصير على جانب فمه.

رد الراعي الطويل وقد أخرج سيفه من الغمد وبدا أنه غير مطمئن ويتميز من الغيظ الغير مبرر: «لم آت إلى هنا لآكل الفاكهة».

قال ثالثهما: «أيها السيدان! يجدر بنا أن نسن شروطا للتحرك هنا بحرص، لا أن نتبادل عبارات الاستفزاز».

قطف الراعي القصير حبة خوخ فاقع حمارها من الشجرة، فإذا به يتفاجأ أنها تثمر من فورها حبتين، وتنضجان في ذات اللحظة، حتى أنهما تصبحان أشد احمرارا من التي قطفها، وعندما أعاد الكرة وقطف حبتين، أثمرت أربعة، فصرخ مهللا: «قلت لكم إنها الجنة».

وبينما الرعاة الثلاثة منبهرون بما يروه من أشجار مثمرة وورود متباينة الألوان والرائحة وقعت عين القصير اللئيم على الفتاة والكوخ... كان الكوخ يرتفع مترين ونصف المتر فقط عن الأرض، مغطى بالكامل بنبات اللبلاب المتسلق أزرق اللون، تتخلله أزهار حمراء وبيضاء وأرجوانية.. من فوقه خيمت ظلال شجرة تفاح عملاقة حتى أن ثمارها الناضجة الساقطة فوقه غطته تماما.

كانت الفتاة الواقفة أمام الكوخ قد أصبحت نسخة مشابهة تماما من الحمامة الذهبية وقتما تجسدت في هيئة بشرية.

نحيفة، لكنها يافعة، ضاجعة بالأنوثة، شعرها ذهبي اللون منسدل من الرأس حتى أخمص القدمين، إلا أن عيناها بقيتا كما

هما، أرجوانيتان مضيئتان بشكل مذهل، وكانت ملتفة بكساء مصنوع من أوراق الشجر.

اندفع الرعاة نحوها، تدفعهم الرغبة في أخذها عنوة إلى منازلهم في مدينة نينوي ظنا منهم أنهم بذلك سوف يستولون على واحتها السحرية التي اعتبروها كنزا ثمينا سوف يدر عليهم أموالا لا حصر لها من بيع الفاكهة التي لا تنضب.

أبدت الفتاة في بادئ الأمر بعض المقاومة، لكنها كانت مقاومة خجولة، سرعان ما رضخت لهم فيما بعد، ورافقتهم دون أن تبدي أي خوف أو قلق، كانت ثابتة تماما، موقنة أنها في النهاية سوف تكون في أمان.

وانقسمت الحمائم المفزوعة لمجموعتين، واحدة تتبعت الفتاة وأخرى توجهت صوب النهر تحاول استدعاء الحمامة الذهبية كي تنقذها، وظلت كل مجموعة تحوم في مكانها وهي تنوح دون توقف أو راحة، حتى أن بعضها كان يسقط ميتا من شدة الجوع والعطش والتعب من الطيران المتواصل، فأمتلأ سطح مياه النهر بالحمائم الميتة، وكذلك أمتلأ سطح منزل الرعاة قبل أن تمتلأ نينوي بأكملها بأجساد الحمام الميت.

لم يكن الرعاة يتخيلون أن إخراج الفتاة من الواحة بمثابة خطيئة، فما إن أُبْعِدت عن واحتها جف نبع الماء، فتوقفت المياه عن التدفق في جدولها، وماتت الأشجار وسقطت جميع ثمارها تالفة في أقل من يوم واحد فقط، ليس لانقطاع الماء عنها، فلم تكن تُروَى من الماء، بل من السعادة والبهجة والطمأنينة التي كانت تنبعث من

الفتاة خاصة وأن الواحة بما فيها قد خُلِقت لأجلها، وعادت الواحة مرة أخرى إلى صيغتها الأولى.

في اليوم التالي، خرج الرعاة من منازلهم وتفاجؤوا بجثث الحمائم الساقطة على الأرض في كل مكان، لكنهم لم يأبهوا للأمر، تحركوا صوب الجبل، وتسلقوه، وهرولوا صوب الواحة وقد تجهزوا لقطاف فاكهتها والعودة بها إلى السوق، إلا أنهم صعقوا عندما وجدوها خاوية على عروشها...

وجُنَّ جنونهم وذُهِلوا تماما لما رأوه، فوقفوا شاعرين بالخيبة والغضب، و اتفقوا فيما بينهم أن يبيعوا الفتاة في سوق مدينة نينوى العظيم كعقاب لها.

خلال أسبوعين حزنت الفتاة على الحمائم التي تموت كل يوم وتسقط من حولها دون أن يأبه الرعاة لذلك أو يتفهموا أسبابه...

وحرصت الفتاة على إخفاء سوارها السحري طوال الوقت، لم تكن تعرف كيف تستخدمه، فلم تعلمها الحمامة الذهبية طريقة استخدامه أو التعاويذ التي تحتاجها لذلك، على الرغم من أنها كانت تتردد عليها لتزورها في النهار الذي يلي ليلة اكتمال القمر من كل شهر، إلا أنها رأت دائما أن موعد تعليمها طريقة استخدام السواروالتعاويذ المستخدمة في ذلك لم يأت وقتها بعد.

في صبيحة اليوم الأول من الأسبوع الثالث اقتادها الرعاة الأربعة إلى السوق، وكان ذلك اليوم يوم موسما للزواج الذي يُقام كل عام، حيث تجتمع في السوق الكبير جموع الشبان والشابات قادمة من كل

نواحي المملكة، لينتقي كل شاب عروسا تشاركه حياته، أو ينتقي كل كهل صبية يحملها إلى داره؛ فيربيها إلى أن تبلغ سن الزواج فيتزوجها أو يقدمها عروسا لأحد أبنائه.

كانت ساحة السوق تغص بالشيوخ، الكهول والشبان، التجار والمزارعين والحراس والمقاتلين.

دخل الرعاة بالفتاة وكان الراعي القصير قد لثمها بطريقة أخفت وجهها تماما لإخفاء جمالها الأخاذ وعينيها اللافتة للأنظار، على أن يكون ذلك اللثام خافيا لوجهها حتى اللحظة المناسبة حيث يعرضونها للبيع.

جلس الرعاة مع الصبية في أول الصف، وفي اللحظة التي سها فيها الرعاة عن الفتاة رأت رجلا استطاعت من نظرة واحدة أن تميز أنه رجل صالح، خاصة عندما هفا قلبها إليه، فقامت بكشف عينيها له ونظرت في عينيه مباشرة.

كان الرجل يدعى سيما، وهو القائد المسؤول عن خيول الملك شمشي. كان عقيما لا طفل له، وهفا قلبه إلى سيمورامات من النظرة الأولى ورغب في تبنيها.

دنا من الرعاة وساومهم على ثمنها، وقد عزم يقينا من اللحظة الأولى على شرائها مهما كلفه الأمر، عندما حاول الراعي القصير أن يستغل رغبة الرجل الواضحة تماما في عينيه، قال له سيما: «سوف أحصل على الفتاة حتى لو كلفني ذلك شقك لنصفين أيها الخنزير البغيض».

في تلك اللحظة سقطت آخر حمامة كانت تحوم فوق الفتاة، وماتت من فورها، فتوجس أحد الرعاة خيفة وهو يتطلع في الحمامة ويتذكر الحمائم التي رآها طوال الأيام المنصرمة ساقطة على الأرض ميتة، فهمس للبقية أن هذه الفتاة ملعونة، وذكرهم بالحمائم الميتة في كل مكان في نينوي، وكذلك ما حدث للواحة، وقال لهم: «لو لم نتخلص منها الآن قد تكون سببا في موتنا جميعا».

كان توجسه هذا سببا في أن تمت الصفقة في لحظتها، فعاد بها الرجل إلى منزله.

ما إن رأت زوجته الفتاة ذات الجمال الرائع حتى هفا قلبها إليها، وفرحت فرحا غامرا واعتنت بها عناية مضاعفة لمدة أسبوعين، فخرجت بها إلى الأسواق، تبضعت لأجلها أفضل الأقمشة والحلى، فألبستها فساتين من الحرير والكتان المطرز بخيوط ذهبية وزينتها بالذهب والجواهر، فاستدارت الفتاة وبرزت أنوثتها كأجمل ما تكون النساء، وذاع صيت جمالها بين التجار في السوق والعامة في الشوارع وجيران القائد سيما، إلا أن سيرتها انتشرت وذاع صيتها بشدة في المدينة، عندما خرجت يوما ما من سوق نينوي ترافقها خادمتان وحارسان؛ عينهم لها القائد سيما، ورأت أناسا مشردين أصابهم المرض، شعرهم قذر ولحاهم خشنة، أعينهم محمرة بشدة وشفاههم جافة مشققة دامية، وبينما اشمئز الناس منهم وتجنبوهم ظنا منهم أن الآلهة قد لعنتهم، دنت سيمورامات منهم، وكانت فيما بينهم طفلة صغيرة شعرها مغبر، واتسخ جسدها بشدة، وفي مقلتي عينيها احمرار دام، ووجنتاها ملتهبة من كثرة البكاء، فدنت منها مدفوعة برقة قلبها ومنجرفة خلف عاطفتها.

جلست أمام الفتاة مباشرة، وفي تلك اللحظة سمعت همسا نابعا من داخلها يخبرها أن ترتدي السوار في معصمها، فاستغربت الأمر، ولم تفعله، إلا أن الصوت تردد مرة أخرى: «ارتدي السوار... ارتدي السوار».

هزت رأسها في قلق ونهضت وهي تتراجع للخلف، فهمس الصوت فيها مجددا: «الخير بالخير... ارتدي السوار، ارتدي السوار»، توقفت بمكانها لثوان معدودة، فقال أحد حارسيها وهو ينظر باشمئزاز إلى الطفلة: «سيدتي... إنهم مرضى... ملعونون».

فهمس الصوت وتردد فبداخلها في نفس اللحظة: «الخير بالخير... أنقذي الفتاة».

التفتت سيمورامات وهي تخرج السوار من بين طيات ملابسها وسط ترقب كل من حولها من الحراس والعامة، ولما ارتدته سمعت الصوت مرة أخرى يهمس لها بأن تمسد بأصابعها فوق جباه الفتاة ووجهها وهي تقول: «بيليجيريرو»، ففعلت.

برئت الفتاة المشردة على الفور من مرضها وعاد وجهها وجه طفلة مضيء. وانتقلت سيمورامات إلى البقية، واحدا تلو آخر، مسدت على جباههم وأيديهم بذات الطريقة، وهي تلقي نفس التعويذة، فبرئوا جميعا مما أصابهم وعادوا أصحاء تماما.

كانت جموع الناس في السوق تتجمع حولها وترقب ما يحدث، وصاحوا مهليين لما رأوه، وظنوا أنها من الآلهة وبعضهم أطلق عليها لقب الساحرة.

في أواخر أصيل اليوم التالي، شقت الحمامة الذهبية مياه النهر، وتفاجأت بجثث الحمائم الطافية على سطحها، فعلمت أن مكروها أصاب الفتاة، طارت مباشرة صوب الواحة في زيارتها الدورية المعتادة من كل شهر، وما إن وصلت، وجدتها خاوية على عروشها، مدمرة، فأيقنت أن الفتاة أُخِذت منها، وأن مكروها أصابها، واغرورقت عيناها بالدموع وهي تحوم فوق الجبل مكذبة نفسها قبل أن تهبط باتجاه الأرض وتتخذ هيئتها البشرية.

ولما كانت غاضبة فإن هبوطها بدا كارتطام شديد للغاية جعل الأرض تهتز أسفل قدميها والحصى مع بقية الأزهار التالفة من حولها أخذ يتطاير. كانت تزفر بصوت مسموع وعيناها الأرجوانية تضيء؛ تكاد من فرط الغضب تشع نيرانا. جلست على إحدى ركبتيها مقتربة من الأرض وبسطت كف يدها عليها.

على الفور، عُرِض لها داخل عقلها ما حدث في الواحة منذ غادرتها آخر مرة، فرأت الحمائم وهي ترقص مع الفتاة ويلتفون معها حول الأشجار ويتقاذفون فيما بينهم حبات الفاكهة المتنوعة، ورأت كيف أنها أصبحت في شهرها الأخير فتاة يافعة تشبهها تماما قبل أن يأتي الرعاة ويخربون كل شيء.

عندما عرض لها الراعي القصير، وهو يقبض بيده الخشنة على معصم الفتاة اللين بقسوة شديدة ويأخذها عنوة ويدفعها أمامه بقوة أسقطتها أرضا على ركبتيها فجرحتا، غضبت بشدة، وأطلقت صرخة غاضبة مدوية كالتي أطلقتها يوم فاض النهر وسمعت نينوي بأكملها تلك الصرخة.

في تلك اللحظة اتخذت هيئة الحمامة الذهبية مرة أخرى، وطارت للسماء، هذه المرة لم تقصد مياه النهر بل قصدت مدينة نينوي نفسها، وظلت تتجول فوق المدينة من أقصاها إلى أدناها حتى شعرت بقلبها يخفق بشدة، فعلمت أن الفتاة في مكان قريب منها، إذ كانت مؤمنة أن ما نبحث عنه بالقلب يمكن الاهتداء إليه دائما مهما غادرنا و ابتعد.

وما إن عبرت فوق منزل القائد سيما شعرت بقوة السوار السحري يؤثر عليها واستطاعت أن تحدد مكانه، فهبطت من فورها فوق المنزل، ولم تبدل هيئتها، خاصة عند رؤيتها الفتاة جالسة أمام زوجة القائد سيما، والأخيرة تقوم بتصفيف شعرها.

كانت الفتاة مرتدية فستانا من الحرير الأزرق وعلى رقبتها قلادة ذهبية مطعمة بالأحجار الكريمة رائعة الجمال، وحول معصمها وقدميها حلى من الذهب، وعلى شفتيها المدبوغة بحمرة الرمان ابتسامة صافية نابعة من القلب، واطمأن فؤادها تماما و ابتسمت عند رؤيتها القائد سيما يدخل عليهما مبتسما ويدنو منها ليقبل جبينها.

قرب انتهاء الليل، مع مغادرة القمر للسماء، هفت ريح باردة على الشرفة من بين الأشجار محملة برائحة الصنوبر والتنوب والدردار والتوت المحيط بالمنزل، فاستنشقها الكاهن كاي تاي الذي توقف عن الحديث فجأة مدفوعا برغبة عارمة في الحصول على بعض الراحة.

كان نياخ هاووشبسكاف بالإضافة إلى حتبت رع والسيدة كاريسا قد قل تناولهم للطعام بعدما أوشكوا على الشبع، وأشارت كاريسا إلى

السيدة ريانة الجسد التي كانت ما تزال و اقفة قرب الباب، طالبتها باستدعاء الخادمات الثلاثة من أجل جمع الأطباق وتنظيف المائدة، في اللحظة التي ملأت فيها كأسا من النبيذ عن آخره وقربته من زوجها.

دلفت الخادمات من الباب، وبدأن في جمع الأطباق، في تلك اللحظة مال شبسكاف برأسه على حتبت رع وسألها هامسا: «أيهما تفضلين أن تصبحي؟ الحمامة الذهبية أم الفتاة؟!».

كانت حتبت رع ممسكة بقطعة كبيرة من لحم الديوك تأكل فيها، وضعتها على المائدة بعنف ونظرت إليه بطرف عينها، وهزت رأسها وزفرت وهي تقول: «أريد أن أعرف أين كنت ليلة معبد العر افات...».

وقاطعها شبسكاف مكملا عبارتها قائلا: «أو سأقتلك يا شبسكاف». و ابتسم من أعماقه وهو ينظر في عينيها وراح يتذكر المرة الأولى التي أخبرته فيها بتلك الجملة.

كانوا أطفالا صغارا لم يتجاوزا العشرة سنوات بعد، عندما تركها ونياخ هاو نائمة ودلفوا إلى النفق الأرضي وحدهم، قاصدين أرض المعابد، ليستمعوا قصص السحر والأساطير القديمة من الكهنة.

عندما استفاقت من النوم، و اكتشفت أمر ذهابهما من دونها، شق عليها أن تجلس وحدها، فذهبت من خلفهما عبر النفق الأرضي، ولم تأبه لكونه شديد الظلام والوعورة، فضاعت فيه.

في وقت متأخر من اليوم نفسه، عاد نياخ هاو وشبسكاف، وغابت حتبت رع، واستمر غيابها عشرة أيام كاملة، طوال خمسة أيام منها بحثا مع عائلتها عنها في كل مكان، حتى أنهم دلفوا إلى الأنفاق الأرضية

المحرمة، وتوغلوا في متاهة الأنفاق المليئة بالفخاخ الهندسية، فعبروا النيران وقفزوا من بين السهام المنبثقة من الحوائط وتفادوا قو افل العقارب وتجمعات الحيات القريبة من أسوار مدينة هامونابترا، مدينة الآلهة السحرية والمخبأة أسفل أرض ممفيس، ولم يجدوا لها أي أثر.

في النهاية ظنوا جميعا أنهم فقدوها للأبد، وحده شبسكاف ظل متمسكا بفكرة أنها ما تزال بخير وسوف تعود في وقت ما، حتى أنه كان يذهب كل صباح إلى فوهة النفق ويظل طيلة اليوم جالسا ينتظر عودتها، كان من آن لآخر يميل برأسه داخل النفق ويناديها بصوت واهن: «حتبت رع... حتبت رع» كان يكرر النداء مرتين قبل أن يختنق صوته في المرة الثالثة وتحل الدموع محله.

في اليوم العاشر لغيابها، وقت الأصيل، كان شبسكاف جالسا كعادة كل يوم قرب فوهة النفق الأرضي يأمل عودتها، وظن أنه سمع صوت وقع أقدامها يقترب، فمال برأسه ينظر داخل النفق، وتفاجأ بها أمامه مباشرة، فصرخ، واجتمع الناس.

كانت نظيفة مصففة الشعر متأنقة، إلا أنهم وجدوا جسدها مليئا بلدغات العقارب والحيات التي لا يمكن لأي إنسان أن يصاب بها وينجو، بيد أنها نجت، ولم يعرف أبدا كيف حدث ذلك، ولم تفصح أبدا عما حدث لها أو ما رأته طوال العشرة أيام التي قضتها تائهة في الأنفاق.

عندما خرجت من النفق كان شبسكاف ما يزال يبكي وعيناه متورمتان من شدة البكاء، كان يبكي كثيرا، أكثر حتى من شقيقها نياخ

هاو، فاقتربت منه وقالت: «إذا بكيت مرة أخرى، سوف أقتلك يا شبسكاف»... ومنذ ذلك اليوم رددتها مئات إن لم يكن آلاف المرات، وكل مرة كانت تقال تكون بدافع خوفها عليه، حتى أنها أصبحت بمثابة أحبك يا شبسكاف.

قاطع نياخ هاو شرود صديقه عندما تساءل بصوت مسموع مشوب بنبرة مستغربة: «أمواج على هيئة بشر تتقاتل، وبيضة كبيرة تختطفها حمامة، وحمامة ذهبية تتخذ هيئة بشرية!!».

قاطعه الكاهن موضحا: «هاروت وماروت آلهة السحر، استوطنا أعماق الأنهار بعيدا عن البشر منذ آلاف السنين، إلا أن ابنتهما الحمامة الذهبية وقعت ذات يوم في حب أحد آلهة البشر، وحملت منه طفلة، فلما قُوبل حبها بالرفض وحُكم عليها ألا تغادر الماء إلا يوما واحدا من كل شهر، أرادت أن تخرج طفلتها من تحت الماء، إلا أنهما منعاها، فلفظت الطفلة على هيئة بيضة كبيرة ألقتها على سطح ماء النهر، وزارتها من وقت لآخر تطمئن عليها».

خفض الكاهن رأسه بجمود بعد أن فرغ من شرب كأس النبيذ واسترسل مجددا يكمل بقية الحديث قائلا:

لم تحظ سيمورامات التي أصبحت شابة يافعة بالراحة لوقت طويل بعدما استقرت في بيت القائد سيما، إذ وشى أحدهم بقصتها للملك الإله شمشي حاكم أرض آشور، ولم يكن أول أو آخر من يذكر الفتاة في مجلس الملك الذي لم يستطع منع نفسه من البحث عن الفتاة الساحرة ذات العيون الأرجوانية كما تتحدث عنها وتصفها مدينة نينوي بأكملها.

وكان يعرف أن القائد سيما رجل حر قوي لا يهاب أحدا، غير أن محبيه في المدينة أعداد غفيرة لا يستهان بها، وخطر بعقله أنه قد يرفض الحضور بالفتاة إن طلب منه ذلك، فتوجه بنفسه ير افقه عدد من الحراس إلى منزل القائد، ولما رأى الفتاة هفا قلبه لها من اللحظة الأولى ، فعرض على القائد سيما أن يزوجها لأحد أبنائه، إلا أنها رفضت ودعم رفضها القائد كما توقع الملك، مما جعله يشعر بالسوء، واشتد حنقه عندما أمر القائد سيما حراس الملك بالخروج من منزله وأمر زوجته أن تصطحب الفتاة إلى مكان آخر غير الذي يقف فيه الملك، بيد أن الملك شمشي استشاط غضبا، فاستل السيف من الحارس الو اقف إلى جواره وألقى الغمد أرضا وبحركة سريعة وضع حافة النصل على رقبة القائد سيما ومررها عليها، فسالت الدماء قانية من الشق الذي صنعه في رقبته وأغرقت الفولاذ قبل أن تسيل على جسد القائد الذي سقط أرضا على الفور.

صرخت زوجة القائد و اندفعت على زوجها، فقابلها الملك وأسكن نصل السيف في قلبها مباشرة...

«لا»... صرخت سيمورامات بفزع شديد قبل أن يكتم أحد الحراس فمها بيده، فأزاحت يده ودفعته بقوة شديدة وهي تصرخ: «لا، لا يمكنكم أن تفعلوا هذا»، وجثت على ركبتيها بين جسدي القائد وزوجته وهي لا تعرف ماذا تفعل، إلا أنها اهتدت بعد ثوان قليلة لتعويذة الشفاء التي تعلمتها يوم السوق، فمسدت بيدها جبين القائد وهي تقول بصوت ممتلئ بالدموع: «بيليجيريرو»، إلا أن شيئا لم يتغير، فكررت إلقاء التعويذة مرة أخرى بصوت متقطع في ارتعاش ودموعها كالسيل تترقرق على وجنتيها، وخاب رجاؤها عندما

رأت القائد وزوجته قد أصبحا جثتين هامدتين وتبللت راحة كفيها بدمائهما.

قال الملك للحراس: «أحرقوا المنزل بما فيه»، وأشار لحارس بعينه وأمره وهو يلتف مغادرا: «أحضر الفتاة».

أمسك الحارس ذراعها ليسحبها إلى الوراء يبعدها عن جثة القائد وزوجته، وتلوت الفتاة محاولة التملص من قبضته والجلوس قرب الجثتين، إلا أن الحارس قبض بشدة على معصميها فاستسلمت له وقد سرت في جسدها قشعريرة ودب في روحها الفزع.

لثلاثة أيام متتالية وضعوها في غرفة لا يدخلها ضوء النهار، مع ذلك اهتموا بها كشيء نفيس لم يسبق لهم أن امتلكوا مثله.

في صبيحة اليوم الرابع جعلوا قاعة العرش بحرا من الجواهر والفراء والأقمشة الثمينة، تكتظ بالتجار وسادة المملكة الذين وقفوا منتظرين خروج الفتاة الساحرة التي ذاع صيتها في مدينة نينوي والتي قررلها أن تكون زوجة أحد أبناء الملك الإله.

فوق الجميع جلس الملك الإله شمشي على عرش مصنوع من الذهب الخالص، مرتديا قميصه القرمزي تحت معطف أسود مرصع بالياقوت الأحمر، وعلى رأسه تاجه الذهبي الثقيل.

في غرفة داخلية، جعلت خادمات القصر سيمورامات تتألق في فستان من قماش الذهب المشرط بالمخمل الخمري والحرير القرمزي الموشى بالشرائط الذهبية، و اقتادها اثنان من الحراس إلى قاعة العرش، بعد أن وضعوا عصبة سوداء على عينيها، وكان بصرها قد

اعتاد الظلام، فلما رفع الحارس العصاب عن رأسها أضاءت عينيها الأرجوانيتان وهي تتفقد المكان، و انبهر الجميع بعينيها.

بدت هادئة تماما من الخارج على الرغم من اضطرابها الشديد من الداخل، وظل ذلك الهدوء قائما إلى أن رأت سحرة الملك الأربعة، وكان لهم صيت ذائع.

أمعنت النظر في وجوههم لثوان معدودات، ولما سقطت عيناها في عين أحدهم وكان رجلا هرما، تأجج داخلها غضب شديد وشعرت برغبة عارمة في الصراخ، فأطلقت صرخة مدوية كالتي أطلقتها الحمامة الذهبية من قبل، صرخة أفزعت جميع من في القصر، فخلعت قلوبهم، حتى أنهم جثوا على الأرض من شدتها، وسقطت الفتاة فاقدة وعيها.

نهض الساحر الهرم متثاقلا، محمر العينين شاعرا بالغثيان، ثم نظر إليها بعينين اتسعتا على آخرهما، وغمغم بضعف وهو يمسح فمه بظهر يده: «سوف نموت كلنا، و أقرب مما نحسب».

نظر إليه الساحر الناهض إلى جواره متثاقلا شاعرا بالدوار وغمغم هو الآخر قائلا: «سوف تتحول نينوي بمن فيها إلى أنقاض، بعدما يستدعي أحدهم بصرخة لا مثيل لها أولئك الغزاة المتعجرفين لمحاسبتهم على معاملته بوقاحة».

لم تكن هذه الكلمات سوى واحدة من نبوءات قديمة تنبأ بها أحد المشعوذين قبل مئات السنين، إلا أن السحرة لم ينسوها.

في وقت متأخر من المساء، فتحت سيمورامات عينيها فوجدت نفسها مستلقية في فراش كبير، استيقظت دفعة واحدة شاعرة بوخز في أعصابها كلها، وللحظة لم تتذكر أين هي.

لم يكن الفجر قد بزغ بعد فوجدت الغرفة مظلمة باردة، وإن ظلت تشعر بالدفء تحت أغطيتها، بيد أن برودة شديدة دبت في جسدها عندما اكتشفت غياب سوارها السحري، فانتفضت عن فراشها ووقفت شاعرة بالفزع والضياع لا تعرف ماذا تفعل، و أين تذهب، إلا أنها أطمأنت قليلا عندما اقتربت من النافذة ورأت القمر مكتملا في السماء، مما يعني أن حمامتها الذهبية سوف تظهر قريبا، إلا أن شيئا من القلق على سوارها السحري ظل قابعا على قلبها.

تلك اللحظة، دلفت من الباب خادمة بترولية البشرة، ريانة الجسد إلا أنها هزيلة النهدين للغاية، لها عينان ذابلتان ووجه شاحب، وقد حملت في يدها مشروبا عشبيا دافئا لها.

نظرت سيمورامات إلى الكأس في يدها بارتياب، فطمأنتها الخادمة التي دنت منها وقدمته لها بلطف شديد إلا أن ملامحها كانت حادة، فلم تستطع أن تبتسم، وأشارت سيمورمات إلى معصم يدها دون أن تتكلم، ففهمتها الخادمة التي قالت: «السوار!». فهزت سيمورامات رأسها على الفور: «نعم». فابتسمت الخادمة ابتسامة هزيلة، ومالت ومدت يدها بين طيات الفراش التي كانت تستلقي فوقه سيمورامات وأخرجت السوار.

تلك اللحظة، سمعوا صوت وقع أقدام يقترب، وبينما تخفي سيمورامات سوارها، دلفت من الباب خادمة أخرى، قالت للخادمة

ريانة الجسد: «طفلتك عادت للبكاء مرة أخرى وقد ارتفعت حرارتها بشدة».

ترقرقت دمعة حزينة على وجه الخادمة ريانة الجسد وهي تستأذن سيمورامات و انصرفت من أمامها بملامح مكسوة بالحزن مكسورة الفؤاد على صغيرتها التيامتنعت عن الطعام قبل أسبوعين كاملين بعدما جف الحليف في ثدي أمها.

في اليوم التالي، وقت الأصيل، شقت الحمامة الذهبية ماء النهر، وقطعت الغيوم في السماء متوجهة صوب منزل القائد سيما.

لدى وصولها تفاجأت بالمنزل محترقا متفحما، ولاحظت بعض العامة يمرون أمام المنزل ويقفون حوله يتفقدون حجم الدمار، بعضهم يمشي على الأقدام، وبعضهم يركب الخيول والبغال، إلا أنها لم تأبه لأحد منهم عندما هبطت عموديا يدفعها غضب متأجج داخلها، و اتخذت هيئتها البشرية قبل أن تصل للأرض بعدة أمتار.

اصطدمت بالأرض، توقفت وسط الدمار والرماد الذي تبقى من المنزل، ففزع الناس لهبوطها واصطدامها بالأرض الذي جعل الأنقاض تتطاير من حولها.

كان صبرها قد نفد، فلم تتفقد المكان، جلست فورهبوطها على ركبتيها وبسطت راحة يدها على الأرض بعد أن أغمضت عينيها، فبدأ ما حدث يعرض لها داخل عقلها.

صرخت صرخة مدوية، فدب الهلع في المدينة وطارت مرة أخرى في السماء، وتوجهت مباشرة صوب قصر الملك الإله شمشي.

حومت فوق القصر تستطلعه بعينيها الأرجوانيتان، فرأت سيمورامات بخير لكنها محتجزة في غرفة لا تفارقها، ورأت خادمات، وحراسا، والملك و أبناءه قرب العرش، ورأت سحرة الملك الأربعة الذين شعروا بقوتها على هيئة طاقة تسري في المكان.

هبطت إلى نافذة الغرفة المحتجزة فيها ابنتها، رأت فتاة وامر أتين تخدمان على سيمورامات، إحداهما كانت تمشط شعرها والأخرى تعتني بأظافرها، والفتاة الصغيرة تمسك لها مرآة تساعدها على رؤية وجهها جيدا.

إذ كان ظهر ابنتها إليها، وحجب جسد المرأة التي تصفف لها شعرها رؤيتها لها جيدا، إلا أنها استطاعت رؤيتها بطريقة مشوشة في مرآة الفتاة الصغيرة الو اقفة أمامها، وسمعت أصو اتا ناعمة تصدر منها، لكنها هزيلة حزينة مشوبة بالخوف، فأدركت أن روحها تتألم.

ر اقبتها لدقائق بعينين متسعتين من القلق غير قادرة على فعل شيء لها. في تلك اللحظة همست لها في روحها «سيمورامات... سيمورامات... انظري... خلفك تماما... النافذة».

أزاحت الفتاة يد المرأة التي تصفف لها شعرها، والتفتت ببطء شديد يشوبه استغراب قبل أن تهم و اقفة وتتحرك صوب النافذة.

أظهرت الحمامة الذهبية نفسها للفتاة الصغيرة جاعلة إياها تراها حتى تطمئن قلبها، وتواصلت معها ذهنيا مرة أخرى، وأخبرتها: «كل شيء سوف يكون بخير، هناك من سيأتي لمساعدتك قريبا، قريبا جدا!».

طارت الحمامة، وكان هناك صف من النو افذ تحتها، والصوت يخرج من آخر نافذة على هذا الجانب التي تطير جهته، حيث قاعة العرش... هبطت قرب خصاص نافذة، وسمعت ثمة امرأة تقول: «كل شيء أصبح جاهزا، بقي فقط تحديد موعد للزفاف».

رد الإله شمشي الذي كان جالسا فوق العرش: «سوف يكون ليلة اكتمال القمر في دورته القادمة».

قالت المرأة: «كما ترى جلالة الإله».

تلك اللحظة، تنهد الكاهن كاي تاي وهو يضيف: كانت الحمامة الذهبية قد فقدت جزءا كبيرا من قوتها بتخليها عن سوارها السحري لابنتها، إلا أن ذلك لم يحرمها من شق السماء والتحليق بسرعة فائقة كحمامة سحرية لا يوقفها شيء.

كان الليل قد ولى منسحبا ببطء والنهار اقترب من فرض نفسه بالفعل، والسماء بدأت تكتسب زرقة مياه البحر العميق الداكنة، في الوقت الذي استحوذ على الكاهن شعور بملل ممض وإعياء سببه له الجلوس طوال الساعات الماضية، شعر بكل عضلة في جسده تؤلمه، وكتفاه وضلوعه كذلك، والتوت ملامحه لمجرد التفكير في مغادرة الشرفة دون إكمال قصته، ولكنه يتألم، وليس في وسعه إلا الانصراف الآن على أمل أن يكمل لهم بقية ما لديه في وقت آخر.

كانت حتبت رع تترقب تحركاته آملة استرساله في الحديث مرة أخرى، و انسحب لأعلى في مقعده ففهمت أنه سوف ينهض، فتساءلت في لهفة حائرة وهي تنظر إليه: «وحلقت بسرعة فائقة! فاا!! ماذا

بعد؟»... فهمها الكاهن الذي حاول أن يبتسم في وجهها أو أنه ابتسم بالفعل، كان يعي أن الفضول مستحوذ عليها تماما، ورغبت في معرفة ما بعد ذلك، وخذل تطلعاتها عند إشارته بيده للخلف حيث السماء وهو يقول: «لن أفعل، انظري، الفجر يبزغ».

فانقلبت سحنتها حنقا مصطنعا وهي تقول: «لا أستطيع الانتظار»... فتبسم مجددا وهو يغادر مقعده وهم خارجا تر افقه زوجته دونما أن ينبس بكلمة واحدة، ومن خلفه غادر نياخ هاو هو الآخر، وكان شاعرا بإعياء شديد بدا واضحا في ملامحه وهو يشير لها وشبسكاف بيده دونما أن ينبس بكلمة واحدة، فقد كان يومه في قلعة القصر الإلهي يوما طويلا وثقيلا ورغب في أن يستريح.

تبقت حتبت رع التي وقفت وراحت تتطلع شاردة بعينيها في قلق وخوف بديا واضحين في ملامح وجهها مع الحيرة وهي تمعن النظر لما وراء خط الأشجار إلى الشرق حيث لاح وهج شاحب كالذهب ووردي كالمحار.

دنا منها شبسكاف، وكان يشعر بما يدور في ذهنها دائما دونما أن تبوح به، وقف إلى جوارها يتطلع في شروق الشمس كما تتطلع فيه، وقال بصوت خفيض وعينه معلقة على الشمس التى تولد: «أنا هنا، كالشمس دائما، أضيء لك الحياة»... في محاولة منه لبث الطمأنينة في روحها، إلا أنها فاجأته بقولها: «وهذا ما يقلقني».

التفت إليها بركن عينه مستغربا أو قد يكون مصعوقا، لا يفهم المغزى من كلامها وهو الذي اعتاد فهمها دون كلام.

فأضافت بنبرة صوت هادئة لكنه هدوء مخيف: «مذ جئت لهذه الأرض لم أحظ بأحد غيرك ونياخ هاو... يقلقني أن تكونا هنا وسط كل هذا الهراء من القتل والحرق واللعنات».

وظن أنها سوف تكمل حديثها بمقولتها الشهيرة، إلا أنها خالفت توقعاته في هذه المرة، فقد تملكها القلق فعليا واستحوذ على روحها فلم تستطع إلقاء دعابتها ككل مرة.

لف شبسكاف وجهها بأطراف أصابعه وقد تعمد مس شفتيها بسبابته وهو يجعل وجهها بمواجهته تماما، وتراجع خطوة واحدة إلى الخلف ممعنا النظر إليها، لم يكن ينظر إلى حمالة فستانها الحرير الأزرق والوجنتين الشاحبتين من الإرهاق والياقوتة الحمراء عند حلقها والشفتين الحمراوين اللتين ارتسمت عليهما بسمة باهتة، إنما نظر في عينيها مباشرة وخر جالسا على ركبته اليمنى ورفع وجهه مجددا ينظر لها ذات النظرة.

في هذه الأثناء، عاد نياخ هاو وكان قد نسي خنجرة على المائدة، وتفاجأ بشبسكاف الراكع أرضا أمام شقيقته حتبت رع، فتوقف عند الباب يترقب مستغربا لا يفهم شيئا مما يحدث. ولم ينتبها إليه، فلم يكن أي منهما قد شعر بقدومه أو رآه...

وأمسك شبسكاف يد حتبت رع بكلتا يديه وقال: «أقسم لك برب السموات كلها، برع وآمون وجميع الآلهة والمعابد، ألا أترك سوءا يمسسك أبدا حتى لو كلفني ذلك حياتي، وأن أسبقك إلى العالم الآخر».

ابتسمت من أعماق روحها وتناست خوفها وذهب عنها القلق.

في تلك اللحظة، دلف نياخ هاو من الباب مصدرا صوتا مفتعلا قاصدا به تنبيههما بمجيئه، وكانت عيناه تلمع اللمعة ذاتها في عين حتبت رع، وخر راكعا على ركبته اليمنى أمام شبسكاف وهو يقول: «أقسم لك بإله السماء والأرض وما بينهما، ألا أترك سوءا يصلك أبدا ما استطعت، حتى لو كلفني ذلك حياتي أو أن أسبقك إلى العالم الآخر».

ونهض عن الأرض وهم يسحب خنجره من فوق الطاولة وأعاده في غمده وهو ينظر إلى حتبت رع ويقول: «اطمئني... سوف نكون هنا دائما».

غادر نياخ هاو الشرفة بينما ابتسم شبسكاف في وجه حتبت رع قبل أن يمسك يدها ويقفا سويا يشاهدان الشروق جنبا إلى جنب، واستحال لون السماء في هذه اللحظة إلى أحمروأصفروأزرق وأخضر وبرتقالي، ومر من أمامهما سرب من الحمام وسمعوا صوت طائر الشرشور يغرد، ولما خفق قلب شبسكاف بشدة وهفا لحتبت رع، التفت إليها، وأمعن النظر في عينيها العسليتين وكانت يده تتحسس يدها برفق شديد، وبعد ثوان معدودات ارتسمت ابتسامة على وجهيهما وشعر كل منهما بالحميمة تجاه الآخر، بيد أن عين حتبت رع اتسعت فجأة وزفرت في غضب؛ لم يفهم شبسكاف مصدره إلا عندما قالت: «أين كنت ليلة معبد العر افات؟».

وحاولت لكمه في كتفه، بيد أنه تفادى لكمتها مما جعلها تتهاوى وكادت تسقط أرضا، إلا أنه لحق بها ووضعها بين ذراعيه ليصبح

رأسها فوق قلبه تماما وهو يهمس: «فتاة مجنونة»، فقالت مبتسمة وهي تملس معصم يده المشعر بكثرة وتنظر في عمق عينيه وتهمس بصوت ناعم ضعيف مستسلم: «سوف أقتلك يا شبسكاف».

ولم تحاول أن تدفعه بعيدا عنها، بل دفنت رأسها أكثر في صدره واستنشقت رائحته كمن اعتلت سطح الماء الآن بعدما كادت تغرق، ورفعت رأسها للأعلى، فرأى شبسكاف وجهها عن قرب.

كانت عيناها مغلقتين وفمها مفتوح تخرج منه أنفاس طويلة كادت أن تكون آهة، وتأرجح شعرها الذهبي من جانب إلى جانب ورأسها يتحرك فوق صدره تحك أنفها في جسده.

عند نهاية وقت الأصيل من اليوم نفسه، ترجلت حتبت رع وحدها نحو بساتين التفاح التي تتخللها بعض أشجار التوت الخاصة بسيدها كاي تاي.

كانت معتادة على جمع التوت البري يوميا للسيدة كاريسا كما أنها اعتادت أن تحتفظ بجزء منه لشقيقها وبعناية تجمع الجزء الأفضل لشبسكاف.

قبل غياب آخر شعاع للشمس وراء الأشجار إلى الغرب كان شبسكاف قد تسلل إلى البستان باحثا عنها، فمر بين صفوف الأشجار واحدة تلو الآخرى، وأخير وقعت عينيه على أغراضها التي تجمع فيها التفاح والتوت.

تسلل ببطء شديد نحوها، فوجدها وقد أسندت رأسها على جذع شجرة توت بري.

كانت عيناها مغلقتين وفمها مفتوح تخرج منه أنفاس طويلة تشبه آهة، وتأرجح شعرها الذهبي من جانب إلى جانب ورأسها يتحرك إلى اليساروااليمين على صوت سيمفونية هادئة مصنوعة من حفيف أوراق الأشجار... ولابد أنه أصدر صوتا ما، لأن عينيها انفتحتا عن آخرهما فجأة وحدقت فيه مباشرة، ثم صاحت بغيظ مصطنع: «شبسكااف».

دنا منها بلطف، وتعمد غرس أصابعه في ساقها وهمس قائلا: «أحبك».

ابتسمت في خجل على استحياء بدا شديد، ونبض قلبها خوفا، لكنه من النوع اللذيذ، وعادت تشعر أنها مجرد طفلة في الثانية عشر من عمرها لا أكثر، وليست مستعدة على الإطلاق لما تسمعه.

غاب آخر شعاع للشمس، وخيم شيء من الظلام عليهما سويا... اقترب برأسه حتى مال على كتفها، فشعرت بأنها هشة كالفراشات بين يديه وأطر افها واهية كالماء... ارتجفت في مكانها بين يديه، وعندما نظر في عينيها كادت تشهق أو أنها شهقت بالفعل... حدق في وجهها وملامحه ممتلئة بتعابير الحب وهمس مجددا لكن هذه المرة بصوت خفيض: «أحبك»، ومد يده ليمسح على وجنتيها الحمراوتين كحمرة الرمان.

قالت بصوت مشوب بتنهيدة: «ابتعد». فمرر إبهامه ذي الجلد الغليظ بين شفتيها المبللتين، وتعمد ملامسة صف أسنانها السفلي.

فكررت بصوت خفيض أكثر: «ابتعد! توقف!»

فقال لها : «أحبك». فخطر لها أنه فقد عقله أو ربما بات لا يعرف غير تلك الكلمة فحسب، إلا أن محبته هذه بشكل ما جعلتها تطمئن.

مس شبسكاف شعرها بخفة، ومرر أصابعه بين خصلاتها الذهبية الشقراء وهو يتمتم بشيء ما لم تفهمه، لكن كان ثمة دفء في نبرته، رقة لم تتوقع وجودها داخل هذا القلب.

وضع أصابعه تحت ذقنها ورفع رأسها، أبعدها عن جذع الشجرة، قربها إليه كي تنظر في عينيه مباشرة، ثم دس يديه تحت إبطيها ورفعها وأجلسها أمامه مباشرة على جذع شجرة أعلى، فأصبح وجهها مواجها له ليتلاقى وجهاهما على ارتفاع واحد أخيرا ومرة أخرى كرر: «أحبك». فنادته بصوت مبحوح: «شبسكاف!»، لم يجبها.

بعد لحظة مالت حتبت رع إلى الأمام حتى جعلت جبينها يلامس جبينه، واستشعرا كل منهما أنفاس الآخر. ظل يرمقها وقتا طويلا بصمت، كانت عيناهما فقط تتحدثان و أنفاسهما الدافئة تتعانق. ثم تجرأ، وبدأ يلامس جسدها، وبدأ يجردها من ملابسها. كانت أصابعه رشيقة الحركة ورقيقة على جسدها على نحو أدهشها. خلع قطع الثوب الحريري قطعة قطعة، بينما جلست حتبت رع في مكانها صامتة بلا حراك تنظر في عينيه و أنفاسها تحولت إلى آهات وتنهيدات.

لم تستطع منع نفسها عندما كشف نهديها الصغيرين، فأشاحت ببصرها وغطت نفسها بيديها، فقال شبسكاف: «أحبك»، ودفع يديها بعيدا عن نهديها برقة لكن بحزم، ثم رفع رأسها مرة أخرى لتنظر إليه، وكرر: «أحبك»، فرددتها وراءه كالصدى.

أوقفها، وجذبها قريبا إليه ليخلع قطعة الحرير الأخيرة. كان هواء الليل باردا على بشرتها العارية، وارتجفت شاعرة بالخدر في ذراعيها وساقيها. كانت خائفة مما شعرت أنه سيحدث، لكن للحظات لم يحدث شيء. كان شبسكاف يتأملها وينهل من ملامح وجهها وجسدها بعينيه. بعد قليل بدأ يلمسها بنعومة أولا ثم بخشونة. كانت تشعر بقوته لكنه لم يؤلمها ولو مرة.

وضع يدها في يده ومس أصابعها واحدا تلو الآخر، ومرر أصابعه على ساقها، فتأوهت. ومس وجهها متتبعا انحناءات أذنيها ودائرا حول شفتيها بإصبع رقيق. بدا كأن ساعات قد مرت عندما بلغت يداه نهديها أخيرا، فمسد الجلد الناعم تحتهما إلى أن تسارعت أنفاسها بشدة. توقف حينئذ وجذبها لتجلس في حجره.

كانت حتبت رع متقطعة الأنفاس الآن ووجهها متوردا عن آخره.

طوق شبسكاف وجهها بيديه ونظر في عينيها وقال: «أحبك»، وكانت تعرف أنه سؤال وليس إفادة. أخذت يده وقادتها على جسدها، وبينما تقودها إلى حيث يريد وتريد همست: «أحبك» وشهقت لدى وصول يده وأغمضت عينيها.

منذ ذلك الوقت اكتشفا سويا أن لا شيء يعود للوراء، فأصبحا يمضيان ساعات وساعات وهما يتبادلان اللحظات الحميمية، وتمضي أيام كاملة لا يفعلان شيئا غير الاضجاع أسفل أشجار التوت والإصغاء لأمواج النهر الهادئة وأصوات حفيف الأشجار والطبيعة أو مشاهدة النجوم في السماء إن كانا في الليل.

كان جسدها أعجوبة في نظره، وبدت هي متلذذة بقربه إلا أن أفضل شيء تمثل لها في وجوده فقط، في مشاركته لها أوقاتها الهادئة.

كانت تتفقد الغيوم كل صباح بروح ممتلئة بالأمل، وتهمس لنفسها قائلة: «هناك عند خط الأفق، خلف هذه الغيوم المثقلة بالحنين، سيظل ذلك الشعاع المضيء من الحنان واليقين هو ما يربط بين قلبينا معا بقوة ويرفعنا إلى تلك الفقاعة الآمنة لنختبئ بعيدا عن السوء الذي يغمر كل ما هو خارجها... هناك... دوما... سأنتظرك».

❁❁❁

09

قبل ساعة من الفجر، والعالم ما يزال ساكنا غائما، داخل غرفته الحجرية الخاصة في المعبد الأسود، وعلى الرغم من برودة الجو تلك الليلة، كان خا إم ويست ما يزال مستيقظا لم ينم بعد، مرتديا ذات الملابس السوداء، إلا أن رأسه ووجهه مكشوفان، فظهرت ملامحه واضحة، كان محافظا على شعر لحيته قصيرا مشذبا، فكه مربع ووجنتاه غائرتان، عيناه جرحان مفتوحان أسفل حاجبيه الكثيفين، زرقتهما داكنة كالبحر تحت سماء الليل، وفمه صغير، فم مخلوق للعبوس والذم وتوجيه الأوامر الصارمة، ذو شفتين رفيعتين شاحبتين وعضلات فك مشدودة كالأوتار، فم نسي كيف يبتسم أو أنه لم يعرف معنى الضحك قط.

وبدت ندبة بطول وجهه في الشق الأيسر منه عندما مسه خيط رفيع من نور القنديل المتذبذب على الحائط.

كان صوت نهام بومته العمياء يصدح في أرجاء المكان، مع ذلك بدا منهمكا في تفقد خريطة جلدية قديمة، مأخوذة من جلد الضباع، بعد أن بسطها على مائدة مستديرة سوداء اللون، وثبتها بجماجم حيوانات غريبة قد تكون لخنازير أو ضباع وربما غير ذلك.

كان يضع عليها علامات في أماكن متفرقة، وأخذ يشير بيده المحروقة على العلامات بالتتابع، ويربط فيما بينهم، وكانت تأخذ مسارا بدا متسلسلا، و انتبه فجأة لعلامة بعينها، ودق بأصبعه فوقها ثلاث مرات متتالية مؤكدا لنفسه شيئا ما، ونعق غراب بصوت بدا قريب للغاية في الوقت الذي قال خا إم ويست لنفسه محتدا في كلامه والبخاريخرج مع أنفاسه مع كل كلمة: «لا، لا، لا... سوبيك نفرو، لا».

كان قد توقع أو أنه حدد بالفعل أن الهجوم القادم سيكون على معبد سوبيك، وكانت علاقته بها جيدة ووطيدة للغاية إذ كانت ثاني من دعمه في خلافة السابق مع الآلهة بعد شقيقه الكاهن كاي تاي.

اندفع خارجا من باب غرفته ممسكا خريطتة الجلدية في يده المحروقة ويغطي رأسه باليد الأخرى.

على اليسار من باب الغرفة، وجد حارسه العملاق بخوذته الحديدية الكبيرة وملابسة السوداء جالسا على مقعد مصنوع من خشب الصفصاف وإلى جواره حارس آخر يقل عنه في الحجم قليلا، إلا أن كلاهما كان نائما.

هزه خا إم ويست بخشونة ليوقظه من أحلامه، وخرج مباشرة عبر رواق طويل أفضى به إلى خارج المعبد، وقف بين مسلتين عملاقتين مصنوعتين من الجر انيت الوردي تحيط بهم عشرة تماثيل لأبي الهول.

ولحق به حارسه مترنحا في السحر البارد والنوم لا يزال يشوش كل شيء أمام عينيه، إلا أنه ميز مكان الأحصنة وخطا باتجاههم،

وتفاجأ بصوت سيده الذي تخلى عن فكرة الانتقال بعجلته الحربية يقول له: «هلم إلى هنا، هيا، ثمة شؤون يجب أن نهتم بها».

كان الحارس الثاني خارجا من باب المعبد يتكئ على الحوائط الحجرية المرسومة بدقة فائقة، ولم يكن قد استفاق من نومه بعد عندما أمسك خا إم ويست سواره السحري وهمس: «الوهوموروا»، فانفتح باب ضوئي في الفراغ، عبر وحارسه العملاق منه على الفور تاركين إياه خلفهم.

طلع الفجر، وتفتحت أصابعه الطويلة في السماء فوق الأشجار، وبدأت الألوان ترجع إلى الدنيا وهما يرتقيان بروزا جبليا واطئا تحيط به الأشجار، بعد أن عبروا البوابة السحرية التي أقلتهما لمكان ليس ببعيد عن معبد سوبيك نفرو.

كان خا إم ويست قاصدا أن يخرج في هذا المكان تحديدا حيث فضل أن يقطع بقية الطريق صوب المعبد سيرا على الأقدام حتى يتمكن من استطلاعه وما حوله جيدا من مسافة آمنة ويترقب ما سوف يحدث... من خلف شجرة بلوط قديمة، لها عمر أطول من عمريهما، أشار الكاهن للأمام وهو يقول لحارسه بكياسة: «معبد سوبيك نفرو يقع أسفل التلة، خلف هذه الأشجار مباشرة».

صمت الحارس للحظة وتطلع أمامه وقد بدت على وجهه أمارات التفكير... كانت ريح الصباح الباردة تهمس بين الأشجار صانعة سيمفونية هادئة ممتزجة بالنسيم البارد، وتحرك معطفه الأسود الثقيل بفعل صدريته النحاسية الواقية وراء ظهره كأنه كائن نصف حي.

تمتم الحارس فجأة وقد توقف أمام كتلة متحركة من الضباب: «ثمة شيء ما على غير ما يرام هنا».

رمقه سيده العجوز باسما، وقال بازدراء: «حقا؟» سأله الحارس: «ألا تشعر به؟ أصغ إلى همس الرياح بين الأشجار».

كان خا إم ويست يشعر به فعلا، أربعون عاما قضاها في أرض السحرة يتعلم فنون السحر لم يشعر فيها بخوف كالذي شعر به في تلك اللحظة، حتى أنه همس في نفسه: «ماذا هناك بالضبط»، ولما أراد أن يبث الطمأنينة في روح حارسه، قال: «لا أسمع إلا الرياح وحفيف الأشجار وعواء ذئب، ورائحة نتنة تصدر منك، فأي هذه الأصوات يخيفك إلى هذه الدرجة؟».

عندما لم يحصل الحارس على إجابة من سيده ترجل مترددا للأمام، وسحب سيفه الطويل من غمده، فتألقت الحلى الذهبية التي رصعت المقبض، و انعكس ضوء الصباح على الفولاذ اللامع.

كان سلاحا رائعا بالفعل، مطروقا في قلعة، وتشوهت حافته من الاستخدام العنيف، ويشي شكله بأنه موغل في القدم، ما يوحي بأن هذا السيف قد استخدم في نزالات كثيرة من قبل.

قال الحارس منبها سيده محاولا إطالة عمر الحديث بينهما أكثر وقت ممكن: «الأشجار تتشابك بشدة هنا، سيسهل السيف علينا الحركة، يحسن أن أستخدمه في إفساح طريق لنا».

استحال فم خا إم ويست إلى خط رفيع وهو يقول بتأكيد قاطع: «لا، لا تؤذي الأشجار».

شق الحارس الطريق بحذروترقب عبر منخفض شديد الانحدار، ثم بدأ يهبط المنحدر نحو ساحة واسعة مغطاة بالضباب، ولاحت له نقطة تصلح للمر اقبة من تحت واحدة من أشجار الدردار الضخمة، كانت على مسافة قريبة وعلى مشارف الساحة الخالية، وأدنى أفرعها يتدلى على بعد قدم واحد لا أكثر من الأرض.

عند اقتر ابه من الشجرة، انزلقت غزالة صغيرة من أعلى الجرف، سقطت فوقه بعدما كانت تتحرك على الحافة، و انزلق الحارس في الوحل تحت الأفرع الواطئة من الشجرة، وتوقف قلبه عن النبض في صدره، وللحظة لم يجرؤ على التنفس.

على عكس المتوقع، لم تهرب الغزالة على الرغم أنها حاولت، إلا أنها أُصِيبت في إحدى قدميها بكسر بدا مضاعفا؛ أفقدها القدرة على الهرب.

ابتسم الحارس ساخرا من خوفه وهو يقف مجددا على قدميه، استعاد توازنه ورفع سيفه العملاق، راغبا في أن يهوى به على الغزالة يقطع رقبتها بعد أن رأى فيها وجبة شهية جاءتهما بلا مجهود أو ربما انتقاما لخوفه، بيد أن سيده قال مشفقا وهو ينظر إلى الغزالة: «بحق الآلهة!»، وأضاف سريعا وهو يرمق الحارس بنظرة تحذير: «إياك... إياك أن تمسسها بسوء».

كان سيف الحارس يهوى بالفعل على رقبة الغزالة، بيد أنه أطاع أمر سيده على مضض وغير مسار السيف في اللحظة الأخيرة، فارتطم بقطعة صخرية انبعثت منها شرارة نارية من قوة الاحتكاك، ونظر إلى سيده مستغربا وعلى وجهه نظرة غير راضية وهو يتنقل بعينيه بين

السيف والغزالة، بينما دنا سيده من الغزالة الصغيرة بلطف وهدوء شديدين، وأمعن النظر في وجهها الخائف، ليرى دمعة قد ترقرقت من عينيها، بعدما دب الفزع في روحها وهي تحاول جاهدة أن تهرب، إلا أنه ربت بكف يده على جسدها ورأسها للحظات حتى هدأت، وقام بوضع يده على سواره ومسد على قدمها المكسورة وهو يهمس بتعويذة الشفاء قائلا: «بيليجيريرو».

تعافت الغزالة على الفور، واستطاعت الوقوف أخيرا على قدميها، وقامت بحك رأسها في ساق خا إم ويست ما بدا أنه تعبيرا عن الامتنان، ونظرت إلى حارسه العملاق نظرة غاضبة وهي تهرب بعيدا عن المكان، مما يوحي بأن أضعف الحيوانات يمكنه التمييز بين الخير والشر، بين من يسانده ومن يحاول أذيته.

على مقربة من المعبد، في الساحة الواسعة، قرب مجموعة من أشجار الدردار، شاهد الحارس وسيده تجمع كبير للغزلان، والغزالة الصغيرة تتوجه صوبهم، غزالة بعينها ميزوا أنها أنثى تركت القطيع مهرولة تقابل الغزالة الصغيرة بلهفة مما أوحي لهما أنها الغزالة الأم، وجعل ذلك الموقف قلب الحارس العملاق يرق وتلمع عينيه بابتسامة تنم عن رضا.

ترقبا المعبد وما حوله منذ الضوء الأول للشمس حتى وقت الأصيل، وكان كل شيء على ما يرام، فلم يريا شيئا غير مألوف.

فقط حراس المعبد يتجولون حوله من وقت لآخر وقلة من الزوار ممن أتوا لزيارة سوبك نفرو، والحصول على مباركتها وخدماتها.

قرب المغيب، فتحت بو ابة ضوئية من العدم على مسافة تقل عم مئة متر من المعبد، خرج منها يورشو ممتطيا حصانا ذا هيئة مختلفة عن المعتاد عليه، فالرأس عريضة، أو ربما أنها مستديرة، والأقدام الأمامية أطول قليلا من الخلفية، والذيل أملس، وبقية الجسد مغطى بوشاح أسود لا يظهر سوى عينيه الحمراء و أقدامه الرمادية، وأدرك خا إم ويست من نظرته الأولى أنه غول جني وليس حصانا عاديا، وتأكد عندما رأى خمسة من الرجال العماليق يرتدون فوق رؤوسهم خوذات سوداء طويلة تخفي وجوههم، لهم أجساد رمادية ويركبون خيولا رمادية في نفس حجم ما يركبه يورشو، ويتسلحون برماح طويلة مصنوعة في قلعة، غير أنها من الفولاذ ولها رأس من فضة.

خطر للحارس العملاق وهو و اقف متوتر وقلق على يسار سيده خا إم ويست أن ثمة صعوبة أن يتقاتل اثنان مع ستة أشخاص بهذا الحجم مع هذه الرماح الطويلة، وأراد ألا ينقل قلقه إلى سيده، إلا أن شدة توتره جعلته ينطق بلسانه ما يدور في نفسه، فقال على نحو متردد: «إنهم ستة... ستة مقاتلين».

ابتسم سيده ساخرا وهمس دونما أن يلتفت إليه: «إنهم إثنى عشر».

كان خا إم ويست يعرف أن الإنسان الوحيد في المجموعة التي يراها هو الساحر يورشو، أما الجنود الخمسة والخيول التي يمتطوها ما هي إلا غيلان من الجن يسيرها، ويسيطر عليها يورشو بواسطة السحر.

قال الحارس وقد تزايد توتره و اقشعر جسده وهو يسحب سيفه من غمده مجددا: «إذًا، إنها معركة!».

قاطعه سيده: «لن تكون هناك معركة... إنهم موتى ولن يزعجونا ثانية أبدا».

كان خا إم ويست خفيف الحركة كالصيادين، لا أحد يستطيع الحركة في الغابة بين الأشجار أو يتسلل في مكان ما كما يفعل هو.

ولما كان عليه التحرك أسرع بغية التسلل إلى داخل معبد سوبك نفروو والتواجد في الوقت المناسب حتى يمنع يورشو عن أذيتها والحصول على سوارها السحري ترك حارسه من خلفة وبدأ يتنقل متسللا بين الأشجار بخفة، إلا أن الحارس أبى أن يتركه، و أتبعه وهو يعاني من صعوبة أن يفعل مثله.

خرج خا إم ويست من بين أشجار الدردار في النقطة ذاتها التي اجتمع فيها قطيع الغزلان منذ بدأ النهار، بيد أنه تفاجأ بالغزالة الصغيرة إلى جوار أمها، وقد تمزقت الأحشاء تماما وتناثرت دماءهما على الأرض... رفع عينيه ينظر للأمام قليلا فوجد بقية القطيع جثثا ممددة على الأرض وقد تمزقوا أربا، فالدماء كالنهر، والأشلاء في كل مكان، وكأن قطيع من كلاب الجحيم المسعورة مر عليهم.

خرج الحارس العملاق من بين الأشجار خلف سيده، وعلى الرغم من محاولته قتل الغزالة الصغيرة في الصباح، إلا أنه صعق تماما لدى رؤيتها إلى جوار الغزالة الأم والدماء متناثرة بطريقة وحشية في كل مكان.

وتضاعف غضبه وزفر عندما رأى بقية القطيع على نفس الحال، ممزقا على الأرض، وقال غاضبا: «بحق الآلهة جميعا، أي وحش يمكنه فعل ذلك بهذه القسوة؟». فأجابه سيده: «الوحوش لا تفعل ذلك، الإنسان فقط هو من يقتل من أجل متعة القتل»، وأضاف كلمة واحدة: «يورشو».

مستغربا ومحتدا ردد الحارس وهو يضرب الأرض بحد سيفه: «يورشو!! لا يفعل ذلك إلا شيطان». قال سيده محفزا وهو يخطو إلى الأمام في اتجاه معبد سوبك نفرو: «هلم إذًا نقضي على الشيطان».

تحرك للأمام وهو مدرك أن يورشو قد دلف إلى المعبد، خاصة بعد أن رأى مذبحة الغزلان، وفهم من فوره أن يورشو قتلهم بتعويذة القتل المحرمة: «سيكتوسيمبرا»، رغبة منه في ملأ الجو برائحة دماء الغزلان النفاذة من أجل تهييج الغيلان، ونشر طاقة سلبية في المكان مما يجعلهم في أشد حالات السعار والاندفاع نحو الأذى.

ولما كان عالما بدروب المكان جيدا، سلك طريقا خلفيا قديما ومختصرا استطاع من خلاله أن يصل إلى المعبد في وقت قصير، وتوقف ثانية عندما بلغ سور المعبد الدائري، ثم تقدم بحذر يتشمم الثغرة في الحجر، قبل أن يتراجع مشمئزا وكأن ما اشتمه لم يعجبه، فرائحة الغيلان مقرفة ونفاذة.

في آخر السور، عبروا من نافذة صغيرة وترجلوا ببطء وحذر في ممر قصير؛ وجدوا فيه جثتين لحارسين من حراس المعبد، وقد تهشمت رؤوسهم وتشوهت وجوههم في معركة مع غيلان يورشو.

أفضى بهم الممر إلى بهو عملاق، تتوسطه أربعة تماثيل للأخوة الثلاثة سوبك نفرو وإمنمحات وشقيقهم الأكبر نفر بتاح، كل منهم بطول عشرة أقدام، يقفون ملتفين حول تمثال جدهم سنوسرت وطوله اثنا عشر قدما.

تواريا في زاوية، يترقبا المكان، وبركن عينه رأى الحارس حركة ما، أشياء رمادية تنسل من بين التماثيل الأربعة، فأدار رأسه فلمح غولا وقد رفع الخوذة عن رأسه فظهرت ملامحه، أنيابه البارزة أسفل عينيه الحمراء وثمة ما يتقاطر من بين شفتيه و أنفه المقرفة بطريقة مقززة، و انسل آخر إلى الأمام بخطوات صامتة، وفي يده سيف طويل ليس كشيء رآه الحارس من قبل قط.

ميز الحارس أن هذا السيف لم يُطْرَق من أي معدن بشري. كان ينبض بنور القناديل الزيتية المعلقة على الجدران، شبه شفاف، كسرة من البلور شديدة الرقة تكاد تتوارى عن الأنظار إذا نظرت إليها رأسا.

كان ثمة وميض أزرق خافت، ضوء شبحي يتراقص حول الحواف، وبشكل ما عرف الحارس أنه أمضى من أي نصل رآه من قبل... فتح الحارس فمه ليتحدث إلى سيده محذرا، لكن الكلمات تجمدت في حلقه، و أتاه صوت سيده من خلفه يهمس: «تريث... تريث ولا تتحرك».

ظهر يورشو يمر من بين التماثيل ومن خلفة ظهر ما تبقى من حراسه من الغيلان بعدما تخلصوا من الحراس على أبواب المعبد في الخارج وحراس الممرات، وبقي حارسان فقط على باب قاعة التعبد

الرئيسية التي تجلس فيها سوبيك نفرو، واللذان فزعا لدى رؤيتهما الساحر و أتباعه من الغيلان، فقال أحدهما مفزوعا: «غرباء»، بينما سحب الآخر سيفه من الغمد، وأخذ يلوح به في الهواء ويأخذ وضع الاستعداد للقتال.

خطى يورشو في اتجاهه مبتسما غير آبه بما يفعله، وما إن دنا منه وأصبح الفاصل بينهما بضع خطوات انطلق الحارس صوبه بالسيف، قال يورشو هازئا وهو يشير بسبابته على الحارس: «إنسينيدو»، فانطلقت شرارة نارية ارتطمت بالحارس واشتعلت فيه النيران على الفور.

صرخ الحارس، إلا أن صرخته كُتِمت ولم تكتمل بعدما قام الغول المترجل خلف الساحر بضرب عنقه بسيفه البلوري الطويل فأسقطها أرضا من ضربة واحدة، فدب الهلع في قلب الحارس الآخر، وشعر بالعجز، إذ لم يعرف ماذا عليه أن يفعل.

نظر لثوان معدودات إلى باب قاعة التعبد الرئيسية، و انطلق نحوها في هلع شديد أملا أن يحذر سيدته، إلا أن يورشو هز رأسه ساخرا من خوف الحارس، وقال وهو يشير عليه بسبابته: «ألارتي أسندري»، وهي تعويذة خرجت على أثرها طاقة قوية وارتطمت بالحارس جعلته يفقد اتزانه ويطير مندفعا للأمام بقوة شديدة، فارتطمت رأسه بالجدار المبني من صخر الصوان فانكسرت جمجمته على الفور ونزفت منها الدماء الحمراء القانية.

حاول الحارس أن يزحف على الأرض صوب الباب، بيد أن يورشو لم يعطه فرصة، إذ ألقى عليه تعويذة الحرق قائلا: «إنسينيدو»،

فحوله هو الآخر إلى نيران متأججة، مر من فوقها ودفع الباب الكبير الذي أفضى به إلى داخل قاعة التعبد؛ ليصبح بذلك وجها لوجه مع سوبيك نفرو التي كانت تجلس على عرشها، ومر من خلفه اثنان من حراسة، وأغلقوا الباب من ورائهم، بينما تبقى تسعة من الغيلان في البهو الخارجي حول التماثيل الأربعة.

ربت خا إم ويست على كتف حارسه العملاق قبل أن يدفع إياه برفق للأمام، وهو يحسه على القتال هامسا: «لترقص معهم بشجاعة»... تلك اللحظة، مرت غمامة حديدية سوداء أمام قرص القمر في السماء فحجبته، وهفت ريح تشبه النسيم إلا أنها أطفأت بعض القناديل مما جعل الظلام يغطي المكان، ورفع الحارس سيفه عاليا فوق رأسه بتحد وهو يترجل للأمام، وارتجفت يداه من ثقل السيف، أو ربما من التوتر المشوب بالخوف، وإن خطر له في تلك اللحظة أنه ليس بمفرده، بل خلفه واحد من أعظم الكهنة العالمين بأمور السحر.

توقف غول أمامه، ورأى الحارس عينيه... كانتا ذا لون أحمر شديد الحمرة كالدماء، أعمق وأكثر احمرارا من أي عين بشرية رآها يوما ما.

ارتخت يداه بالسيف ونزلت قليلا وقد ثبتت نظراته على السيف الطويل الذي ارتفع في يد الغول، وراقب ضوء النور البارد يجري على النصل بعدما رحلت الغيوم وعاد الضوء مجددا، وللحظة جرؤ الحارس على الأمل في أن يقضي على الغول، إلا أنه تفاجأ بخروج بقية الغيلان من خلف وبين التماثيل.

اثنان في البداية... ثلاثة... أربعة... خمسة... ثم اكتملوا تسعة، وشعر الحارس العملاق بالبرودة التي جاءت معهم ودبت في أوصاله... رغب في أن يطلق صيحة تحذير إلى سيده، كان هذا ما يدور في رأسه، لكنه رأى هلاكه إذا فعلها، فالغيلان سوف تنقض عليه على الفور.

نظر خلفه، ورأى سيده قد اختفى، فارتجف، وألقى ببطء المعطف الأسود الطويل فوق كتفيه ليحرر ذراعيه للقتال، وأطبق على سيفه بكلتا يديه، ورفعه عاليا.

شق السيف المضيء في يد الغول الهواء، وقابله الحارس بسيفه الفولاذي، وعندما التقى النصلان لم يتردد رنين اصطدام المعدن بالمعدن، فلم يكن سيف الغول من أي معدن، بل صدح صوت مرتفع رفيع عند حافة السمع، كصرخة حيوان يتألم.

صد الحارس ضربة ثانية، ثم الثالثة، ثم تدخل غول آخر، فتراجع الحارس خطوة للوراء وضرب بحافة سيفه قصعة نحاسية كانت ممتلئة بالنيران محاولا تعطيل الغيلان عن مبارزته وهو يأمل أن يخرج سيده من حيث يتوارى ويتدخل لمعاونته.

كانا الغولان يتحركان برشاقة عالية أعلى مما توقع وتخيل الحارس، وتوالت سلسلة أخرى من الضربات، فتراجع الحارس من جديد واصطدم بأحد التماثيل، كادت ضربة من السيف تنزل فوق رأسه، إلا أنه تفاداها برشاقة فاصطدم النصل بالتمثال، كسر جزء من يده الممسكة بصولجان الشمس وشوهه... أحاطت به بقية الغيلان، من أمامه، إلى يمينه، إلى يساره، من كل مكان حوله، كانت وجوههم قبيحة، تمنى في نفسه لو أنها بلا معالم من شدة قبحها.

ظل خا إم ويست متواريا، لم يتدخل، والحارس في معركة غير متكافئة، يحارب غولان، ومرة أخرى وأخرى التقت السيوف إلى أن أحس الحارس بأنه يريد أن يغطي أذنيه ليقيها صوت الاصطدام الحاد الشبيه بالعويل.

كان الحارس قد بدأ يلهث من جراء المجهود في تلك اللحظة، و أنفاسه تخرج في شكل بخار ساخن في نور القمر، و اكتست حواف سيفه بتشوهات مضاعفة أكثر مما كانت عليه بينما سيوف الغيلان ما تزال على حالتها الأولى.

ثم تأخرت حركة الحارس الدفاعية لحظة واحدة، فشق السيف الصارخ في يد أحد الغولين الحلقات المعدنية في صدريته النحاسية من الجانب، وأطلق الحارس الغاضب صرخة مفعمة بالألم.

انبجس الدم الساخن من بين الحلقات ليخرج بخاره في البرد، وبدت القطرات حمراء كاللهب وهي تقطر على أرضية المعبد الحجرية.

إتكأ الحارس بظهره على الجدار من خلفه، وأسند سيفه بيده إلى تمثال لأبي الهول طوله ثلاثة أقدام، ومسح جانبه بيده، فرأى القفاز المصنوع من فرو الذئب غارقا في الأحمر القاني.

نظر الغولان إلى بعضهما البعض، ونظرا سويا للخلف إلى بقيتهم. وبصوت كتشقق الجليد على سطح بحيرة شتوية قال الغول ذو الوجه المكشوف شيئا بلغة يجهلها الحارس، وكانت كلماته ساخرة.

أدار الحارس وجهه للحائط، و أبقى يده على التمثال كي يقف بثبات.

والتفت حوله، إلى اليسار، وإلى اليمين، ثم زفر يائسا شاعرا بالنهاية، ويده الثانية ما تزال على جانبه تكتم الدماء المنبثقة من الجرح.

شعر بتقدم الغيلان نحوه من الخلف، فزفر زفرة يأس واستسلام شاعرا أن يديه وساقيه أصبحتا هشتين مرتعشتين بعدما تعذر عليه رؤية سيده ولم يعرف أين اختفى.

أرخى يده بالسيف مبعدا إياها عن التمثال، وكاد يغمض عينيه وهو يومئ برأسه مستسلما وهو يلهث من المجهود الذي بذله في مجابهة الغيلان، إلا أن وجه سيده خا إم ويست ظهر خارجا من أحد الفتحات في الحائط إلى جانبه، وكانت في عيني سيده نظرة و اثقة ولمع السوار في معصم يده وهو يهزها.

وعثر الحارس أخيرا على القوة والغضبة التي كان يحتاجها، فهز رأسه لسيده وصاح وهو يرفع سيفه في الهواء مجددا، و اندفع مزمجرا ر افعا السيف العملاق المكسو بالفولاذ بيديه، كان الغول ذا الرأس العارية ما يزال ينظر للخلف لبقية الغيلان، وعندما استدار هوى الحارس بسيفه على رأسه بضربة عمودية وضع ثقله كله وراءها، فشج رأسه إلى نصفين وأسقطه صريعا على الفور؛ تنبجس الدماء ذات الر ائحة النتنة منه.

تراجع الغول الثاني بحركة تكاد تكون لا إرادية، إلا أنها حركة خائفة تنم عن ذهول، وبدا ذلك عندما نظر إلى بقية الغيلان يحثهم على معاونته، ورفع سيفه في الهواء والتفت يقاتل الحارس مرة أخرى، وعندما تلاقى النصلان تحطم سيف الحارس الصلب.

رفع الغول سيفه مرة أخرى وهو يردد شيئا بنبرة ساخرة، وقبل أن يهوي به على رأس الحارس الذي التفت ينظر إلى سيده، قال خا إم ويست وهو يشير نحو الغول : «اكسبالريومس»، فجرده من سلاحه.

اندفعت بقية الغيلان نحو الحارس وسيده شاهرين الرماح الطويلة، فألقى خا إم ويست تعويذة الصعق قائلا: «ستوبيفاي»، قالها مرة بعد مرة في اتجاه كل واحد منهم، فأسقطهم أرضا واحدا تلو آخر، بينما انحنى الحارس وأمسك سيف الغول الذي قتله قبل ثوان، وكانت ملامح وجهه تدل على أنه مشمئز من رائحة دمائه النتنة، بيد أنه شعر وكأن السيف حيوان حي تنبض فيه الروح، إذ اهتزت يده وصُعِق بشدة عندما أمسك به، فألقاه أرضا و انحنى يلتقط سيف أحد الحارسين الذي قتلهم يورشو، وأخذ يضرب أعناق الغيلان المصعوقة حتى قضى عليهم جميعا.

بخطى متسارعة توجه خا إم ويست صوب باب قاعة التعبد الرئيسية ولحق به الحارس، بغية إنقاذ سوبيك نفرو، إلا أنهم وجدوا باب القاعة مغلقا بإحكام من الداخل، وسمعوا ثمة حديثا دائرا بين الساحر يورشو والكاهنة سوبيك، وميز خا إم ويست أن الحديث محتد بينهما.

تراجع من فوره خطوتين للوراء، ووضع يده فوق السوار وألقى تعويذة التدمير وهو يشير إلى الباب ويقول: «ريدوكتو».

تحطم الباب و اندفع ساقطا نحو الداخل، اصطدم بالغولين اللذين كانا يقفا خلفه فأسقطهما أرضا.

كانت سوبيك و اقفة على يسار عرشها متوترة، أو أنها خائفة، و انتبهت لتحطم الباب وسقوط الغولين وظهور وجه خا إم ويست وهو يعبر الباب متقدما حارسه بخطوة.

عن يمين العرش للأسفل قليلا وقف يورشو الذي لم يحرك ساكنا ولم يلتفت للوراء، كأن شيئا لم يكن، فقالت سوبيك بثقة وقد انفرجت أساريرها عن ابتسامة تنم عن اطمئنان وتجرأت: «انظر... لا يمكنك أبدا أن تحصل على السوار».

بركن عينه، نظر يورشو للوراء نظرة ازدراء مشوبة بالسخرية، وفاجأها بتوجيه كلتي يديه مضمومتين على بعضهما وهو يلقي عليها تعويذة القتل المحرمة غير المغتفرة قائلا: «أفادا كدافرا»، فسقطت سوبيك نفرو أرضا وهي تصرخ صرخة مدوية، وأخذ جسدها يتقلص، واحترق حتى أصبح كومة من رماد، ولم يتبق منها شيء باستثناء سوارها السحري.

استشاط خا إم ويست غضبا وبدت في ملامحه علامات الذهول وهو يخطو مندفعا نحو يورشو الذي توجه سريعا صوب السوار و انحنى ليحصل عليه... قال خا إم ويست غاضبا وهو يصوب كلتا يديه نحو يورشو: «ألارتي أسندري»، فخرجت من بين يديه طاقة سحرية صدمت يورشو جعلته يطير عاليا ويصطدم بالجدار، وسقط أرضا لثوان معدودة كان فيها مبتسما ساخرا من خا إم ويست.

للحظة، وقف الغولان وجها لوجه مع الحارس العملاق وكان حجماهما أكبر من بقية الغيلان التي واجهها الحارس قبل قليل، إذ كانا حارسين شخصيين ليورشو، ورفع كل منهما رمحه عاليا تأهبا

لقتاله، فنظر الحارس إلى سيده نظرة ذات مغزى يسأله المساعدة، فألقى سيده عليه تعويذة تكبير الحجم: «إنجورجيو»، فتضخم حجم الحارس وتضاعفت قوته البدنية، ودارت معركة.

قال يورشو بسخرية، موجها حديثه إلى خا إم ويست الذي انحنى يحصل على سوار سوبيك نفرو: «أحمق... ستظل دائما العجوز الأحمق»، و أتبع سببا: «دائما تنحاز للجانب الخاطئ».

ابتسم خا إم ويست وهو يعلق السوار في قلادة في رقبته وإن كانت ابتسامته شاحبة يشوبها حزن على فقدانه سوبيك نفرو، وقال: «اللعنة عليك دائما، خائن مثل سيدك و أبيك من قبل».

نظر يورشو في عينيه مباشرة، وبسرعة شديدة ألقى صوبه تعويذة غير مغتفرة، إذ قال: «سيكتوسيمبرا»، راغبا في تقطيعه وتحويله لأشلاء، إلا أن خا إم ويست كان منتبها، فقال: «فيرا فيرتو»، فاختفى على الفور و انتقل لمكان آخر على بعد عدة أمتار، فتوقع يورشو مكان اختفاءه، و ابتسم وهو يقول: « لا يمكنك أن تخرج من هنا حيا، كنت أطمع في سوارواحد، والآن... لدي اثنان، منهما سوارك الثمين».

لم يظهر خا إم ويست، ولم يكلف يورشو نفسه عناء البحث عنه، نظر نحو الحارس العملاق والذي كان قد تخلص بالفعل من أحد الغيلان وضرب عنق الغول الثاني. وقال يورشو: « فيرا فيرتو»، فاختفى هو الآخر، إلا أنه ظهر خلف الحارس العملاق مباشرة، ظهر وهو يبتسم هازئا ساخرا من اختفاء خا إم ويست، إذ اعتبر ما يفعله خا إم ويست محض سذاجة.

تلك اللحظة، أظهر خا إم ويست نفسه في الحال، وكان إلى جوار عرش سوبيك نفرو بمواجهة حارسه العملاق وجها لوجه تفصلهما عدة أمتار.

تبادل النظر مع حارسه وأطال النظر في عينيه، ففهم الحارس من فوره أن الشيطان يورشو يقف خلف ظهره، وشعر أن ساعته قد حانت فابتسم في يأس وبدت في ملامحه نظرة مودع لسيده، والتفت للخلف ببطء وحذر شديدين، فتفاجأ بيد الساحر يورشو تطبق بقوة على رقبته ويلقي عليه تعويذة التعذيب المحرمة والغير مغتفرة: «كروشيو».

فسقط الحارس أرضا وبدأ يصرخ في هلع شديد وألم واضح تماما في صرخاته المتكررة، وسالت الدماء نازفة من فمه و أنفه قبل أن تنفجر عيناه وأذناه ويموت في الحال.

انتاب خا إم ويست غضب شديد على حارسه، وبدا ذلك واضحا في ملامحه وهو يزيح وشاحه عن كتفيه وينزل غطاء رأسه ببطء.

ابتسم يورشو مجددا بسخرية وقال ببرود: «ريديكيلاس»، فانطلقت طاقة خضراء على هيئة بلورة تضخم حجمها حتى ملأت القاعة، وهي تعويذة تبطل السحر في المكان لمدة زمنية قصيرة، فعل ذلك رغبة منه في إنهاء الأمر بقتال مباشر بالسيوف.

رضخ خا إم ويست لرغبة يورشو وبدا ذلك عندما هز رأسه موافقا، فقام الأخير بالتقاط سيف من يد الغول، ودفع السيف الفولاذي الذي كان يستخدمه الحارس باتجاه خا إم ويست، وقال

له هازئا: «في وقت سابق كنت شابا قويا يهابه الجميع، أما الآن فأنت عجوز ضعيف تحتاج إلى الشفقة، ولن أمنحك إياها».

التقط خا إم ويست السيف، وقال بصوت ترددت نبرته الغاضبة في أرجاء القاعة الخاوية: «صبي مغرور، كان يجدربي أن أقصر لسانك في وقت سابق»، واصطدم كل منهما بالآخر.

لوقت طويل، تلاقى النصلان مرة بعد مرة، وأخذ خا إم ويست وضع الدفاع طوال الوقت، إذ لم يستطع مجاراة يورشو الشاب في القتال، وأدى تلاقي النصلان مرة بعد مرة إلى تحطم الجزء الأمامي من نصل خا إم ويست المصنوع من الصلب، فتسيد يورشو الموقف بتوجيه عدة ضربات متتالية أسقط بها خا إم ويست أرضا على ركبتيه، وأمسك سوار سوبيك نفرو الذي كان معلقا في رقبته و انتزعه منه وهو يضربه بقدمه في صدره دافعا إياه نحو الجدار، ثم رفع السيف عاليا في الهواء وقد بدت في ملامحه نظرة انتصار.

هبط بالسيف دافعا إياه بكل قوته بضربة شديدة، تصدى لها خا إم ويست، وتشظى السيف الطويل في يده إلى مئة قطعة مشوهة، وتناثرت الشظايا كأمطار من الإبر الحادة.

تلك اللحظة ظهر خا إم ويست شاعرا بالضياع والإرهاق المشوب بالضعف يرافقه استسلام، وأيقن بأن لا طاقة له بمواجهة يورشو، فركع على ركبتيه وسلم نفسه واستسلم للموت بعدما شعر أن ساعته قد حانت، إلا أن تعويذة: «ريدكيلاس» التي تبطل السحر انتهى مفعولها في تلك اللحظة، فاستغل خا إم ويست الأمر وألقى تعويذة الانتقال قائلا بلهفة: «ألوهومورا».

على الفور انفتح له باب ضوئي على بعد مسافة أقل من مترين عن يمينه، نهض منتفضا بأطراف متيبسة، وآلمته ركبتاه بشدة، لكنه قفز عبر الباب بسرعة، إلا أن يورشو قذفه برمح في اللحظة التي عبر فيها من الباب.

❁❁❁

10

كان الظلام قد ساد بالكامل بالفعل عندما استيقظ الكاهن كاي تاي ليرى الموجودات في غرفة نومه سوداء تماما ويشعر بالوجع في كل مفصل في جسده لكثرة ساعات نومه... كانت رياح خفيفة تهب عبر خصاص نافذة الغرفة فوق رأسه عندما دفع نفسه إلى الجلوس معتدلا ورأسه ينبض بالصداع، ثم قبض على صولجانه و اتكأ عليه لينزل بثبات من الفراش.

«تأخر الوقت كثيرا، ولم يستدعوني»... قالها في نفسه ثم فتح الباب مناديا بصوت فيه كسل: «نياخ هاو، أين أنت؟».

لم يتلق جوابا، فنادى مرة أخرى لكن بصووت هادر: «نياخ هاو!»، لم يتلق جوابا هذه المرة أيضا، ما كان غريبا، فحجيرة حارسه تقع على مقربة من غرفته، ويمكنه أن يسمعه بسهولة. في النهاية اضطر الكاهن لأن يزعق مناديا الخدم، وقال لهم: «أسرعوا، لقد نمت أطول من اللازم، كان يجب أن يوقظني أحد».

لم يحصل على إجابة، إذ كانت زوجته السيدة كاريسا قد هيأت له أجواء ساكنة كي يتحصل على نومة هانئة، فصرفت الخدم جميعا إلى ساحة المنزل الخارجية وأماكن إعداد الطعام.

مرة أخرى قطع الرواق الطويل، وعبر النو افذ الضخمة أتت ريح الليل هامسة ومحملة بر ائحة الصنوبر والدردار الغنية، وتر اقصت أضواء المشاعل على الجدران وتر اقصت معها الذكريات في عقله، وتذكر طفولته مع شقيقه الوحيد خا إم ويست، ولم يعرف لماذا في هذا الوقت تحديدا أتته هذه الذكريات.

ثمة شعور حزين تمكن من فؤاده، لم يعرف له مصدر... لدى وصوله إلى باب الشرفة الكبيرة تناهت إلى مسامعه ضحكات حتبت رع وزوجته كاريسا الممتزجة بالصوت الأعمق لشبسكاف ونياخ هاو، كانا يتبادلا أطراف الحديث عندما دلف الكاهن من الباب ورسم ابتسامة واهنة على شفتيه وهو يتحرك صوب مقعده.

وقف نياخ هاو وشبسكاف وإلى جوارهما حتبت رع لحظة رؤيتهما الكاهن يدلف من الباب، إلا أنه أشار لهما بالجلوس، فقالت السيدة كاريسا بصوتها العميق وقد لمعت عيناها: «افتقدتك، إلا أنك كنت تحتاج هذه النومة».

وبينما يجلس الكاهن على مقعده، قالت حتبت رع بصوتها المنكه بالموسيقا ووجه زينته الابتسامة: «أنا أكثر من افتقدك يا سيدي... أنا والحمامة الذهبية»، فابتسم الكاهن كاي تاي ممتنا لها، والتفت إلى زوجته وهو يقول في جدية شديدة: «أنا جائع». من فوره نهض نياخ هاو من على الدكة وقال: «سوف أطلب الطعام»، فرد سيده الكاهن: «كما تشاء، المهم أن تأتيني بالطعام».

كانت رائحة السمك فائحة في المكان، اشتمها الكاهن والتفت يخاطب حتبت رع الجالسة أمامه على اليمين وعلى وجهها ابتسامة

ساطعة مضيئة كالجواهر التي تحلت بها، وقال لها ممازحا وهو يلوح بيده كالسمكة: «رائحة الأسماك نفاذة، من بين مئات الأنواع من الطعام، يبقى السمك أكلتي المفضلة»، فحدجته حتبت رع بإمعان، وقالت هازة رأسها قبل أن تميل بها في نهاية ما تقوله وتغلق جانب شفتيها وتسحبه إلى جانب: «الحمامة الذهبية».

كان شبسكاف قد سكب النبيذ لنفسه في الكأس وأخذ منه جرعة طويلة، حتى لم يتبق فيه غير نصف رشفة في القاع عندما علقت حتبت رع للكاهن، فانتفض ضاحكا واهتز بشدة قبل أن يترك الكأس لتسقط وتتهشم على الأرض من شدة الضحك، ونظرا لبعضهما البعض في ذات اللحظة ورددا سويا: «سوف أقتلك يا شبسكاف».

هز الكاهن رأسه يائسا من أن يتغيرا، و ابتسمت السيدة كاريسا في وجه زوجها تو افقه على ما دار في رأسه، نزل شبسكاف على ركبتيه، ومثله فعلت حتبت رع، فأصبحا سويا وجه لوجه في الأسفل إلى جانب المائدة.

جلجلت الجواهر الذهبية المعلقة في رقبة حتبت رع وهي تهز رأسها وتقول في غيظ: «أحمق، أحمق، أحمق»، بينما رمقها بنظرة تجلت فيها المحبة كاملة.

شرعا في تجميع قطع الزجاج ولم يستطع شبسكاف أن يفعل ذلك دونما أن يرفع عينه ويسترق النظر إلى نهديها الصغيرين المتكورين أمام عينيه، إلا أن هذا لم يكن أكثر ما لفت انتباهه وخطف قلبه، إنما تر اقص لهب القناديل في بؤبؤ عينيها العميق.

تلاقت أعينهما، واستطاعت حتبت رع أن ترى وقع رؤيته عينيها عن قرب على قلبه، فتوقفت عن الحركة، و ابتسمت وهي تنظر له بركن عينيها وقد تعمدت فتحهما على اتساعهما. وبإيقاع ثابت، دقت السيدة كاريسا برفق على خشب المائدة الخشن ثلاث دقات متتالية وهي تقول بنبرة صوت مفعمة بشيء من الضحك: «الحمامة الذهبية» في إشارة منها لحتبت رع أن تنجز أمرها.

عاد نياخ هاو ودلف من الباب بعدما أوصى كبيرة الطهاه على الطعام، جلس في مقعده أمام الكاهن جهة اليسار في اللحظة التي انتهت فيها حتبت رع وشبسكاف من جمع قطع الزجاج المنثوروصعدا سويا إلى المائدة.

ما إن أصبحوا جميعا حول المائدة، قال الكاهن بصوت أتى من أعماق روحه بعدما أغمض عينيه إغماضة أوحت بأنه يحاول تذكر ما يقوله: «كنا أمة عظيمة»، واسترسل في الحديث.

غادرت الحمامة الذهبية قصر الملك شمشي، قاطعة عرض السماء، هذه المرة ليس في اتجاه النهر، وليس في أتجاه الحدائق المعلقة التي خلت، إنما في أتجاه بعيد للغاية، في اتجاه القصر الإلهي في الجنوب من الأرض السوداء، كيميت، حيث قصر إله الأرض كلها الإله الشاب رع.

كانت الرحلة تحتاج عدة أيام ليقطعها البشرومثلهم من الطيران المتواصل من أي طائر عرفه الناس، إلا أن الحمامة الذهبية قطعتها في غمضة عين.

على مقربة من قاعة العرش الخارجية وهي قاعة عظيمة، بنيت في ساحة كبيرة للغاية تضم معابد ضخمة ومراصد فلكية متطورة وقاعات للطعام والاحتفال.

كان إله الأرض رع مجتمعا بقادة الجيوش ورجال القصر والكهنة وبعض التجار عندما هبطت الحمامة متخذة هيئتها البشرية على طريق الإله وهو الطريق الممتد من ضفة النهر حتى أرض المعابد، طوله يقرب من ألفي متر وعرضه يزيد عن خمسة وسبعين مترا، على جانبيه رُصَّ ما يقرب من ألف تمثال أغلبها لأبي الهول، على هيئة جسد أسد ورأس إنسان، وبعضها جسد أسد ورأس كبش، حيث ترمز رأس الكبش للإله آمون، أحاطت بالقاعة عشرات المسلات وعشرات العمدان التي تتخذ شكل زهرة اللوتس، طول كل واحد منها تجاوز الثلاثين قدما، علقت فوقهم ومن حولهم ستائر حريرية قرمزية اللون وبعضها أصفر و أبيض.

وهبت الريح فجأة واهتزت الأرض لحظة هبوط الحمامة وتجسدها. ولثوان معدودات تجمد حراس القصر الإلهي في أماكنهم مستغربين ينظرون إلى بعضهم البعض وإلى قائدهم في قلق لا يعرفون ما الذي ينبغي عليهم فعله، بينما ترجلت الفتاة مباشرة صوب قاعة العرش الذي كان يبعد عنها مسافة تقدر بمئة وخمسين مترا.

وخُيِّل لها أو أنها تمنت لو يحدث ما تأمله دون قتال، فهي لم تأت إلى هنا سعيا للمتاعب، إنما طلبا للمساعدة.

إلا أن ذلك لم يحدث، فعلى الرغم من جمالها الأخاذ إلا أنها بدت لهم كساحرة أوجنية حضرت لتنال من إلههم وتحدث شيء من

الجلبة، فتفاجئت بالحراس يندفعون كالسهام المارقة في اتجاهها، تمنت لو يتدخل قائدهم فيأمرهم بالتراجع، ومرة أخرى لم يحدث، بيد أنهم أحاطوا بها، إذ اقترب منها اثنان من الحراس، كل منهما شاهر سيفه، ولمحت في عيني أحدهما جرأة وتهورا، فقالت بصوت هامس غاضب وواثق وهي تشير لهما بكلتا يديها: «أبقيا على حياتكما... لا تقتربا أكثر».

ابتسم حارس ساخرا من ضآلة حجمها ونحولها، لم يعرها انتباها، وفسر كلماتها بكونها خائفة أو حمقاء، واندفع بالسيف نحوها...

لم تكن تملك رفاهية الوقت، فقد أوشكت الشمس أن تغيب وعليها أن تغوص في الماء مرة أخرى وإلا ستحرم من الخروج للضفة مجددا كما أنها لم تكن في حالة تسمح لها بإبداء أي شفقة أو رحمة، ورغبت أن ترسل رسالة قاطعة مفادها أنها تريد محادثة إله الأرض، وسوف تفعل.

بحركة مفاجئة دارت على عقبيها أمام الحارس، وطارت معها خصلات شعرها الطويلة المنسدلة على ظهرها، ولم ير أو يعرف أحد المحيطين بها كيف حصلت على السيف من بين يديه وبضربة واحدة انفلق فولاذ الواقي المحيط بعنقه كأنه قطعة من الكتان تحت ظل السيف، ولم يسعف الوقت الحارس إلا إطلاق شهقة خفيضة قبل أن تنبثق الدماء من حلقه وسط ذهول الحارس الثاني وبقية الحراس الذين أحاطوا بها مع فزع وهلع صاحبته شهقة استطاعت أن تسمعها بوضوح من جانب الحاضرين في قاعة العرش.

تراجع الحارس الثاني بضع خطوات للوراء خائفا وهو يلتفت للحراس من حوله، قبل أن يتجرأ ويهاجمها رافعا سيفه في الهواء وواضعا خلفه كل قوته، فتفادته الفتاة برشاقة شديدة، ودارت على عقبيها مجددا ووجهت له ضربة سيف على مؤخرة كتفيه فأصابته بجرح قطعي بعرضهما وأسقطته أرضا.

تراجع بقية الحراس للخلف خائفين، بينما ترجل قائدهم وقال محتدا: «ستموتين لهذا»، واختطف فأسا حربية طويلة المقبض من يد أحد الحراس العماليق اللذين وقفا على مشارف قاعة العرش، وأضاف: «ستدفعين حياتك ثمنا لحياة الحارس!».

سادت حالة من التوتر والقلق في المكان، ووقف إله الأرض رع يشاهد ما يحدث في غضب أخذ يتزايد، ومن حوله وقفت أنا وكبار الكهنة، شقيقي الأكبر خا إم ويست، وإمحوتب سيد الكهنة الذي أوتي من العلم ما لم يؤتى لأحد غيره من قبل، إلى جوار الكاهن حنكليس والد الساحر يورشو.

هاجمها القائد وحده، فصرخت صرخ قصيرة بعلو شديد بدت فيها كمن عثرت على صوتها أخيرا: «لا!»، لم تكن خائفة إنما كارهة لإراقة الدماء... إلا أن جنون الدم استحوذ على القائد وحراسه بالفعل، وانقض كل منهم عليها بصيحات طغت على نبرتها القسوة.

تحركت الفتاة بسرعة لم يصدقها القائد وحراسه، وكان السيف في يدها ملتصقا وثابتا كقطعة من جسدها ورفعته لتصد فأس قائد الحرس الذي هوى بضربته عليها من أعلى، فتفجرت شرارة تألقت بالأصفر الناري عندما ارتطم الفولاذ بالفولاذ بصوت يصم الآذان،

ودارت على عقبيها فضربته بخصلات شعرها الذي سبب له جروحا في وجهه على الفور، ومالت برأسها منحنية للخلف برشاقة جعلت الحراس يفتحون أفواههم على آخرها غير مصدقين أنها فعلت ذلك، ثم ضربت بالسيف مقبض الفأس في يد القائد الشاب ليطير النصل منكسرا دائرا في الهواء.

تدخل ثلاثة من الحراس، ثم أربعة آخرون، وحاول اثنان مساعدة القائد في النهوض من الأرض... توقفت في مكانها تزفر في غضب وعيناها الأرجوانيتان مثبتتان على الأرض.

نهض القائد غاضبا وهو يدفع الحارسان بعدما ساعداه، وألقى مقبض الفأس ومد يده إلى سيفه، بينما انقض جندي فجأة عليها، فتفادته ورقص سيفاهما معا وصلصلا.

عندما عاد القائد إلى حومة القتال إلى جوار الحراس الذين تزايدوا وتجرأوا كانت الشمس بالفعل قد مالت نحو المغيب، ولاحظت الفتاة أن الظلال والرياح الباردة قد أحاطت بها، ووجدت نفسها مرغمة على التقدم دونما تضييع أي ثانية أخرى.

كان الكهنة الأربعة قد ظلوا بمنأى عن القتال غير واثقين بما يجب أن يفعلوه، وقفوا في حالة ترقب وتأهب لما يحدث، وعلم إمحوتب أن ما يتجسد أمامه قد يكون أي شيء آخر على أن يكون كائنا بشريا، وأيقن من ذلك عندما تجمع الحراس يتقدمهم القائد وأحاطوا بها، فمالت برأسها وانحنت بجسدها بسرعة خاطفة وبسطت كفها على الأرض محدثة هزة أرضية عنيفة، جعلت القائد والحراس يتطايرون من حولها.

ترجل الإله رع عن عرشه بخطوات ثابتة ومر من بين الكهنة الأربعة وهو يترقب الأمر بملامح بدت مستغربة، فحاول الكاهن كاي تاي إيقافه، بينما تقدم خا إم ويست ير افقه حنكليس وقاما بإلقاء تعويذة قالا فيها: «ستيناريمورا»، مستخدمين قوتهما السحرية معا، فصنعا جدارا سحريا يصعب تجاوزه.

نهضت الفتاة عن الأرض وألقت السيف من يدها، ثم ترجلت بثقة كبيرة مارة من بين الحراس المبعثرين أرضا، وابتسم خا إم ويست وحنكليس في ثقة ظنا منهما أنها لن تستطيع تجاوز جدارهما السحري، بينما لمعت في عين إمحوتب نظرة تنم عن يأس، وقد علم أنها ستتجاوز الجدار وكأنه غير موجود.

مرت الفتاة عبر الجدار بالفعل، فصعق خا إم ويست وحنكليس لما شاهداه، ولم يحرك إمحوتب ساكنا بيد أنه أشار إلي بأن أترك إله الأرض و أتراجع خطوتين للوراء، فتراجعت و أنا أغمغم: «أي لعنة هذه، هل هي شعوذة أو سحر أسود ما، أو أن كل ذلك محض كابوس».

كانت الشمس على وشك المغيب في غضون دقيقتين، عندما بسطت الفتاة راحة يدها فوق رأس إله الأرض رع، وأمعنت النظر في عينيه، وتواصلت معه ذهنيا، أخبرته أنها ابنة ملكين أتيا من عالم آخر، أكثر قوة وتعقيدا، لهما قوة لم يُعرَف بها من قبل، وأن ابنتها، حفيدتهما الوحيدة، محتجزة وتحتاج إلى المساعدة في بلاد آشور ما بين النهرين لدى الملك شمشي.

ونوهت أن ابنتها تحمل سوارا سحريا فيه قوة أكبر مما عرف وسمع عنها البشر أجمعين، إلا أنها لا تعرف كيف تستخدمه.

وأضافت: «حرر الفتاة، و اتخذها ملكة وزوجة، واحصل بذلك على ملك لا ينبغي لأحد من بعدك»، ثم تراجعت خطوة للوراء وهي ترفع راحة يدها عن رأس الإله رع، والتفتت إلى الغرب، فوجدت الشمس قد غاصت في الرمال، ولم تتبق سوى ثوان معدودات قبل أن تفقد قدرتها السحرية، والتفت بوجهها، ودارت بعينيها تتأمل وجوه الكهنة الأربعة لثوان معدودات، بدا كأنها تبحث عن شيء ما غير مفهوم لهم، وثبتت عينيها في عيني إمحوتب، وقد ميزت فيه ذلك الشيء مما جعلها تختاره، فدنت منه حتى كادت تلتصق بصدره، ووضعت أطراف أناملها على جبينه وهمست له: «هذه التعويذات السحرية التي يحتاجها السوار، وحدك يمكنه تحمل مسؤوليتها».

انبثقت من راحة يدها طاقة خضراء سكنت في رأس إمحوتب الذي أغمض عينيه، وقد شعر بوخز شديد في جبينه، والتفتت الفتاة بركن عينها تنظر صوب الشمس، فوجدتها على وشك أن تختفي تماما أسفل الرمال، والتفتت مرة أخرى تنظر في عين إله الأرض رع نظرة أخيرة قبل أن تتحول إلى حمامة ذهبية وتشق الهواء طائرة باندفاع شديد في اتجاه النهر.

في اللحظة التي وصلت فيها إلى الضفة كانت الشمس قد غابت فتحولت الحمامة إلى موجة صغيرة من الماء اختلطت بماء النهر واختفت.

ليلتها، رفض الإله رع النقاش مع كهنته الأربعة فيما حدث، وتوجه مباشرة إلى غرفته، إلا أنه لم يحظ بنومة هانئة طوال الليل، إذ شعر بوخزة في رأسه آلمته لوقت طويل.

بزغ صباح اليوم التالي غائما كثير الريح، التي دفعت السحاب في السماء وجعلته يضطرب، ودوا رعد مخيف و أنار برق طوال الوقت.

عندما انتصف النهار غفا الإله رع لدقائق محاولا إراحة رأسه من الألم الشديد الذي ألم بها، فرأى في منامه الحمامة الذهبية تهبط أمام عرشه، وتتجسد في هيئة الفتاة البشرية بكامل جمالها الأخاذ، ابتسمت له في لطف وذكرته بضرورة إنقاذ طفلتها، وتراجعت للخلف بضع خطوات و اتخذت هيئة طائر العنقاء العملاق المخيف، ونفثت نيرانا شديدة من حوله وهي تخبره بأن تأخره سوف يجلب الخراب في كل مكان في الأرض.

ثم اختفت.

في مساء اليوم نفسه، اجتمع إله الأرض بكهنته الأربعة، تداول معهم الأمر من كل جانب دونما إخفاء شيء، كذلك فعل إمحوتب الذي أفصح عن رؤية راودته فقال: «حلمت برمال الصحراء تتلاطم حول أسوار طيبة، رأيت موجا من رمال سوداء تحطم البوابات والأبراج، ثم تدفقت الرمال من فوق الأسوار وأغرقت المدينة...».

قاطعه إله الأرض رع وقد تجمدت ملامحه، قال: «رمال أسقطت المسلات وحطمت المعابد، وطفت جثث العامة والحراس في الساحات».

تدخل حنكليس شاعرا بحيرة ممتزجة بالاستغراب، قال: «لكن رمال الصحراء ثقيلة، بيد أنها تبعد مئات ومئات من الأميال، وأسوار طيبة عالية للغاية ومنيعة، فلن تدخل الرمال من فوقها حتى لو

حدث ذلك»، فأضفت أنا، وكنت قد رأيت نفس الرؤيا: «في ظلام الليل ستتدفق الرمال السوداء من فوق هذه الأسوار... سوف يحدث الأمر حتما، لقد رأيت جثث الموتى الغارقة في الرمال».

لم يكن حنكليس مدركا ما أدركه إمحوتب والإله رع، حتى أنا كاي تاي، لم أكن أدرك ماهية الفتاة، إلا أنني كنت عالما أن شيئا ما نواجهه أكبر من السحر الذي عرفناه والذي توارثناه وطورنا فيه.

اقترح خا إم ويست: «يجب أن نخبرهم، العامة، الحراس والتجار، نقول لهم ألا يبقوا في المدينة»، فقلت له: «لن يصدقوا يا خا إم ويست، تماما كما لم تصدق أنت وكما لم يصدق حنكليس».

قال إمحوتب بنبرة أوحت أن ما يقوله لا حل سواه: «لن يبدل هذا مصائرهم أو مصيرنا»، والتفت ينظر إلى الإله رع وتنهد مضيفا: «لابد وأن ننقذ الفتاة».

في وقت لاحق ليلتها، عندما التقى إمحوتب مع حنكليس وخا إم ويست وكنت رابعهم، هز رأسه وقال: «الأشياء التي نراها في الأحلام، حقيقية، ولم تتغير». علق خا إم ويست متسائلا: «أهي إشارات الآلهة؟!»، فأجاب إمحوتب بكياسة: « لا أدري».

ارتاب حنكليس وشعر بخوف مفاجيء، وقال بعبوس: «ما الذي نقاومه أو نواجهه؟ وهل سنغرق أيضا؟».

لاح الإحساس بالقلق في عيني إمحوتب الذي تنهد وهو يرمقه قائلا: «إنه اختبار من مجلس آلهة الكون».

أدرك حنكليس أن إمحوتب يخفي شيئا ما، فقضب حاجبيه وسأل بتوتر: «هل سنموت جميعا؟»، فأجاب إمحوتب بنبرة أوحت كأن كل كلمة تؤلمه: «لقد حلمت بالفتاة التي جاءت قبل يوم، لن تترك شيئا خلفها إذا لم نستطع مساعدة ابنتها، ستعود غاضبة».

وأشار إلي وإلى خا إم ويست وهو يضيف: «أنت وأخوك كنتما ميتين عند قدميها»، والتف ينظر إلى حنكليس وقال: «وكانت تسلخ وجهك بنيران حمراء اللهب»، وترجل مغادرا المكان وهو يقول: «إلا أننا سنحظى بما لم يحظ به أحد قبلنا إذا ما استطعنا تحرير الفتاة».

لخمسة أيام متتالية، رأى الإله رع كوابيس مختلفة جميعها أشارت إلى غرق المدينة وخرابها، بيد أنه سمع داخل رأسه همس الفتاة سيمورامات يوما بعد يوم تدعوه لتحريرها، كذلك سمع همس الحمامة الذهبية تحثه على الإسراع في التحرك صوب مملكة آشور وحاكمها الملك شمشي.

لم يكن إله الأرض وحده من يرى الكوابيس ويسمع الهمس، حتى نحن الكهنة رأيناها وسمعنا الهمس ذاته بوضوح تام.

في وقت مبكر من صباح اليوم السادس، حضر غداف أسود قادما من الشرق، حيث مملكة آشور، حاملا بين مخالبه دعوة حدد فيها موعد زفاف ابن الإله شمشي على الفتاة، مما وضع الإله رع وكهنته في موقف صعب، إذ توجب عليهم اتخاذ قرار سريع في شأن الفتاة... وبعد مشاورات مع الكهنة، قال: «إن قتال شمشي لهو أمر أكرهه، إلا أن النذر لا تدع لنا خيارا آخر».

من ثم اتخذ قرار بأن نتوجه إلى بلاد آشور وننقذ الفتاة مهما كلفنا الأمر.

في مساء اليوم ذاته، ومع ظهور القمر في السماء، اخترقت عجلة حربية مصنوعة من الفولاذ شوارع المدينة يتبعها أربعة عجلات حربية أخرى يحرسونها.

تباينت ردود أفعال العامة من الناس لدى رؤيتهم العجلة الفولاذية تخترق الشوارع الرئيسية في المدينة وتتجه صوب طريق الإله، إذ هلل بعضهم وأطلق آخرون صافرات التشجيع والترحيب، والبعض ألقوا الورود والزهور على الرتل وهو يمر، ولمعت في عين الجميع نظرة تدل على الفخر.

لدى وصول العجلة الفولاذية إلى قاعة العرش الخارجية ترجل منها إيورخي قائد جيوش الإله وحارس القصر الإلهي، شاب وسيم لم يتجاوز الثلاثين من العمر، لكنه شديد الوقار كرجل في الستين، صارم لا يتحلى بحس الدعابة، رشيق نحيف كسكين، له عينان رماديتان،ارتدى حذاء جلديا أسود طويل العنق، وسروالا أسود من الصوف، وقفازين أسودين من فرو الخلد، وسترة جلدية سوداء مطعمة بحلقات فولاذية.

ما إن استقر ايورخي في مقعده، شرع إمحوتب في التحدث بصوت الملك، شارحا الأمر بتفاصيله للقائد الذي أنصت له بتركيز شديد، وعندما فرغ إمحوتب من الحديث، ضيق إيورخي عينيه وقال: «لا أنكر أنني متلهف للقتال، وأن مر افقتكما في أمر مثل هذا لهو شيء يروقني، ولكن...».

صمت ايورخي، ففهم إمحوتب أن شيئا ما يدور في ذهنه يخشى أن يبوح به، فتحدث إليه مرة أخرى بصوت الإله، قال: «لا شيء لتخفيه، قل ما عندك».

قال إيورخي: «إنني عضو في مجلس الإله مذ توليت قيادة الجيوش، وعلى الرغم أنني لست من دماء ملكية إلا أنني حظيت بمكانة لم يسبق لأحد من قبلي أن حظي بها، لذا توجب على أن أكون واضحا وصريحا على قدر هذه المسؤولية»، ثم وجه بصره إلى الإله رع وأضاف: «جلالة الإله، مر افقتكم لي فيها خطر كبير عليكم، إن شمشي وجيوشه ليسو مجرد رعاه، إنهم يملكون جيشا كبيرا وسحرة ذائعي الصيت»، ورفع إصبعه منددا ومحذرا: «غير أنهم يتحصنون في نينوي».

سأله حنكليس: «وماذا في نينوي؟».

التفت إليه إيورخي وضيق عينيه مجددا وقال شارحا بصوت ارتفع قليلا عما كان يتحدث به من قبل وهو يشير بأصابع يده التي أخذت هيئة مخالب: «نينوى... مأوى الأسود، مدينة الدماء، لا تفارقها الفرائس، لا ينقطع فيها صوت السياط وصوت قعقعة البكر، خيلها تخب ومركباتها تثب، فرسانها آلفوا لهب السيف وبريق الرمح، ما دخلها جيش إلا وأضحى كومة من الجيف». ومر بعينيه يتطلع في وجوه الجميع واحدا تلو آخر وأضاف: «لن يكون الأمر سهلا كما يُخَيل للبعض، فدعوني أذهب بدلا منكم».

قاطعه إمحوتب بيأس: «الفتاة لن تبرح مكانها إلا برفقة الإله، ونحن لن نتركه بمفرده أيا كان ما ينتظرنا وراء النهرين».

تدخل خا إم ويست مضيفا: «بيد أنك في حاجتنا لمواجهة سحرة شمشي».

قال إيورخي: «إذًا، فليكن أمر الفتاة سريا، ولا يخرج من بيننا، أخشى أن يتناقل الجنود الحديث فيما بينهم بطريقة تقلل من همتهم».

سأله حنكليس: «كم من جنود الجيش ستر افقنا؟ ألف! اثنين! أم أنها ثلاثة!»، أجاب إيورخي وقد ضيق عينيه: «مئة فقط»، وردد حنكليس من ورائه محتدا وقد ظهر ذلك في ملامح وجهه: «مئة فقط!». فقال إورخي: «نعم... مئة فقط، وليسوا من جنودنا، بل من شعوب الشردانا».

التفت الإله رع إلى إيورخي ناظرا إليه بإمعان شديد راغبا في فهم ما يدور في خلده ومستغربا اختياره جنود الشردانا، إذ أنهم قبائل سكنت أعالي البحار، وشاركوا في غزو كيميت سابقا، إلا أن إيورخي استطاع هزيمتهم وضمهم لصفوف جيوش الإله.

ابتسم إمحوتب وقال مفسرا: «مقاتلي الشردانا، أنحف وأخف وأسرع، مما يجعل الخصم يقلل من شأنهم، إلا أن رشاقتهم العالية وكفاءتهم البدنية تجعل مقاتلا واحد منهم بالعشرات من أي جيش آخر».

بادله إيورخي ذات الابتسامة وهو يقول: «بيد أن العدد القليل سيجعل الأمر يبدو عاديا للغاية، لن يلفت انتباه قادة جيوش شمشي».

قال إمحوتب موجها حديثه للقائد ايورخي: «حدد للزفاف أن يكون ليلة اكتمال القمر القادمة، أي بعد ثلاث أسابيع من الآن، لذا علينا جميعا أن نتحرك بأسرع ما في المستطاع».

تدخل الإله رع موجها حديثه إلى إمحوتب: «لديك تفويض كامل وسلطة بإجراء أي ترتيبات ضرورية». واعتلت تكشيرة وجه حنكليس عندما سمع هذا، واستغرق لحظات ليستوعب كلمات الإله، لكن عندما جاء الفهم أخيرا غادر الظلام عينيه وقال بإبتسامة مصطنعة وهو يوميء برأسه: «إمحوتب يستحق هذا».

اعتدل إمحوتب في جلسته وقال بامتنان شديد: «فليكن يا جلالة الإله». والتفت للقائد إيورخي وأضاف بنبرة تحثه على الإسراع في تجهيزاته: «دعني أذكرك بأن الطريق إلى ما بين النهرين شاق وطويل، ووقتنا قصير».

نهض إيورخي برشاقة تامة وقال وهو يتحرك: «سأكون عليه ومن خلفي جنود الشردانا قبل مطلع فجر الليلة القادمة، و أنا على ثقة بأننا جميعا سنعود سالمين مصطحبين الفتاة».

❁❁❁

11

لثلاث أسابيع كاملة، مشينا في موكبنا قاطعين الطريق في اتجاه الشرق بلا توقف إلا قليلا، خمسون عجلة حربية مصنوعة من الصلب، كل واحدة منها حملت اثنين من أمهر جنود الشردانا، كل واحد منهم مدجج بالسلاح على أكمل وجه، سيف ورمح وخنجر وصدرية و اقية، جميعها أسلحة فولاذية مصنوعة في قلعة.

تتقدمهم ثلاث عجلات حربية مصنوعة من الفولاذ، اثنتان منهما حملتني وبقية الكهنة، والثالثة حملت إله الأرض برفقة قائد الجيوش إيورخي.

في خمسة أيام، مررنا عبر متاهات الصخور الشمالية فيما بين البحرين، وفي عشرة أخر عبرنا الأراضي الباردة فيما بعدها وأخيرا بعد خمسة أيام إضافية اجتزنا مدينتي نمرود وخورسباد، ثم لاحت في الأفق مدينة نينوي المعروفة بسيدة الممالك، لاحت أسوارها المزدوجة الضخمة والخندق المائي المحيط بها؛ اللذان صنعا منها مدينة حصينة يصعب اقتحامها.

لدى اقترابهم أكثر بدت لهم هياكلها المهيبة وجنائنها المعلقة ومعابدها الهرمية وقصورها شاهقة الارتفاع.

في الساحات المحيطة بقصر الإله شمشي، كان هواء الصبح ملبدا بالدخان المتصاعد من نيران الطهي المنتشرة في كل مكان، إذ جلس أربعة آلاف مقاتل ممن أُسنِدت إليهم مهمة حماية القصر ليلة الزفاف ليتناولوا طعام الإفطار تحت رايات قائدهم دافوسي.

كان يسمح لكل مدعو بالدخول إلى القصر الإلهي برفقة كهنته ومئة فقط من الحراس، وهو ما علم به إيورخي مسبقا إذ اتضح أنها مراسم متعارف ومعتاد عليها في مملكة آشور وبخاصة الإله شمشي، وما دفعه لاختيار مئة من أفضل مقاتلي الشردانا.

أمام بوابات القصر الخارجية، أسفل الأسوار شاهقة الارتفاع، شديدة الحراسة، المزدحمة بحاملي النشابات، توقفنا لدقائق معدودة في انتظار فتح البوابات وتمهيد الطريق.

استغل إمحوتب دقائق الانتظار وتجول يتطلع في الساحات المحيطة بالقصر، لاحظ أن موكبنا هو الأقل عددا على الإطلاق مقارنة بمواكب كثيرة أتت لحضور حفل الزفاف، إلا أن أكثر المواكب عددا والذي لفت انتباهه كان موكب الملك حمورابي إله بابل و أقاليم مجاورة لها، والذي أتى برفقة ما يقرب من خمسة آلاف مقاتل جميعهم من جنود أكاديا، شباب فارع القامة قوي البنية، لهم صيت ذائع في استخدام السياط الطويلة لتشتيت العدو ثم طعنه في العنق بالرماح الطويلة.

عُرِفوا لدى الممالك المجاورة بأنهم آلة حرب وحشية تعتمد سياسة بث الرعب في قلوب خصومهم.

في آخر معركة خاضوها لحماية مدينتهم، قام الملك حمورابي ببناء عدة أبراج عند بوابة قلعته، أطلق عليها برج الألم، وبرج الأرامل، وبرج الصراخ، وبرج اللصوص، وبرج محرقة الإله، وسلخ جلد كل الزعماء الذين تمردوا ضده وكسى الأبراج بجلودهم، سجن البعض داخل برج، ووضع البعض الآخر على خوازيق حول برج، كما بتر أطراف الضباط، وأحرق جميع الأسرى أمام برج.

أمعن إمحوتب النظر فيهم وما يملكونه من معدات، وكان عالما أن خلافا شديدا قد نشب بين الملك شمشي إله آشور والملك حمورابي إله بابل قبل عدة شهور عندما طلب الأخير إمدادات عسكرية ولم يجد إجابة، فغضب بشدة وأسر غضبه في نفسه لظروف الحرب التي كان يخوضها، بيد أن شمشي أدرك خطأه لاحقا فأرسل إليه هدية مكونة من ثلاثين وزنة ذهب، وثمانمئة وزنة من الفضة، مضافا إليها أحجار كريمة، وكل أنواع كنوز مملكة آشور النفيسة، إلا أن حمورابي أعاد الهدية مع الحراس رافضا إياها في ذلك الوقت.

وعلى الرغم أن العلاقات بين المملكتين ظلت قائمة، إلا أن إمحوتب أيقن في نفسه أن هذه الموكب المكون من خمسة آلاف مقاتل من الأكاديين لم يأت لحماية ملكهم فقط، إنما لتصفية حسابات قديمة.

لدى عودته وانضمامه إلى صفوف الموكب المنتظر أمام بوابات قصر الملك شمشي المزدوجة، كنت إلى جوار عجلة الإله الحربية بمرافقة خا إم ويست وحنكليس عندما اقترب إيورخي مترجلا في اللحظة التي عاد فيها إمحوتب وتطلع في وجوهنا بوجوم

قبل أن يهمس بثقة مفرطة قائلا: «إن نينوى ستنهب... أبوابها ستفتح لأعدائها وحراسها سيهربون الليلة».

باستغراب، انتبه الجميع لحديث إمحوتب، الذي أضاف: «ستغرق في الدماء، ستصبح قفرا».

اقترب ضابط ممن يحرسون البوابات وقال: «يمكنكم العبور الآن».

وراء البوابات، لاحت أبراج مشيدة بالحجارة ذات ألوان زرقاء ورمادية وخضراء، معلق فوقها وفيما بينها ستائر حريرية مشرطة بها خيوط من ذهب وفضة تحمل ذات الألوان، وعلى الأبراج وحولها وقف الفرسان مرتدين دروعهم متأهبين لأي شيء طارئ.

في كل زاوية يمكنك أن ترى أسدا مفترسا مقيدا بالسلاسل وإلى جواره حارس مسؤول عن خدمته، كما أن تماثيل الأسود بحجمها الحقيقي منتشرة في الأنحاء.

في الممرات المفضية إلى ساحة القصر الإلهي الرئيسية والتي سيقام عليها حفل الزفاف انتشرت الفتيات الجميلات تحملن الورود، وإلى جوار كل واحدة منهن مائدة مُلِئت كلها بالفواكة وعصائر التفاح والمانجو وقوارير النبيذ العتيقة.

عند بوابة القصر الإلهي الداخلية، ترجل الإله رع نحو القصر حيث وقف الملك شمشي وسحرته يستقبلونه بحفاوة شديدة، وترجلت من خلفه برفقة خاإم ويست وحنكليس، بينما تأخر إمحوتب بضع خطوات متثاقلة وهو يتأمل الغيوم المتراكمة في

السماء ويتطلع في الأشجار وتأثير حركة الهواء عليها بعدما اشتدت الرياح بشكل ملحوظ عما كانت عليه قبل ساعات.

تباطأت لأجله، عندما لحق بي همس بنبرة صوت أوحت إلي أنه ممتن قال: «أي سوء حظ ينتظرك يا شمشي!»، نظرت إليه ولم أفهم ما يعنيه، فأضاف: «ثمة عاصفة شديدة على وشك أن تضرب المدينة، ستكون هناك اضطرابات في الأجواء يصاحبها رعد وبرق وأمطار غزيرة قبل حلول المساء».

كان القائد إيورخي قد استغل استراحات الطريق المتقطعة ودقائق التوقف أمام بوابات القصر في وضع وتوضيح خطته مسبقا مع جنود الشردانا، والتأكيد على أدوار كل مجموعة منهم، إذ طلب منهم الانتباه طوال الوقت، والتواجد قرب بوابة القصر الداخلية القريبة من قاعة عرش شمشي الرئيسية، وأكد عليهم بعدم التحدث إلى أي شخص من الغرباء، أما إمحوتب فقد جمع معلومات كثيرة عن طبيعة القصر وممراته، بيد أنه كان واقفا يتبادل أطراف الحديث مع بعض كهنة نينوي وآخرين من مملكة بابل عندما خرج أحد الأشخاص من واحدة من بوابات القاعة ولاحظ تمجيد الحراس له بشكل مفرط.

اقترب من أحد الحراس وابتسم في وجهه وهو يعطيه جعرانا ذهبيا على سبيل المحبة، عند رفض الحارس أخذ الهدية قال إمحوتب: «لقد أحضرنا المئات من كيميت كهدايا، كثير من الحراس حصلوا عليها».

فأخذ الحارس الجعران ونظر إليه بحفاوة شديدة.

في هذه اللحظة استغل إمحوتب انبهار الحارس وتشتت ذهنه وسأله عن الرجل.

أخبره الحارس أنه ماحنتوش الرجل الأكثر علما بالقصر الإلهي وخرائط وكنوز نينيوي، فهو حامل أسرار الملك والمملكة وأشار إلى الغرفة الذي خرج منها قائلا: «إنها الغرفة الأهم في القصر بأكمله، غرفة ماحنتوش».

هز إمحوتب رأسه للحارس وتراجع خطوات مبتعدا عنه قبل أن يتخفى وسط الحشود، ثم تسلل ببطء شديد مستغلا خفته وجسده الضئيل حتى وصل إلى غرفة ماحنتوش وفي غفلة من الحراس، دفع بابها ودلف إليها في لمح البصر.

كانت الغرفة شاسعة المساحة، بها مكتبة عظيمة لم يسبق لأحد أن رأى أوسمع عن وجود مثلها، تتوسطها مائدة خشبية عملاقة رصت عليها عشرات الكتب موغلة القدم، وبعض لفائف الورق بدت من الوهلة الأولى أنها خرائط.

تتوسط المائدة بعض الشموع داخل قناديل زجاجية تضيء المكان وكأنه نهار، فتنقل بعينيه بين رفوف الكتب ولفائف الورق، حتى سقطت عيناه على رف فيه خرائط نينوي القديمة، أسفله رف آخر أُشِيرله بخرائط نينوي الحديثة.

مد يده، أمسك بواحدة بعد واحدة بعد واحدة، وبدا أنه يبحث عن شيء ما بعينه ولم يجده، إلا أنه أخيرا تهللت ملامحه بعدما فتح واحدة بعينها.

التف مبتعدا عن رف الخرائط فوقعت عيناه على كتاب موغل القدم، كُتِب عليه أسرار السحرة وغابة الموتى، فأمسك بالكتاب في اللحظة ذاتها التي سمع فيها صوت خطوات تقترب من باب الغرفة.

انتفض مهرولا بحرص شديد وتوارى خلف الباب.

دلف ماحنتوش إلى الغرفة، وفي اللحظة التي وطئت قدماه أرضيتها شعر أن شيئا ما على غير ما يرام، فتوقف بمنتصف الغرفة وأخذ يتفقد الكتب عليها ولاحظ أن خريطة بعينها في غير مكانها، وقبل أن يلتفت للخلف صاحت امرأة في الخارج بصوت عال للغاية، شقت صرختها عنان السماء، فهرع نحو النافذة ونظر منها، كان أحد الحراس ممن يعلقون الزينة فوق أبراج ساحة القصر قد سقط أرضا وأُصِيب، فصرخت المرأة لرؤيته يسقط إلى جوارها.

استغل إمحوتب انشغال ماحنتوش وغادر الغرفة بهدوء شديد للغاية وعاد إلى قاعة العرش مرة أخرى واندس وسط الوفود والزحام.

وقت الأصيل، امتلأت ساحات القصر الخارجية بالزوار العاديين والحراس، وامتلأت قاعة عرش الملك شمشي بالملوك والكهنة والسحرة، ورافق ذلك أصوات احتفالات صاخبة، فدقات الطبول والأبواق لم تتوقف منذ الصباح.

في الوقت ذاته اشتدت الرياح وصاحبتها أتربة ورمال، وبدت في وجه إمحوتب نظرات امتنان للآلهة عندما دوى صوت الرعد وتردد البرق في السماء، والتفت من فوره وهم بالتحرك صوب القائد إيورخي

الذي كان و اقفا قرب مقعد الإله رع، ولثوان معدودات تبادلا أطراف الحديث فيما بينهما بالهمس، اكتفى إيورخي بهز رأسه طوال الوقت مو افقا على ما يمليه عليه إمحوتب، وعند نهاية الحديث ترجل وسط الزحام قاصدا دافوسي كبير حراس الملك شمشي وقائد جيوشه الذي كان يقف على مسافة قريبة من العرش.

عبر له عن رغبة الإله رع في لقاء الأميرة سيمورامات لمباركتها وإعطائها هدية نفيسة جلبها لأجلها من كيميت، فهز الحارس رأسه بامتنان وقد لاحت في ملامحه نظرات أوحت أنه مقتنع بما سمعه، ودنا من سيده شمشي وهمس له بما لديه.

تطلع إيورخي الو اقف على مسافة قريبة من العرش في وجه الملك شمشي وحارسه دافوسي وكذلك فعل إمحوتب الو اقف بعيدا، واستشف الاثنان من تغير قسمات وجه الملك أنه مرحب بما اقترح عليه بصدر رحب.

لدى عودة الحارس وإخبار إيورخي بمو افقة الملك على طلبه، ترجل الأخير صوب إمحوتب بخطوات هادئة و ابتسامة صغيرة زينت وجهه وهو يقول بكياسة: «لك ما أردت».

رد إمحوتب: «أخبر الشردانا أن يتأهبوا». والتفت القائد بوجهه صوب بو ابة قاعة العرش، وكان اثنان من حراس الشردانا قد وقفا أمام البو ابة مباشرة منتبهين له، أعينهما مسلطة عليه، و أينما ذهب ترقباه. فنظر إليهما ومال برأسه نحو كتفه الأيمن قليلا، هز الحارسان رأسيهما ببطء، وتأكد من فوره أنهما قد فهما رسالته عندما غادرا للخارج بغية جمع بقية الحراس.

لثلاث أسابيع شاهدت سيمورامات الإله رع في رؤياها يحضر برفقة كهنته لينقذوها، رأتهم كل يوم حتى أنها ألفت ملامحهم، وكأنهم أشخاص رافقوها طوال حياتها مما بث في قلبها طمأنينة لوقت ليس بقصير، إلا أنها في تلك اللحظة كانت شاعرة بالضياع والإرهاق المشوب بالقلق والخوف، بخاصة عندما سلمت نفسها للخادمات، وجلست بين أيديهن يزينوها، فألبسنها فستانا مصنوعا من الحرير الموشى بالذهب والفضة وغطين رقبتها بالجواهر.

كانت تضرع للسماء أن تبث شجاعتها في قلبها، وأن تقي ما لديها من براءة وهمست تدعو بيقين لم تعرف مصدره طالبة العدالة لروحها، والقوة للسعي إليها والحكمة للتعرف عليها، وأخيرا التفتت إلى الخادمة ريانة الجسد أم الرضيع التي غالبا ما تقف إلى جوارها تساعدها وتواسيها وكأنها مصباح بعثته السماء ليضيء إليها عتمة أوقاتها، ودعتها بنبرة واهنة وعين ترقرق منها الدمع قائلة: «أرشديني يا سيدتي، أريني الدرب الذي علي أن أقطعه، لا تدعيني أتعثر فيما ينتظرني من ظلام».

وفي تلك اللحظة سمعت وقع أقدام من ورائها وجلبة عند الباب.

التفتت، ففتح القائد إيورخي باب الغرفة ودلف منه مباشرة ومن خلفه الإله رع ونحن نتبعهما، قال إيورخي موجها حديثه للخادمات بنبرة حاسمة: «كلكن يبقى في مكانه، لتكن آمنات».

بينما قال إمحوتب موجها حديثه للفتاة برفق شديد: «سيدتي، أستميحك العذر، لكن وقتنا هنا انتهى، ويجب أن نغادر القصر على الفور، والمدينة قبل مطلع الفجر».

نهضت سيمورامات بأطراف متيبسة، وآلمتها ركبتاها بشدة من كثرة الجلوس والنوم بالفراش والحزن الذي تملكها طيلة الأيام الماضية، ولم يكن هذا بالشيء الغريب، هكذا يفعل الحزن في الإنسان المهزوم نفسيا ولو كان حبيس قصر من الجواهر، أو حتى فراش من صنع الآلهة.

كانت تتألم فعليا حتى إنها كانت لتدفع ثمنا غاليا مقابل أن تحظى بفراش من الريش ووسادة لتستريح عليها دقائق قليلة بعدما أيقنت أنها باتت آمنة، لكنها قالت موجهة حديثها بشكل خاص للإله رع: «أشكرك»، وأضافت لنا بشكل عام: «أشكركم جميعا، وأنا مستعدة».

في اللحظة ذاتها التي أتمت بها قولها سمع صوت جلبة شديدة قادمة من أمام ساحات القصر، وارتعدت الخادمات أكثر، ووقفن خلف بعضهن البعض في ركن ضيق من الغرفة، بينما دنا إمحوتب من نافذة الغرفة وأطل برأسه خارجا، وعندما أعاد رأسه للداخل قال بجدية: «إنهم الأكاديون... جنود حمورابي اقتحموا ساحة القصر الإلهي ليستولوا عليه، ثم يستولون على المدينة».

دلفت من باب الغرفة خادمة شابة، على وجهها نظرات هلع وخوف شديد، وقالت وهي ترتعد: «الأكاديون اقتحموا القصر». فانتفضت الخادمة ريانة الجسد وهبت صوب الخادمة الشابة اختطفت رضيعها من بين يديها.

قال إيورخي: «الآن يأتي الشردانا، علينا أن نجد طريقا آمنا نسلكه للخروج من القصر».

قال حنكليس: «فلنتوجه صوب البوابات مباشرة بينما هم منشغلون في قتال بعضهم البعض و...».

قاطعه إمحوتب بنبرة صوت حاسمة غير قابلة للجدال، قال: «لن نقترب من البوابات الرئيسية، ولن نعبر شوارع المدينة، نينوي بأكملها ستحترق، ولا يمكن أن يكون سنحاريب قد أتى بخمسة الآف من جيشه فقط».

سألته: «ألديك خطة أخرى؟»، وكرر حنكليس ذات السؤال من بعدي: «نعم... ألديك خطة أخرى؟»، فقال وهو يلتف ليخرج من باب الغرفة: «اتبعوني».

ارتفع صوت صليل السيوف والفؤوس بالخارج، بدا الأمر وكأن عشرة جيوش تتقاتل، كما أن رائحة دخان انتشرت في كل مكان مما يؤكد أن حرائق اشتعلت في القصر والأبراج المحيطة.

ارتعدت الخادمات من شدة الخوف، إلا أن الخوف بدا واضحا كضوء الشمس في ملامح الخادمة ريانة الجسد والتي كانت خائفة ليس على نفسها بقدر خوفها على طفلتها الرضيعة.

تنقلت سيمورامات بعينيها بيننا ونحن نبتعد وبين الخادمات الواقفات خائفات من خلفها قبل أن تعود بخطى متسارعة صوب الخادمة ريانة الجسد وهي تخرج السوار من بين طيات ملابسها وتضعه في معصمها.

وقفت أمامها مباشرة تكاد تلتصق بها، وتطلعت في عينيها وقد ترقرقت دموعها كالسيل على خديها، إذ كانت شاعرة تجاهها

بالعرفان كونها هونت عليها وساعدتها طوال الأيام التي كانت فيها حبيسة القصر، ورأت أن عليها أن ترد لها ما فعلته، فمسدت براحة يدها على ثدي الخادمة وهي تقول: «بيليجيريرو»، فخرجت طاقة تعويذة الشفاء من راحة يدها واستقرت في ثدي المرأة الذي عاد نابضا بالحياة مرة أخرى.

ثم أضافت بصوت متهدج من أثر الاختناق بالدموع: «الآن يمكن للصغيرة أن تحصل على الطعام الوفير».

تفاجأت بيد إمحوتب تقبض على معصمها بعدما عاد ليصطحبها وهو يقول: «لا وقت لدينا».

فقالت وهي تقاوم يده: « أريدهن معي!!».

محتدا علق إيورخي الذي عاد هو الآخر خلف إمحوتب: «سيبطئن من حركتنا». فقالت الفتاة: «قلبي سينزف كثيرا إن تركناهن».

هازا رأسه في يأس قال إيورخي: «النساء هن النساء!»، ثم أضاف موجها حديثه للخادمات وقد ضيق عينيه ورفع لهن سبابته: «أريدكن أسرع من أسرع واحد بيننا».

كان جنود الشردانا المئة أول من اقتحموا قاعة العرش الرئيسية في تشكيل قتالي منظم، إلا أنهم لم يشتبكوا في قتال مع جنود الملك شمشي، إنما صعدوا مباشرة على سلالم تفضي بهم إلى الطابق الثاني من القصر بعدما قتلوا اثنين أو ثلاثة على الأكثر ممن اعترضوا طريقهم، في الوقت ذاته حاول حراس الملك شمشي أخذه بعيدا عن القاعة وساحة القتال بعدما انقض الأكاديون عليها.

وبينما انشغل الجيشان بقتال بعضهما انشغلت الوفود الملكية ممن حضروا للقصر بحماية أنفسهم، و انشغل حراس الملك شمشي بالحفاظ على حياته وحياة سحرته وحاشيته.

في الوقت ذاته، كان إمحوتب ممسكا بالخريطة التي حصل عليها من مكتبة حارس القصر الإلهي وأخذ يقودنا عبر جدران القصر العتيقة، فعبرنا من الرواق الخلفي للقصر، ومر عبر الأسوار الوسطى والداخلية التي تحرسها فئة من أفضل حراس شمشي وتستقر فيها البو ابات الحديدية السوداء، إلا أن جميع الحراس كانوا قد غادروا أماكنهم وتحركوا صوب البو ابات الأمامية لقتال الأكاديين، عندئذ عبرنا الساحة الكبيرة المحاطة بأسوار شاهقة الارتفاع ومليئة بالأسود إلا أنها كانت مقيدة، وأخيرا عبرنا من البو ابة الخلفية لقصر الإله، والتي أفضت بنا إلى غابة الموتى الملعونة والتي تُعَد مقابر لأعداء آشور منذ زمن قديم.

ما إن وطئت أقدامنا أرض الغابة، انتصبت شعيرات جسد كل واحد منا.

وقف خا إم ويست يتطلع في االأشجار والسواد الحالك الذي يخيم على المكان وقال مرتابا: «ثمة طاقة سلبية ليس لها آخر في هذا المكان»، أضاف حنكليس: «أرض مخيفة، غير أي أرض عرفناها أو سمعنا بها من قبل».

كانا الاثنان محقان فيما تفوهت به ألسنتهم، فغابة الموتى الملعونة مكان بدائي ومظلم، بل إنه حالك السواد طوال الوقت، مقام على مساحة لا تقل عن خمسمئة فدان من الغابة القديمة التي

لم تُمس منذ عشرة آلاف عام، مع ارتفاع الأسوار الطبيعية العابثة من حولها، تفوح فيها رائحة التربة الرطبة والعفن، ولا تنمو فيها أشجار مثمرة.

هذه الغابة كانت حافلة بأشجار الدردار، وأشجار البلوط العملاقة، كما انتشرت أشجار فزاعات الموتى بلونها الأسود والقديمة قدم هذه الأرض ذاتها التي تحميها أوراقها المدببة الحادة ذات اللونين الرمادي والأسود.

كانت الجذوع السوداء الغليظة تتزاحم معا، بينما تنسج الفروع الملتوية مظلة سميكة فوق الرؤوس، وتتصارع الجذور المشوهة فيما بينها تحت أديم التربة.

قرأ إمحوتب في كتاب معه أن هذا مكان للصمت التام والظلال الكئيبة، والسحر والجن وأنواع مختلفة من الخفافيش والثعابين والعقارب الذين يعيشون فيه بلا اسم أو انتماء، لكنه كان يعلم أيضا أنها ليلة مكتملة القمر، كما أن ألف نجمة ونجمة ستسطع في السماء قريبا لتنير لهم دربهم.

مع حلول الليل توقفت الأمطار، وهدأت الرياح في اللحظة التي اختفى فيها آخر ضوء لقنديل معلق في أسوار قصر الملك شمشي وتلاشى فيها صوت صليل الفؤوس والسيوف، وخاب ظن إمحوتب في الحصول على ضوء السماء إذ توارت النجوم والقمر وراء السحب السوداء وساد سكون مريب ومخيف في الأنحاء، فأحاط جنود الشردانا المئة بالإله رع وكهنته الأربعة ومن خلفنا كانت الأميرة والخادمات.

كنا جميعا نهرول جريا للأمام خلف أحد جنود الشردانا ممن لديه خبرة بكيفية التجول في الغابات وكان خلفه مباشرة إمحوتب بخريطته الجلدية، يمعن النظر فيها تحت ضوء لهيب المشاعل التي يحملها الجنود، يحاول توجيه الجندي المستكشف تارة ومساعدته تارة أخرى.

توقفنا عند منتصف الليل، شاعرين بالإرهاق والإعياء الشديد، إتكأ كل واحد منا على جذع شجرة، بعضنا جلس أرضا بعدما افترش درعا أو اتخذ جذع شجرة كمقعد له.

كانت الأرض أسفل أقدامنا ما تزال مبللة وندفات المطر التي كانت مخزنة فوق أوراق الأشجار ما تزال تتساقط علينا كلما اهتزت الأغصان بفعل الريح.

تقدم إيورخي ير افقه إمحوتب للأمام مسافة خمسين مترا بعدما أخذا مشعلا من أحد الحراس، تحدثا عما يحدث في قصر شمشي وإن كان هناك من سيأتي من خلفهم أو لا.

قال إمحوتب وهو يسحب كتابا من بين طيات ملابسه ويشير به وقد بدا عليه أنه كتاب موغل القدم: «الآشوريون لا يدخلون غابة الموتى، لديهم يقين تام أن من يدخلها لا يخرج أبدا»، نظر له إيورخي بركن عينه مستغربا كاد يسأله: «ماذا تعني؟».

فأضاف إمحوتب: «شمشي سوف ينجو، فلا أحد يُهزَم في بيته بسهولة... إلا أنه لن يطاردنا في غابة الموتى، إنما سينتظرنا على الجانب الآخر».

بدا على وجه إيورخي أن هذه الإجابة لم تكن ما ينتظره، وأنه ما يزال ينتظر إجابة أخرى، فأضاف إمحوتب: «هذه الأرض ملعونة بالفعل، إن صدق هذا الكتاب فنحن في أرض الشيطان هيدياك وشقيقه نازيئيل، والمشاعل المضيئة في أيدينا سوف تجلب علينا اللعنات قريبا».

كنت أدنو في اللحظة التي أنهى فيها إمحوتب جملته، وكان لدي علم بما تفوه به، فقلت: «هيدياك، سيد طيور الجحيم، ما انقضت على مخلوق حي إلا واختطفته للسماء وتناوبوا تمزيقه في الجو قبل أن يسقط ما تبقى من عظامه»، التفت إيورخي وقد بدأ شيء من القلق المشوب بالاستغراب في وجهه، ولم يمهله إمحوتب وقتا ليسأل عما يستغربه، إذ قال: «أما نازيئيل، فهو سيد كلاب الجحيم، كلاب سوداء اللون حمراء العينين لها حضور شبحي ورائحة كريهة».

انفعل إيورخي وهو يقول: «شش... شش... توقفا»، وأخذ يكرر ما قاله إمحوتب: «حضور شبحي... عينان حمراوتان... ورائحة كريهة!»... رد إمحوتب مستغربا: «نعم!!».

أمعن إيورخي النظر في السواد الحالك بين الأشجار وقال: «لقد خُيِّل لي طوال الطريق أن كلابا سوداء لها عيون حمراء تتسابق حولنا»، وسمعا ثلاثتهم وقع أقدام قادما من خلفهم، وقبل أن يلتفتا قالت سيمورامات التي دنت منهم: «لم يُخَّيل لك، بل هي حقيقة».

سألتها: «هل رأيت شيئا لم نره؟»، أجابت: «لا، إنما يمكنني قراءة الريح» فعلق إيورخي مستغربا: «قراءة الريح!»، قالت: «نعم»...

سألها إمحوتب: «أيا كان ما تقولينه، هل بإمكانك التأكد يقينا إن كنا وحدنا في هذا المكان أم أن هناك كائنات أخرى؟»، فأغمضت سيمورامات عينيها، وبدأت تلتفت يمينا ويسارا ببطء شديد تقرأ الريح، ثم قالت: «كلاب على الأرض، وحيوانات أخرى تشبهها، وغدفان كثيرة تطير فوقهم».

سألها حنكليس: «هل هناك شيء آخر؟»، ظلت سيمورامات مغمضة العينين وهي تجاوب: «خيل ورجال وأسود يعبرون النهر على حافة الغابة».

قلت: «ربما يتبعون النهر إلى واد آخر فقط».

قال إمحوتب: «لا... إنهم رجال شمشي سبقونا للجهة الأخرى من الغابة»، وأضاف وهو ينظر إلى سيمورامات يسألها: «هل يمكنك التنبأ بنوایاهم؟»، أجابت: «أشعر بنوایا وحشية في الجو... وحشية ووشيكة».

سألها حنكليس في توتر بدا في وجهه الذي أخذ يتصبب منه العرق: «هل يمكنك التنبأ بعددهم!»، فردت: «قطيع كامل من الكلاب ومئات من الغدفان تطير فوقها، على الجانب الآخر عشرات الخيول وعديد من الرجال يمشون ربما أكثر من ألفين، اصطحب بعضهم الأسود». فقال إمحوتب: «إنه جيش كامل وليست سرية، إنهم جنود شمشي».

التفت إيورخي ومشى عائدا في اتجاه الإله رع وخا إم ويست الذي وقف بجانبه، وقف أمامهما لثوان معدودة قبل أن يلتفت إلى جنود

الشردانا ويقول بصوت جهوري: «الشردانا، نحن هنا غرباء، لكننا لسنا ضعفاء، وسوف نعود إلى وطننا، نحن واحد ونقاتل كرجل واحد... استعدوا للمعركة».

أنهى إيورخي حديثه في اللحظة التي سمع فيها صوت جلبة قادم من بين الأشجار تبعها صوت صراخ أحد جنوده وقد انقض عليه أحد كلاب الجحيم المسعورة، وأخذ يسحبه بين الأشجار بمساعدة كلاب أخرى بدأوا ينهشون في جسده ويمزقونه.

وبينما تهيأ الجميع للمعركة وأخذوا وضعية القتال انقض غداف في حجم نسر كبير على جندي آخر، قبض بمخالبه الحادة على رأس الجندي وحاول الطيران به، إلا أنه لم يستطع إذ تشبث جنديان قريبان في أقدام الجندي، لكن ذلك لم يدم إلا لثوان معدودة، فقبل أن تتدخل بقية جنود الشردانا لمساعدة بعضهم حضرت فوقهم مجموعة كبيرة من الغدفان، وصاحب ذلك وصول قطيع كامل من كلاب الجحيم.

ترك الجنديان أقدام الجندي وأخذا يدافعان عن أنفسهما ضد كلاب الجحيم على الأرض والغدفان العملاقة التي تأتي من الأعلى بين الأشجار.

في الدقائق الأولى من المعركة فُقِد ما يقرب من عشرة جنود من الشردانا، فيما تدخل خا إم ويست وحنكليس وصاحا سويا: «ستيناريمورا»، فصنعوا جدارا سحريا أحال بينهم وبين كلاب الجحيم التي تسارعت في القفز في الجدر والارتطام به في محاولة منهم لعبورة، إلا أن هذا لم يفلح مع الغدفان التي تزايدت فوقهم وأصبح عددها

بالعشرات، فبكت الخادمات بشدة ودخلن في حالة هلع شديد، بينما وقفت وإمحوتب جنبا إلى جنب أمام الملك الإله رع ومن خلفه الأميرة سيموراما تحاول حمايتهم.

كنت أشاهد الغدفان وهي تهبط عمودية من السماء فوق جنود الشردانا فتقتل من تقتل وتصيب من تصيب، وفي يأس نظرت إلى إمحوتب متسائلا إن كان لديه حل بديل أو خطة.

في تلك اللحظة، خرجت الأميرة سيموراما من خلف الإله رع وهي تضع راحة يدها على السوار في معصم اليد الأخرى وأخذت تشير بيدها نحو الغدفان وهي تلقي بكلمة لم أفهمها، بدت لي أنها تعويذة سحرية وهو ما كان.

قالت وهي تشير على أحد الغدفان وكان عملاقا له مخالب لم نر مثلها من قبل ويقاتله ما يقرب من خمسة جنود من الشردانا: «سيكتوسيمبرا»، انطلقت طاقة زرقاء اللون من يدها وإذا بالغداف يحترق ويسقط أرضا ويتحول إلى أشلاء تتناثر مع دمائه فوق الجنود وحولهم.

انتبه الجميع لما حدث وفتح كل واحد منا فاهه غير مصدق ما فعلته الفتاة، و انتبه الجميع أكثر عندما رددت سيموراما تعويذتها وهي تشير على كل طائر تسقط عينها عليه فتسقطه أرضا وهو يحترق ويتمزق.

أخيرا انتبهت أن الطيور تتجنب الحراس ممن يحملون المشاعل، ففهمت من فورها أنهم يخشون النيران أو الأضواء المنبعثة منها،

فاستجمعت قوتها وأطلقت تعويذة النور قائلة: «لوموسيتاي»... فانطلقت من بين يديها أشعة شديدة الإضاءة جعلت المكان بأكمله يضيء وكأنه منتصف النهار وألف شمس ساطعة.

من فورها هربت الغدفان، اختفت تماما من فوقهم ومن بين الأشجار، كذلك هربت كلاب الجحيم هي الأخرى ولم يتبق منها أي واحد خلف الجدار السحري. ومع تلاشي الأضواء فقدت سيمورامات وعيها وسقطت أرضا.

قرب الفجر استعادت الأميرة وعيها لتجد نفسها نائمة على حمالة خشبية صنعها لها جنود الشردانا من أغصان الأشجار. بصمت حملتهم أقدامهم عبر منطقة غابية تميل أشجارها القليلة كالسكارى بعيدا عن النهر. فتفقدت ما حولها من أشجار وصاحت وهي تقفز من فوق حمالتها: «توقفوا، توقفوا...».

توقف الجميع في أماكنهم مستغربين، بينما هرولت للأمام مسافة عشرين مترا وتبعها إمحوتب وخا إم ويست مهرولين خلفها بينما بقيت وحنكليس إلى جوار الإله رع. ثم أغمضت عينيها وقالت: «أشعر بكراهية شديدة... ولكن صامتة... خيل تنخر، وتضرب ببر اثنها الحصى... خيل كثيرة... مختبئون وراء صوت النهر».

قال إمحوتب: «لا بد وأنهم ينتظرون خروجنا من غابة الموتى». فسأل خا إم ويست: «كيف علموا بأننا سنخرج من هذه النقطة تحديدا؟». رد إمحوتب وهو يمشي إلى أمام: «هذا المنحدر هو المخرج الوحيد من هذه الغابة ويفضي إلى ممر ضيق ينتهي بنا إلى جسر معلق فوق النهر نعبر منه إلى الضفة الأخرى.

هناك مسايل وأجراف على جميع الجوانب عدا هذا، لذلك رسم الأسلاف هذه الخريطة».

تسلل ببطء شديد حتى وقف خلف شجرة فزاعات الموتى؛ كانت عملاقة تقترب أغصانها من الأرض، وأخذ يتفقد الساحة القريبة خلف النهر، فسمع صهيل الخيول العصبي وصلصلة السلاح مع جنود شمشي، وقد تدرعت صفوف الرجال والجياد الطويلة بالظلام، على يمينها كانت رايات، وعلى شمالها رايات، ومن أمامها صفوف وصفوف من الرايات، لكن في ظلمة ما قبل الفجر لا يختلف لون عن لون أو رمز عن رمز.

رفع رفرسان شمشي المسربلين بالسواد رماحهم إلى أعلى بينما جلسوا على صهوات خيولهم ينتظرون خروجنا من بين الأشجار.

مرت سيمورامات من خلال مجموعة من الأشجار الطويلة العارية، مسلوبة الأوراق والحياة، ونظرت إلى جيش شمشي فرأت الظلام أعمق وأحلك، حائط من الأسود لا تلوح لمعة نجم واحد من خلاله، وإن رأت المشاعل تتحرك هنا وهناك خلف النهر في المرج حيث أقام قائد جيش الملك شمشي معسكره.

قال إيورخي الذي استطاع من نظرة واحدة تحديد عدد وعتاد جيش شمشي: «هذا وقت مناسب للموت، على الأقل يمكننا تكبيدهم خسائر كثيرة في هذا الظلام».

حالة من الصمت استحوذت على الجميع بعد كلمة الموت الذي أطلقها إيورخي، رافقتها حالة من القلق والتوتر خيمت على الأجواء.

دنا إمحوتب من سيمورامات ونظر إليها ممنيا نفسه لو أنها تملك حلا، أو أن السوار في يدها يمكنه فعل شيء يجنبهم هذه المعركة، فبادلته النظر بإمعان، وقالت: «يجب أن ننتظر، ليس طلوع الشمس فحسب... بل إلى وقت الأصيل».

كانت تعلم أن اليوم هو صباح يوم اكتمال القمر، مما يعني أن والدتها الحمامة الذهبية سوف تشق مياه النهر وتخرج وبالتأكيد سوف تساعدهم في الخروج من مأزقهم.

قبل أن ينير النهار، سأل حنكليس: «إن تجاوزنا هذه المعركة، كيف سنقطع كل هذا الطريق إلى كيميت وقد فقدنا الخيل والعجلات الحربية؟»، فأجاب إمحوتب بثقة: «من قال! بعد تجاوزنا المعركة سنحظى بكل ما تراه عيناك خلف هذا النهر».

مع سطوع الشمس على الساحة المواجهة لغابة الموتى، خلف النهر أمام المرج، وقف دافوسي قائد جيوش شمشي ظاهرا بوضوح وكأنه يقصد أن نراه.

رجل قوي، طبع نسبه الوضيع علا ملامحه الحادة بمنتهى الوضوح، لحيته قصيرة، يضع على كتفيه الشديدين معطفا أسود رثا وسخه القتال في قصر نينوي ورذاذ النهر والالتفاف حول غابة الموتى ولوحت الشمس لونه، ويرتدي من تحته سترة وسروالا بنيين كشعره وعينيه، وقد تدلى على صدره جراب من الجلد النادر معلق في شريط يحيط بعنقه، وغطى قفاز جلدي يده اليسرى المجدوعة في صراع قديم مع أسد مفترس من أسود نينوي.

انشغل جنود الشردانا بتنظيف ملابسهم وأسلحتهم على حافة جدول ماء صغير متفرع من النهر إلى داخل غابة الموتى، بينما جلس الإله رع جنبا إلى جنب مع سيمورامات، ومن حوله وقفت وبقية الكهنة نتبادل أطراف الحديث.

وحده إيورخي ظل قابعا متواريا خلف شجرة فزاعات الموتى منتبها يترقب دافوسي طوال ساعات، وظل الأخير و اقفا متأهبا خلف النهر عيناه على الغابة وكأنه ير انا أو أنه موقن تمام اليقين أننا متواجدون أمام عينيه وينتظر خروجنا.

مع اقتراب وقت الأصيل، ترجل إمحوتب نحوه ممسكا بقطع أسماك مجففة يعرضها عليه ليأكلها، إلا أنه تحدث له دون أن يلتف إذ بقيت عيناه معلقة على دافوسي وهو يقول: «هذا الرجل ليس سهلا، أو أنه يعرف أننا هنا».

رد إمحوتب: «يُقَال في نينوي لا أحد يملك نصف مهارة دافوسي ذي اليد المقطوعة، وقبل أن ينصبه الملك شمشي قائدا كان أشهر المهربين في ممالك آشور كلها وأكثرهم مراوغة وتضليلا، وله صبر ليس له مثيل». كان خا إم ويست يسمعهم وهو يقترب منهم فسألهم: «إذًا؟». فهز إيورخي رأسه وقال: «مئة ضد أربعة آلاف... ولا مفر من التقدم، وإذا تقدم هذا الحشد الصغير إلى ضفة النهر، فهو ذاهب إلى حتفه... إننا لا نملك أعدادا أو عتادا كافية».

تنهد إمحوتب وقال: «لقد فعلت كل ما في وسعك، والآن علينا أن نتقدم إلى الأمام أيا كان ما ينتظرنا».

كان وقت الأصيل قد حان بالفعل، وبدأت الشمس تميل نحو الغروب والظلال تكسو أطراف الغابة عندما بدت الحيرة في وجه إيورخي وهو يقول بصوت جهوري: «الشردانا... لم يحدث أن حارب مئة من المقاتلين خمسة آلاف»، ثم بدل نبرة صوته لأخرى مازحة لكنها يائسة، وقد خفض صوته قليلا، وهو يقول: «لو حدث كنت لأذكر حادثة كتلك».

ثم عاد مرة أخرى لنبرة صوته الجهورية الحماسية السابقة وقال: «إلا أننا سنفعل ذلك الآن... وسننجو»، وختم حديثه وهو يؤكد عليه برفع سبابته.

على الفور قام جنوده من الشردانا بالدق بأسلحتهم على ظهور دروعهم الفولاذية يحمسون أنفسهم، بينما قام إيورخي بتثبيت خوذته جيدا، وتقدم إلى أمام ومن خلفه الجنود وما يزالون مستمرين بالدق على دروعهم، بينما أحطت وبقية الكهنة بالإله رع والأميرة سيموراما في مؤخرة الموكب.

غادرنا شجرة فزاعة الموتى، جعلناها خلف ظهورنا ودنونا من ضفة النهر، ظهر موكبنا بالكامل لدافوسي الذي ظل و اقفا في مكانه لم يبرحه إلا لدقائق قليلة منذ ساعات الصباح، و ابتسم أخيرا لدى رؤيته لنا، وصاح في جنوده المتأهبين للقتال أن يستعدوا، فأخذوا مواضعهم ورتبوا تشكيلاتهم القتالية.

كان الملك شمشي يقود الدفاع عن قصر نينوي بنفسه جنبا إلى جنب مع أبنائه الثلاثة الأصغر سنا وسحرته الأربعة، بينما أرسل ابنه الأكبر نيراري الذي كان منوطا به أن يكون زوجا لسيموراما ليكون

جنبا إلى جنب مع القائد دافوسي ليلحقا بنا، وقد وعد دافوسي بأراض ممتازة وشاسعة وحصن صغير وصلاحيات ليس لها آخر إن عاد بالأميرة سيمورامات حية ورؤوس من ساعدوها على الهرب. فاقترح نيراري على القائد دافوسي لو يطلب من القائد إيورخي الاستسلام إلا أن الأخير رفض قائلا: «لا، رجل كهذا لن يعطيك انتصارا بلا خسائر».

رد نيراري: «إن فناءهم مؤكد، ورجل كهذا لن يعطي جنوده أملا كاذبا أبدا، أو يهون قسوة الحقيقة».

نظر دافوسي في عمق عيني نيراري وأخبره: «من شأن الحقيقة أن تكون مرة الابتلاع أحيانا، حتى بالنسبة لرجل مثل القائد إيورخي.. إلا أنه لا يفكر إلا في العودة إلى كيميت، وبكامل قوته، ليكمل في منصبه ويحارب أعدائه ويستحوذ على قلوب الكيمتيين، وهذا في حد ذاته دافعا قويا، ولا يمكنك أن تتخيل ما يمكن للدو افع القوية أن تفعله.. هذه المعركة أبدا لن تكون سهلة وإن بدت غير ذلك».

كنا قد وصلنا بالفعل إلى الممر الضيق بين ضفتي النهر ولم يتبق لنا سوى أن نعبر الجسر، عندها رفع دافوسي يده المغطاة بالقفاز وهو يخبر نيراري مردفا: «كانت لتنبت أصابعي مرة أخرى قبل أن يصغي هذا الرجل لصوت يخبره أن يستسلم أو يتراجع بلا قتال». تنهد نيراري وقال: «لقد فعلت ما في وسعي، والآن أضم صوتي إلى صوتك، ولنقتلهم جميعا».

التقى الجيشان، نحن على الضفة وفوق الجسر على النهر، وجيش شمشي بقيادة دافوسي أمامنا في سهول المرعى الواسعة بين حقول ذهبية من القمح اليانع الجاهز للقطاف.

دون أن يلتفت بوجهه أعطى دافوسي أوامره للرماة الواقفين من خلفه في الساحة بأن يطلقون سهامهم على الموكب الذي بدأ فعليا بالمرور بين ضفتي النهر، صاح بصوت عال: «ثبت، اسحب، أطلق»، أصدرت السهام صوتا كسرب من الطيور يثب محلقا في الهواء، بينما اتخذ جنود الشردانا وضعية دفاعية، فانخفضوا بأجسادهم راكعين ورافعين الدروع لأعلى.

تنهدت ريح باردة عبر الضفة حين انخفض الجسر المهتز وجعلت لمستها الجنود ترتجف، قال إيورخي لنفسه: «إنه البرد لا أكثر، قشعريرة لا رعدة... حتى الشجعان تنتابهم القشعريرة».

ثم تقدم مهرولا أمام جنوده داخلا وسط أنياب هذه الريح وتحت الدروع الفولاذية حتى عبر الجسر وأصبح على الضفة الأخرى.

كان دافوسي قد امتطى حصانه الأرقط وقف إلى جواره نيراري الملقب بالمقاتل الرهيب، ومن أمامهما رماة على حافة مرتفعة قليلا، وصفا من حاملي الحراب إلى يسارهما وصفا آخر إلى يمينهما، ومن خلفهما صفوف مكونة من أربعة آلاف مقاتل.

في اللحظة التي كانت تطير بها السهام في السماء نحونا، اندفعت سيمورامات برشاقة وجرأة شديدة خارجة من أسفل الدروع ورفعت كلتا يديها صوب السماء وهي تطلق تعويذة قالتها بعدما سمعت صوت الحمامة الذهبية تهمس لها بها وهي أسفل الدروع، قالت: «اكسبالريومس». فانطلقت طاقة قوية من بين يديها كموجة من الرياح العاتية شتت السهام في الهواء قبل أن تصل للجسر أو للجنود فأسقطتها أرضا كأنها أعواد خشب بلا قيمة.

أمر دافوسي الرماة بإعادة حشو النشابات مرة أخرى وإطلاق دفعة ثانية من السهام. ومجددا قامت سيمورامات بالتصدي لها مرة أخرى وأسقطتها أرضا وسط دهشة الجميع، جنود الشردانا والآشوريين. فقال نيراري متذمرا: «ماذا يحدث؟».

رد عليه دافوسي بكياسة في هدوء: «متعجلون أنتم دائما يا أهل نينوي، لكن قل لي ما فائدة العجلة؟ من يستعجل في الحياة يستعجل الذهاب إلى القبر»، وتجشأ ثم أضاف ساخرا: «إنهم حشرات سوف تُحرَق الآن»، وصاح مناديا على أحد قادة تشكيلاته العسكرية في الخلف، فأفسحت الحشود طريقا من خلفة، وظهر قائد ومن خلفه مجموعة صغيرة من الجنود يدفعون منجنيقا عملاق الحجم، يحمل قذيفة عملاقة من القش المحشو بالزجاج الملفوف بالقماش.

دفعوا المنجنيق حتى أصبح موزايا للقائد دافوسي، ثم قام ثلاثة جنود بإفراغ الزيت على قذيفة القش وأشعل قائدهم فيها النيران في اللحظة التي ترك الحراس قيدها لتطير عاليا في الهواء قبل أن تسقط فوقنا مباشرة. ولدى سقوطها تفرق الشردانا وتشتتوا، لكن لتلك اللحظات القليلة لا أكثر، إذ أحدثت خسائر هائلة في الصفوف، فأصيب من أصيب واحترق من احترق وقفز في النهر من استطاع محاولا النجاة بنفسه من النيران التي طالته...

بينما سقطت سيمورامات أرضا على أثر الانفجار الذي أحدثته كرة النار، وارطتمت بقطعة صخرية جعلتها تفقد وعيها، من خلفها على مسافة قصيرة سقط خا إم ويست وحنكليس الذي كان يهرول على الأرض محاولا إطفاء النيران التي طالت ملابسه.

خطا الملك رع في النار ضاغطا على أسنانه بقوة، وقد رفع الحرملة الجلدية أمامه لتقيه من اللهب، واتجه صوب الأميرة الصغيرة مباشرة، رفعها بين يديه قبل أن يسندها على كتفه، وأطبق على سيف بيده المغطاة بالقفاز، وانتزعه من الخشب المحترق بشدة قوية واحدة، ثم تراجع رافعا السيف عاليا واللهب الأخضر كاليشب يدور كإعصار حول الفولاذ الأحمر كالكرز والأميرة كالطفلة فوق كتفه.

اندفع جنود الشردانا ليخمدوا الجمرات الصغيرة التي علقت بثياب الملك، بينما هتف أحد الشردانا: «احترسوا... إنهم قادمون».

كانت هذه المرة الوحيدة التي أطلق فيها الكهنة الأربعة وقائد الجيوش وإلههم معا في معركة واحدة، المعركة التي أطلق عليها المغنون لاحقا اسم «محرقة نينوي».

وقعت عينا إمحوتب على سوار سيمورامات في الأرض بين النيران، فانتفض مهرولا باتجاهه وهو يقول في نفسه صائحا: «هذا النهار سيء ومفعم بالأهوال، مع ذلك لن أموت اليوم».

تعثر بشيء ما فسقط على الأرض، ولم يثنيه ذلك عما عزم على فعله، فزحف على قدميه بضع خطوات وأخيرا أمسك بالسوار وأصابعه ترتعش وهو يضعه على معصمه، وشعر بدوار شديد يضرب رأسه في تلك اللحظة ووخزة قوية للغاية جعلته يغمض كلتا عينيه للحظات واهتز بالكامل وتذكر جميع التعويذات التي بثتها الحمامة الذهبية في رأسه فيما سبق. ولما فتح عينيه، وجد جنود دافوسي تقترب بالفعل شاهرين السيوف والرماح، وقف على قدميه وأغمض عينيه مرة أخرى وهو يوجه السوار نحوهم ويصيح: «اكسبالريومس»،

وإذا به يتفاجأ بالجنود القادمين نحوه يتجردون من أسلحتهم فتطير عاليا من بين أديهم وتسقط أرضا. لم يتوقف الجنود بل هرولوا جريا باتجاهه يحتمون خلف دروعهم الصلبة.

فصاح مجددا يقول: «ريدوكتو»، فخرجت طاقة حمراء اللون مندفعة بقوة شديدة من راحة يديه واصطدمت بالجنود فتقطعت أجسادهم وكأنها تفجرت، فسقطوا أرضا وتناثرت دماءهم وأشلاءهم في كل مكان.

حالة من الجنون سيطرت على دافوسي ونيراري اللذين أعطيا أوامرهما لكامل جنودهم بالتقدم. وبينما يحاول إمحوتب استخدام السوار والتحكم فيه على أفضل ما يكون، كان جنود دافوسي قد أصبحوا بالفعل على مسافة خمسين مترا فقط من جنود الشردانا ومنا.

أطلق إمحوتب تعويذاته مرة بعد مرة، فقتل وأحرق منهم عددا ليس بقليل، إلا أنه تأخر في حركته لثوان قليلة، وقد شرد يفكر في قوة السوار السحرية، واستغل أحد الجنود شروده فصوب رمحه عليه وأصابه في كتفه، فأسقطه أرضا وسقط السوار من يده. فصاح دافوسي في جنوده أن يتقدموا جميعا صوبنا.

شعر كل واحد منا أن حتفه بات وشيكا إلا أن الأميرة سيمورامات استعادت وعيها في تلك اللحظة، وأطلقت صرخة استغاثة قوية تصم الأذان من فرط قوتها. فاضطربت الرياح واشتدت في لحظتها، وتقاطرت ندفات المطر من السماء فوقنا.

ابتسمت سيمورامات ابتسامة الواثق المطمئن على الرغم من الفزع الذي دب في قلوب جميع من حولها، وعلى الرغم من صوت صليل السيوف والفؤوس والرماح المرفوعة بين حراس دافوسي القادم بسرعة شديدة فوق حصانه برفقة أربعة آلاف من جنوده.

ظن الجميع أن الموت قادم لا محالة، أغمض الشردانا عيونهم أمام هذا السيل القادم نحوهم من جنود دافوسي، إلا أن الحمامة الذهبية شقت مياه النهر وانطلقت طائرة بقوة شديدة لتهبط في المنتصف مباشرة بين الجيشين وقد اتخذت هيئتها البشرية.

وكعادتها سبب ارتطامها الشديد بالأرض موجة عاتية من الرياح، واهتزت الأرض أسفل قدميها مما جعل دافوسي ونيراري يسقطان عن حصانيهما، بيد أن جنودهما يتطايرون من حولهما.

فتح الجميع أعينهم ليفاجؤوا بها جاثية على ركبتها اليسرى باسطة راحة يدها اليمنى على الأرض وهي تبتسم، وتنظر بعينيها صوب الأميرة الشابة سيمورامات.

حاول بعض جنود دافوسي ممن نهضوا عن الأرض التقدم جريا صوبها شاهرين سيوفهم ورماحهم، وتفاجؤوا بها تحرك يدها بطريقة دائرية وكأنها تسحب شيئا ما من جانب ضفة النهر، فإذا بموجة عاتية من مياه النهر تتحرك صوبهم وتدفعهم للخلف بشدة.

كان إمحوتب يحاول النهوض بمشقة وصعوبة، في الوقت الذي اقترب فيه خا إم ويست من السوار وانحنى ليأخذه. في وقت اقتربت مجموعة من الجنود حملة الرماح نحو خا إم ويست وإمحوتب الذي

كان ما يزال جاثيا على ركبتيه على مسافة مترين فقط والدماء تغطي كتفه.

نظر خا إم ويست إلى إمحوتب نظرة ذات مغزى مفادها تساؤل: «كيف أستخدم السوار». فقال الأخير بصوت واهن: «وجه السوار واختر ذهنيا الشخص الذي تود إصابته، من ثم قل التعويذة».

التف خا إم ويست ووجه السوار في توتر شديد نحو الجنود القادمة باتجاههم وكانوا شاهرين سيوفهم الصلبة ورماحهم الطويلة، إلا أنه لم يكن يعرف أيا من التعويذات، فالتف بوجهه مجددا نحو إمحوتب الذي فهم من فوره وصاح قائلا: «كروشيو... كروشيو».

لم يكن إمحوتب هادئا متزنا، ولم يكن عالما أن هذه لعنة التعذيب والذبح القاتلة، ولم يخيل له أن خا إم ويست سيوجه لعنته ليس على شخص واحد فقط أو مجموعة، بل على جيش شمشي وقائده دافوسي بأكمله.

في هذه اللحظة، صوب أحد جنود دافوسي رمحه على خا إم ويست وكاد يخترق رأسه، بيد أنه تفاداه في اللحظة الأخيرة، إلا أن الرمح تسبب له في جرح قطعي في وجهه وأذنه.

استشاط أخذ خا إم ويست غضبا، واشتد حنقه فأخذ يوجه السوار نحو الجنود ويصيح فيهم: «كروشيو... كرشيو... كروشيو»، فإذا بصيحات الألم والفزع وصرخات الوجع والإستغاثة تدوي في كل اتجاه.

مع ذلك لم يتوقف أو تأخذه شفقة بأحد منهم... وفي غضون خمس دقائق احترق أربعة آلاف رجل في ذلك اليوم، من بينهم دافوسي قائد جيوش شمشي، أما نيراري ابن الملك فقد نجا من التعويذات وقرر أن يستسلم، إلا أن خا إم ويست أصابه جنون الدماء، فترجل وسط الجثث والأشلاء الممزقة تدفعه الرياح للخلف فيقاومها، تتقاطر الأمطار فوق رأسه فلا يأبه لها، حتى وصل إلى نيراري وعلى الرغم أنه كان جاثيا على ركبتيه ومصابا تنزف الدماء من أنحاء متفرقة في جسده إلا أن خا إم ويست وقف أمامه متعاليا بكبرياء لثوان معدودة قبل أن ينحني ويمسك بأحد السيوف الطويلة من الأرض.

صاح إمحوتب: «خا إم ويست... لا». وترجل إله الأرض نحوه وهو يتحدث بكياسة: «انتهى الأمر، دعه وشأنه»... إلا أن خا إم ويست لم ينصت سوا لغضبه، وأطاح برقبته بضربة واحدة قوية.

التفت كل منا حوله، كانت وليمة للجثث المحروقة بالفعل، حيث بعثر خدام التعويذة من الجن أربعة آلاف جندي، جعلوهم مذبوحين بوحشية على الأرض، غرق في برك من الدماء الساخنة، بعضهم مبتور الأطراف وبعضهم مبتور الرأس، وقد قبضت الأيدي المقطوعة على السيوف والرماح الدامية والدروع الحديدية.

ترجل الإله رع بين وليمة الجثث غير مصدق ما آلت إليه الأمور، وترجل إايورخي بدوره بين جثث بعض جنوده ممن لاقوا حتفهم في المعركة، بينما احتضنت الحمامة الذهبية ابنتها سيمورامات وقد شعرت أخيرا أن ابنتها باتت آمنة.

وقف إمحوتب فوق جسدي نيراري والقائد دافوسي وقد تشوهت جثتاهما تماما، فالملامح مشوهة، والأيدي مبتورة، والدماء تغطيهم تماما.

كانت ملامحه تشي بأنه غير راض عما فعله خا إم ويست، فلم تكن هذه النهاية المرجوة من هذه المعركة، كل ما رغبا فيه هو إنقاذ الفتاة والنجاة بأنفسهم بأقل قدر ممكن من الخسائر لا أن يصنعوا مذبحة بشعة إلى هذا الحد.

تقدم حنكليس نحو خا إم ويست الذي كان شاعرا بالقوة التي يملكها غير مقدر حجم الدماء الذي تسبب في سيلانها على هذه الأرض.

أراد حنكليس الذي بدا مذهولا لو يمسك بالسوار، إلا أن خا إم ويست سحب يده للخلف ر افضا أن يلمسه أحد.

نظر إليه إمحوتب مستغربا وأراد لو يطلب منه السوار، بيد أن الحمامة الذهبية انتقلت بسرعة مدهشة إلى جوار خا إم ويست، فأصبحت ملاصقة له.

قبضت على معصم يده بقوة شديدة و انتزعت منه السوار عنوة، ثم تقدمت به نحو ابنتها سيمورامات التي كانت ما تزال و اقفة قرب الإله رع، فأعطتها السوار، وهي توصيها بألا تستخدمه في أي نوع من الأذى، وألا تدع نفسها أو غيرها يكون تحت أمر قوته بل أن يكون دائما تحت أمر ضميرها.

تلك اللحظة، توقف الكاهن كاي تاي عن إكمال حديثه لثوان معدودات مد فيها يده التقط قدحا من النبيذ وقربه إليه، تصاعد

البخار من النبيذ وهو يجرب جرعة منه، ثم هز رأسه باستحسان مقتضب قبل أن يعيد القدح للمائدة مرة أخرى ويقول: «يبدو أن الفجر قد اقترب، ولا أنوي أن تأتي الشمس و أنا ما أزال جالسا هنا بينكم».

قالت حتبت رع باستحياء شوبه استنكار: «لا يمكنك أن تتركني عالقة هنا دون أن تخبرني ما الذي حدث لاحقا». وأضافت تستجديه في رجاء: «أرجوك يا سيدي، جلالة الكاهن، أرجووك».

التفت إليها وكتم التثاؤب الذي هاجمه فجأة بظهر يده، ثم قال بلهجة رفيقة: «أعتقد أني سأتخلى عن النوم الليلة، وسأظل هنا... على أن يكون ذلك حتى أول خيوط الضوء».

قال شبسكاف الذي كان ناعسا أغلب الوقت وأراد لو ينام: «نوما هنيئا يا سيدي»، في إيماءة منه برغبته لو ينتهي الحديث إلى هنا الليلة، وشرع يجمع الأكواب الفارغة من على سطح المائدة.

كانت حتبت رع تحمل ملعقة في يدها عندما استطردت في كلامها وهي تضرب بها على يد شبسكاف وتخبره وهي تزفر في غيظ شديد: «سوف أقتلك يا شبسكاف».

حدق نياخ هاو فيها بعينين متسعتين، وبدا أنه مستاء مما تفعله.

طقطق الكاهن كاي تاي بيده على ظهر المائدة الخشبية، وفكر متذكرا الليالي التي تلت حادثة السوار، بدا عليه كمن اشتم رائحة الموت والدماء مجددا.

فجأة فقد شهيته للشرب، فأعطى قدح النبيذ خاصته إلى زوجته كاريسا التي رفعته مباشرة إلى شفتيها ولم تتركه إلا فارغا، فبدت وكأنها كانت بحاجة إلى حصة إضافية تمدها بالدفء في برد آخر الليل.

واسترسل الكاهن مكملا قصته وهو يعود بذاكرته للوراء ولكن بوتيرة أسرع، قال:

كانت الرياح تهب بقوة قبيل أن نغادر ساحة المعركة، وقامت الحمامة الذهبية بإعادة سوارها إلى معصم يد ابنتها سيمورامات، وبثت جميع تعويذاته في رأسها، ثم وضعتها بين يدي الإله رع وهي تخبره أن يتخذها زوجة، وأنها ستبقى فوق الأرض ما دام حيا ثم غادرتنا مع غروب الشمس إذ قفزت وغاصت في مياه النهر مرة أخرى.

وقتها، قال إمحوتب متنبأ بالطقس: «مع مجيء الصباح ستكون الأرض قد اكتست بالصقيع، وستتجمد هذه الجثث وتتيبس وتتخثر دمائها، ستُدفن في الجليد».

انبعث من الظلام صوت خافت بعيد، وإن كان عواء ذئاب لا لبس فيه... ارتفعت أصواتها و انخفضت بأغنية حماسية لحنها من جوع، جاعلة الشعيرات تنتصب على مؤخرة عنق جنود الشردانا.

قال إمحوتب لاهثا من غضب سيطر عليه من أحداث اليوم وهو يتفقد الجثث المتناثرة من حوله: «لن نخيم هنا الليلة، فلنرحل للديار».

أغمضت سيمورامات عينيها وهي تضع يدها على السوار، وقالت ما تراه في عقلها: «خسر شمشي معركته مع حمورابي الذي قطع رأسه

ورؤوس أبنائه الثلاثة، وعلقها على أسوار القصر الإلهي؛ قبل أن يقوم بإحراق نينوي بأكملها ناهيا أسطورة شمشي ومدينة الأســـود للأبد».

لدى عودتنا إلى كيميت، تزوج الإله رع من سيمورامات، وفاض النهر في هذا العام مرتين وهو ما لم يحدث منذ سنوات بعيدة، ساعدت الأميرة سيدة الأرض باستخدامها السوار في خلق واحات خضراء ليس لها آخر، وعم خير وفير في الأرض السوداء.

استطاع إمحوتب أن يبتكر طريقة لاستنساخ أساور ذا قوة متفاوتة من السوار، فصنع أساور فضية للحراس، وأساور خضراء اللون للكهنة والكاهنات، وأساور ذهبية للإله رع ومن يصطفيهم، ثم قام بإنشاء مدينة كاملة لتعليم السحر وتربية السحرة، قام فيها بتعليم التعاويذ الخاصة بكل فصيل، كما جعلهم يعرفون جيدا الحدود التي يجب عليهم ألا يجتازوها في استخدام السحر.

بعد 10 سنوات، رُزِق الإله رع من سيمورامات بأربعة أبناء هم إيزيس وأوزيريس وست ونفتيس، في أحد أيام هذه السنوات طلب الإله رع من إمحوتب أن يصنع له مدينة سرية سحرية لم يسبق لأحد أن رأي أو تخيل أن يتواجد مثلها، و أتاح له جميع الصلاحيات التي تمكنه من فعل ما طلب منه.

جمع إمحوتب بضع آلاف من خيرة عمال كيميت، وحدد منطقة هضبة الشمس لتكون مكان المدينة الجديدة التي قرر لها أن تكون أسفل الهضبة قرب الأهرامات.

صنع متاهة كبيرة من الممرات الأرضية، ملأها بالفخاخ الهندسية والفخاخ السحرية واللعنات التي يصعب على أي كائن أن يعبر منها. أثناء ذلك، ولخمسة عشر عاما كانت المملكة تنعم بالأمان والرخاء.

في أحد الليالي عاد حنكليس من رحلة صيد كان قد تغيب فيها لما يقرب الشهر، و اكتشف أمر صداقة حميمية نشأت بين زوجته وكبير الحراس في قصره، إذ وجدهما سويا في المسبح، فقام بصنع تمساح من الشمع وبث فيه الروح بقوة السوار، من ثم ألقاه لهم في المسبح، فتحول لتسماح عملاق وفتك بهما.

ولم يستطع حنكليس التخلص من التمساح، إذ هرب من المسبح وخرج للعامة وكان سوقا شهيرا قريبا من قصره، اقتحمه التمساح ومزق عددا من الرعاة...

ولم تكن هذه الحادثة الوحيدة التي استخدمت فيها الأساور بطريقة مؤذية، بل تعددت الحوادث، مما أثار غضب الأميرة سيمورامات والإله رع، فطلبوا حضور إيورخي وشاوراه في الأمر، وقال الأخير أن الأمر لا يتطلب قوة عسكرية بقدر تطلبه قوة سحرية وحكمة، وأن مثل هذا الأمر إذا ما تم بيده ستكون أضراره جثيمة، فمن الممكن أن تنشأ صراعات وكراهية بين الحراس والكهنة وقيادة الجيوش.

وأضاف ناصحا: «وحده إمحوتب يستطيع فعل ذلك بأقل خسائر، إذ أنه يمتلك علاقات قوية بجميع الكهنة والراهبات والحراس فهو من دربهم وعلمهم فنون السحر».

استجاب الإله رع وزوجته لنصيحة القائد، فطلبوا حضور إمحوتب الذي كان ما يزال مشغولا ببناء المدينة السحرية وقيادة آلاف العمال أسفل الأرض لبناء ممرات المتاهة السحرية، على الرغم من ذلك لبى أمر إله الأرض رع. ولدى حضوره في قاعة العرش في القصر الإلهي، تلقى أمرا بجمع الأساور الذهبية من الجميع، حراسا، ورهبانا وحتى كبار الكهنة.

قالت الأميرة سيموراما وهي تنزل درجات العرش وتتخلى عن السوار: «ستواجهك متعاب كثيرة، فلا أحد يتخلى عن القوة بهذه البساطة». وأعطته سوارها يستخدمه في إجبار السحرة والكهنة والحراس على التخلي عن قواهم السحرية وأساورهم.

كون إمحوتب بمرافقة إيورخي مجموعة من أفضل جنود الشردانا وبعض الكيمتيين الأشداء، خاض بهم حربا ضروسا مع السحرة والكهنة والراهبات والحراس في أرض كيميت كلها، استطاع فيها أن يجمع أكبر قدر ممكن من الأساور.

وما إن كاد يوشك على الانتهاء من مهمته، تفاجأ مع الكيمتيين بمغادرة إله الأرض رع إلى المساء، في يوم هو الأشد حزنا وألما على الأرض كلها.

لم تكن مغادرة الإله رع الحياة هي الكارثة الوحيدة التي حلت بالأرض، بل وجوب مغادرة الأميرة سيموراما هي الأخرى وعودتها إلى قاع النهر لتكون إلى جانب الحمامة الذهبية وذلك بموجب أمر متَّفَق عليه مسبقا بين الإله رع والحمامة الذهبية، ولم يكن أحد يعلم به شيء.

بعد أن قامت الأميرة سيمورامات بإيداع جسد زوجها في مقبرته، و انتهت من جميع الطقوس الجنائزية اللازمة لتكريمه، قامت بتقسيم الحكم بين ولديها أوزيريس وست، على أن يتزوج أوزيريس من إيزيس ويحكم الشمال، ويتزوج ست من نفتيس ويحكم الجنوب.

لم يكن إمحوتب قد أنهى مهمته كاملة بعد، إذ كانت بعض الأساور ما تزال بين يدي بعض الحراس والكهنة، و انتظرت سيمورامات عودته حاملا سوارها السحري بكامل قوته بعد أن يحصل على بقية الأساور ويدمجهم فيه مجددا، إلا أن إمحوتب أبدا لم يعد ولم يعلم أي مخلوق آخر عنه شيئا، واضطرت سيمورامات أن تغادر الأرض تاركة خلفها سوارها السحري إلى الأبد.

قال البعض أن إمحوتب عاد إلى مدينة هامونابترا، وقال آخرون أنه قُتِل في أحد المعارك. وحده إيورخي قال: «سوف يعود يوما ما إذا ما تحتم عليه أن يعود».

❁❁❁

12

بزغت الشمس على استحياء متخفية خلف الغيوم الحديدية، وعلى الرغم من برودة الهواء وصوت سيمفونية صنعتها ندفات المطر المتساقطة على أوراق وأغصان أشجار الدردار والبلوط والتوت المحيطة بالمنزل ورائحة الأرض الندية إلا أن أرقا شديدا تمكن من الكاهن كاي تاي الذي لم يستطع أن يمدد جسده في الفراش من فرط الأرق.

دفعه الشعور بالأرق إلى مغادرة مضجعه، فعاد مجددا إلى برج شرفة المنزل بوسط القلعة، وقف فيه يطل من بين الأشجار العالية يتأمل كل ما يطاله ببصره.

رأى النهر كشريط من الأخضر المزرق في شمس الصباح وبطول ضفتيه نما البوص بكثافة في الجزء الضحل من المياه، رأى صيادين وعمال يتجولون على الضفة، رأى بضع نساء يملأن الجرار بالماء وأخريات تسقي بعض الحيوانات، رأى تمساحا صغيرا ينزلق بخفة على السطح، تنتشر التموجات من ورائه وهو يتحرك وفي الأعلى حلق غداف بكسل في دوائر.

تنهد، وبدا أن السكينة تحف قلبه وتحف المكان حقا على الرغم من بهتان ملامح وجهه الشاحب الحزين على أثر فراق شقيقه.

صدح صوت دقات طبول وقُرِعت نو اقيس بدا من شدة صوتها أنها عملاقة الحجم، إذ سمع صدى صوتها في الأرجاء جميعها، ثم أعلن مناد أتى صوته من بعيد وهو يطوف في شوارع العاصمة عن دعوة لاحتفالية عظيمة سوف تُقَام في قصر الإله أوزيريس برعاية شقيقه إله الجنوب ست.

تبدلت ملامح الكاهن، أصابه الخبركصفعة على الوجه، وغمغم: «ست، ست، ست... لا خير فيه أبدا».

دلف شبسكاف ير افقه نياخ هاو الذي قال فور دخوله من الباب: «ثمة مجزرة حقيقية حدثت في معبد سوبيك نفرو». وأضاف شبسكاف: «قُتِلت ببشاعة وقُتِل أيضا حارس السيد خا أم ويست في ذات المعركة».

سألهما الكاهن مستفسرا في استغراب: «ما يعني؟». فقال شبسكاف: «نعتقد أن السيد خا إم ويست كان يدافع عن السيدة سوبيك نفرو عندما قُتِل حارسه الخاص، بيد أنه غير موجود ونعتقد أنه...».

قال الكاهن بلهجة قاطعة وهو يرفع كف يده باسطا إياه في وجه شبسكاف : «شششش... خا إم ويست بخير»، والتفت مخاطبا نياخ هاو: «اذهب... وعد إلي بخبر يقين»، رد نياخ هاو: « أنا رهن إشارتك دائما و أبدا يا سيدي».

في اللحظة ذاتها، قبل أن يغادر نياخ هاو مكانه سمع صوت همس يستغيث. كان صوت خا إم ويست يتواصل ذهنيا مع الكاهن ومن حوله.

التفت ثلاثتهم لبعضهم البعض وقبل أن يعلق أحدهم فتح بابا ضوئيا، وألقيت عبره قطعة نقود معدنية سقطت أسفل أقدام شبسكاف الذي انحنى والتقطها وقال مستغربا ومتوتراوهو ينظر نحو البو ابة الضوئية: «مبللة بالدماء».

اندفع الكاهن كاي تاي وعبر من البو ابة وعبر من خلفه حارساه دونما تردد أو أن يعرفا إلى أين ستقودهما هذه البو ابة.

وجدوا أنفسهم يخرجون في وسط غرفة خا إم ويست الحجرية داخل المعبد الأسود، ووجدوه ساقطا على الأرض، غارقا في بركة من الدماء بلونها الأحمر القاني، ملامح وجهه مزرقة كمن شارف على الموت.

فزع كاي تاي لرؤية شقيقة على هذه الحالة، جلس ثلاثتهم إلى جواره، ساعداه شبسكاف ونياخ هاو على الاعتدال وأسندا رأسه على أيديهم.

قبض الكاهن على معصم شقيقه متناسيا ومنحيا خلافات الماضي وأمسك سواره السحري بغية إلقاء تعويذة الشفاء عليه بيد أن خا إم ويست قُبِض على يده وقال: «لا فائدة، فات الأوان».

قاطعه كاي تاي وهو يزيح يده عن معصمه: «لم يفت شيء، لن يصبك مكروه و أنا هنا».

حدق خا إم ويست في ملامح وجه شقيقه وأمعن النظر بشدة داخل عينيه وشرد لبرهة قصيرة تذكر فيها مشهد من ثوان قليلة جمعهم قبل عشرات السنين، كانا يلعبا مع بعض الصبية داخل أروقة معبد السماء بين العمدان والمسلات العملاقة، فيختفي جميع الصغار خلف حائط متوسط الطول يخفي أجسادهم، الحائط فيه فرجة أفقية لا تظهر منها سوا أعينهم، وعلى الصبي المختار أن يمر أمامهم واحدا تلو آخر ويكشف شخصية كل واحد منهم من لون عينيه، ومرة بعد مرة كان خا إم ويست في دوره يكتشف أخاه من النظرة الأولى، وفي كل مرة كان كاي تاي يفشل في اكتشافه.

ابتسم خا إم ويست وهو يتذكر لون عيني شقيقه الصغير الذي كبر وأصبح سيد الكهنة، وما تزال عيناه بنفس لونهما وقال بصوت واهن: «بل فات و انقضى منذ زمن بعيد، فقط اسمع»، والتفت بوجهه نحو الحارسين وأضاف: «و أنتما أيضا اسمعا... ست يسعى لفتح أبواب الجحيم، يرغب في إزالة الحاجز بين البشر والغيلان ليحصل على جيش منهم، لذا جعل يورشو يجمع له الأساور السحرية ليستخدم قوتها في استدعاء سادة الجحيم ليلبوا أوامره. الأرض السوداء كلها بين أيديكم، الأرض كلها»... ثم أطبق شفتيه معلنا بذلك صمته إلى الأبد.

في هذه اللحظة، ظهر إله الموتى آنوبيس حامي المقابر ومرشد الأرواح في طريقها إلى العالم الآخر وتجسد إلى جوارهم... عملاق الجسد، طوله ثمانية أقدام، له بشرة طينية سوداء تبدو عند النظر إليها وكأن بها شقوقا مليئة بالنار، يرتدي قناعا أسود على هيئة رأس ذئب، مفتول العضلات عيناه تظهر غائرتين داخل رأسه خلف القناع.

ملفوف بوشاح أسود مصنوع من معدن ناري متدل من حزام عريض يلتف حول خصره، ممسكا في يسراه أساور حديدية من نار يستخدمها في تكبيل الأرواح السيئة ويجرها بها في الطريق إلى آخر العالم، وفي يمناه صولجان زجاجي مليء بالزئبق، يجعل الأرواح الجيدة تتشبث فيه، ويسقيه من زئبقه وهو ير افقهم بلطف نحو العالم الآخر.

انتفضت روح كاي تاي داخل جسده، وتأوه ألما بصوت عميق ومكتوم لدى رؤيته آنوبيس يتجسد أمامه إذ علم أن خا إم ويست فارق الحياة فعليا، وأن روحه سوف تغادر إلى حيث لا يمكن الوصول إليها مجددا، ولم يعد باستطاعة أحدهم أن يجعله موجودا مرة أخرى في هذا العالم.

اغرورقت عيناه بدموع لم يستطع أن يخفيها، وتوسل إلى آنوبيس قائلا: «رحماك يا إلهنا، رحماك يا إلهنا، رحماك يا إلهنا».

هز آنوبيس رأسه أن لا فائدة، قُضِي الأمر. فخاطبه الكاهن مستجديا: «تقابلنا مسبقا، قلت إنك ستساعدني».

هز آنوبيس رأسه دونما أن تتحرك عضلة واحدة في وجهه وقد ثبتت عيناه وقال بصوت أتى من أعماق بعيدة: «كاي تاي، صديقك العجوز سبقك إلى الرحيل»، وأشار إلى وجه خا إم ويست وأضاف: «انظر».

كان رأس شقيقه ما يزال في حجره، لكن عيناه مفتوحتان تحدقان إلى الفراغ وشفتاه كفتا عن الحركة.

وفي هذه اللحظة، حنت البومة رأسها وصدحت صارخة بصوتها وكأنها تنعي روح سيدها التي بدأت بالفعل تتحرر من جسده.

بحزن شديد بدا في صوته توسل كاي تاي وهو يُقْبَض بشدة على كف شقيقه قائلا للإله آنوبيس: «أنت إله، أرجوك ساعدني، لقد ضاع نصف العمر ونحن مفترقان، أعده إلي ولو قليلا».

رد عليه آنوبيس بصوت تردد صداه في المعبد: «لا أحد من الآلهة يستطيع أن يساعدك... يمكن للإله أن يعيش ألف سنة، لكن لا يمكننا التغلب على الموت... خذ سواره وسيفه ومعطفه الدافئ واذهب من هنا، لقد حان الوقت لتذهب روحه إلى سبيلها».

قال كاي تاي: «لا بد وأن لديك شيئا لتفعله!».

ورد آنوبيس: «لدي الكثير، ليس من بين هذا الكثير أن أعيد روحه مرة أخرى»... والتفت إلى جسد خا إم ويست ومد يده وهو يقول: «إنك تحررت».

انسلت روح خا إم ويست من جسده ببطء شديد على هيئة كتلة من ضباب ونهضت تمسك في يد آنوبيس الممدودة وسط ذهول شديد بدا في ملامح الكاهن كاي تاي.

ترجل آنوبيس بضع خطوات نحو باب ضوئي فُتِح أمامه في الفراغ مصطحبا الروح من خلفه.

قبل أن يعبرا البوابة إلى العالم الآخر، التفتت الروح الضبابية وظهرت عينا خا إم ويست بوضوح شديد وفيها نظرة وداع أخير إلى

شقيقه كاي تاي الذي ابتسم وتذكر عينا أخيه وملامحه وقتما كان صغيرا في معبد السماء وعرفها أخيرا فهمس: «خا... إم... ويست... وداعا».

وتحررت دمعة دافئة من عينيه لحظة اختفاء روح شقيقه خلف البوابة و انغلاقها.

لدقائق قليلة، ظل كاي تاي محتضنا رأس شقيقة، وأخيرا تمالك نفسه، ونهض وهو يأمر حارسيه بحمل جسده والانتقال به إلى منزله بغية الاستعداد لتحنيطه و إقامة طقوس دفنه.

كان الغضب مستحوذا عليه بالكامل وهو يقوم بتحنيط أخيه بنفسه وسط مساعدة حارسيه وحارسين آخرين، إلا أن ذلك لم ينمعه من الشرود في ذكرياتهم سويا، فتذكر يوم عودتهما من معركة نينوي، وكيف أن الإله رع حكم عليه بالموت كعقاب على استخدامه قوة السوار القصوى وذبح جيش دافوسي، وكيف أنه أراد لو يحتفظ بالسوار لنفسه.

إلا أن تدخله وتوسله للإله أن يعفوا عن أخيه جعله يخفف العقاب، فبدله بالنفي من المدينة وعدم مخالطة الناس، وتذكر كيف أن خا إم ويست الذي كان يحب السيدة كاريسا ويرغب في الزواج بها، تركها وترك أملاكه كاملة من بيت وحدائق وأموال له، ثم باغتته نوبة حنين فانتفض باكيا وترقرت الدموع من عينيه.

عند حلول الظهيرة، كان إله الأرض أوزيريس مستترا من الشمس تحت ظلة قرمزية، وقد أراح ساقه على ذراع كرسيه الذهبي المنقوش،

وجلست الملكة إيزيس إلى جواره، فيما وقف الحارسان العملاقان مونتو رع في مؤخرة المقصورة الملكية منتبهين وقد أراح كل منهما يديه على حزام سيفه، وانسدل معطف الحرس الإلهي الأسود المثبت بدبوس ذهبي محلى بالجواهر من على كتفيهما العريضين.

دلف متحدث القصر الإلهي واح تي إلى المقصورة وتحدث مباشرة إلى الإله أوزيريس قائلا باقتضاب بصوته الخشن كالمنشار في الخشب: «أنهيت جميع التدابير اللازمة لإقامة الحفل المخطط له من قبل الإله ست والسيدة نفتيس، على أن يكون خلال خمسة أيام من شمس اليوم».

هزت السيدة إيزيس رأسها بتحية خجول على ذكر اسم شقيقتها. وقال أوزيريس وهو يعتدل قبل أن ينهض: «ستكون احتفالية رائعة».

كان الملك يرتدي سترة مذهبة نقش عليها غزال فغرفاه للطعام، كأنه يتوقع أن لا تقوم حرب أبدا في بلاده.

في المساء، بعد انتهاء طقوس تحنيط ودفن الكاهن خا إم ويست جلس الكاهن برفقة حارسية شبسكاف ونياخ هاو، تبادلا أطراف الحديث عما يدور حولهما، وتوصلا أخيرا أن عليهما مقابلة إله الأرض أوزيريس وإخباره بما لديهما.

مع نهاية الاجتماع كانت كتفا الكاهن متيبستين من الجلوس في المقعد نفسه طويلا وجسده بالكامل يؤلمه حزنا على شقيقه فقرر الانسحاب من جلسته، والذهاب إلى فراشه على أن يرتبا سويا في الصباح أمر زيارة القصر الإلهي بغرض التواصل مع الإله أوزيريس.

مرت الليلة ثقيلة على الكاهن ولم ينم فيها، وأخيرا أتى الصباح، وبينما جلس يتناول الإفطار برفقة زوجته وحارسيه، تردد نفير يعلن عن وصول ضيف كبير المقام إلى المدينة.

وبالنظر من برج الشرفة وجدا أنه الساحر يورشو قد حضر بطابور من الفرسان والأتباع، ومعه ستة من الغيلان المسلحين الأقوياء مهيبي الشكل، على ثيابهم الرمادية رمز العقرب يقودون ويوجهون اثنين من الفيلة العماليق؛ يجرون عربة مصنوعة من الفولاذ حمل فوقها تابوتا بطول ثلاثة أمتار صُنِع بالكامل من الذهب الخالص الموشى بأثمن الجواهر والنقوشات السحرية، متوجهين به صوب القصر الإلهي.

أراد الكاهن لو يقفز من الشرفة وينتقم لأخيه، إلا أن حارسيه أمسكا به ومنعاه معللين ذلك بأن عليهما أن يحصلا على لقاء مع الإله رع ويخبر انه بما حدث ويكشفا له نوايا شقيقه إله الجنوب ست.

حنى الكاهن كاي تاي رأسه بجمود في غضب، وهم بالانصراف إلى مضجعه. جلس على حافة الفراش، وانتابته حالة من الضجر، فأدرك أنه لن يخلد إلى النوم مجددا. ليس وهو غاضب على الأقل.

خرج من الغرفة، وجد حارسه جالسا على كرسي خارج الباب، فهزه من كتفه قائلا: «استدع شبسكاف ونياخ هاو، ثم اخرج وجهز حصانين وعجلتين».

ردد الحارس بعينين عليهما غمامة النوم، فلم يكن قد نام هو الآخر؛ إذ سهر يعمل على خدمة سيده: «حصانين».

احتقن وجه الكاهن وزفر قائلا: «تلك الحيوانات السوداء الكبيرة، أنا واثق بأنك رأيتها من قبل، أربع سيقان وذيل... لكن نياخ هاو وشبسكاف أولا».

هرول الحارس مبتعدا من أمام سيده. وحضر شبسكاف برفقة نياخ هاو إلى الشرفة، نظر الكاهن إلي نياخ هاو وكان مرتديا ملابس عادية متجردا من أسلحته، فقال: «كان حريا بك أن ترتدي ثيابا غير هذه وتتجهز، فالأجواء بالخارج غير آمنة».

قال شبسكاف: «أنحن ذاهبان إلى مكان ما؟». فرد سيده باقتضاب ردا على غير العادة: «أكل الحراس بذكائك؟».

على الرغم من المخاطر التي تحف شوارع العاصمة ممفيس لوجود يورشوو أتباعه فيها، شعر الكاهن أن عليه أن يقابل إله الأرض في هذا اليوم، وشعر بالأمان في وجود حارسيه الأمينين عليه.

أخرجه الحارسين من بوابة جانبية في سور المنزل من الشمال، ومن هناك قطعا الدرب المحاط بالأشجار بعجلتيهما الحربيتين حتى سفح تل ممفيس العالي، ثم اتجها إلى طريق الملوك، حيث مرا بصفوف من التماثيل الملكية، ثم عبرا منه لطريق آخر يلتف حول المدينة حيث يسكن كبار التجار، فمرا بصفوف من النوافذ المغطاة بالستائر، والمباني العتيقة المبنية بالجرانيت الوردي.

بدا أن الشمس تتبعهما أينما ذهبا، تختلس النظر إليهما ثم تتوارى وراء غيمة أو شجرة، وهكذا دواليك، بينما لم يصادفا أحدا يقلقهما باستثناء عجوز شمطاء وحيدة تحمل قطة ميتة من ذيلها،

رمقتهما بنظرة خائفة ومشفقة في ذات الوقت، كأنها تخشى أن يحاولا سرقة عشائها، ثم انسلت وسط الظلال بلا كلمة واحدة.

لدى وصولهما القصر الإلهي، كان مزدحما على الرغم من الوقت المبكر، وحياهما حراس البوابة الرئيسية ببشاشة واصطحبوهما إلى كبير الحرس فأخبراه برغبتهما في مقابلة إله الأرض لأمرهام، فقال لهما: «سيُسَر الإله كثيرا عندما يعرف أنكما أتيتما، لكن ذلك لا يعني أنكما ستقابلانه اليوم، فلا فرصة للقائه قبل خمسة أيام كاملة من الآن، إذ أنه كثير الانشغال بالتدابير اللازمة لحفل عيد الحصاد الثاني والذي سيقام برعاية الإله ست».

أطل الكاهن برأسه من فوق عجلته الحربية وقال: «أحتاج للقائه أسرع من ذلك». ورد الحارس قاطعا: «سيكون ذلك في الشمس الخامسة من اليوم، سأحرص على تجهيز موعد لك، وكأس من النبيذ الملكي».

استاء الكاهن وهو ينظر إلى حارسيه، فأضاف كبير الحراس: «سامحنا يا سيدي، لكني لا أستطيع فعل شيء غير ذلك».

❁❁❁

13

جاء الصباح هادئا، إلا أنه هدوءا كئيبا من النوع الذي يشعرك أن الحياة تحتضر.

أطلت من شرفتها وكانت مرتدية فستانا نيلي اللون فضفاض، مطرزا بخيوط من الذهب والفضة، وتطاير شعرها الذي حررته من تاجها منذ وقت طويل، فلم تعد تحمله فوق رأسها منذ غادرت القصر الإلهي.

لمحت بركن عينها ثلاثة من الحراس يعبرون أبواب القلعة، ميزتهم من ملابسهم المختلفة عن بقية الحراس، فتساءلت مستغربة في حيرة: «كانوا سبعة!». ولدى وصولهم إلى قاعتها كانت تتساءل في نفسها: «لماذا عادوا مبكرا عن المتوقع؟».

حين استفسرت نفتيس حراسها الثلاثة عن بقية من خرجوا برفقتهم للتجسس على زوجها ست. أجابها أحد الحراس «أنه يورشو، أفقدنا أربعة رجال دفعة واحدة».

أحست بالكلمات كركلة تلقتها في بطنها، فقد كانوا من المقربين إليها، وقالت لنفسها: «على هذا الغبي مساعدتي على كل حال، بل

عليه أن يساعد نفسه حتى لا يُدفَن كما دُفِن الجنوب كله أسفل أقدام ست».

استرسل حارس في الحديث، قائلا: «على الجانب الآخر من المدينة جمع يورشو الآلاف من الجنود». سألت نفتيس: «الآلاف!! ماذا يفعلون؟». فأجاب حارس بوجوم: «أيا كان، فلم يكن منظرهم سارا كثيرا».

على الجانب الآخر من المدينة، داخل غرفته الملكية في قصره الإلهي، حظي ست بمساعدة اثنين من الحراس على ارتداء درعه الفولاذي المزخرف ذات اللونين الذهبي والفضي، وعلى رأس خوذته وضعوا ريشات حمراء طويلة، وناوله أحدهم ترسه المزين بعقرب أسود.

عاونهم يورشو وناول الإله سيفا طويلا ذا نصل أمضى من أي نصل آخر عرفته مملكة الجنوب، له قبضة على شكل تمساح، صُنِع خصيصا ليناسب يد الملك.

ترجل ست أمام يورشو إلى خارج بو ابة القصر، توقفا في الساحة العظيمة بين مسلتين طول كل واحدة منهما تجاوز ثلاثين قدما، وإلى جوارهم وقف بعض مساعديهم من قادة فيالق الجيوش وجها لوجه مع 5 ألاف مقاتل.

كانوا مقاتلي النخبة، طوال القامة، أعينهم اللوزية الداكنة لا تبوح إلا بغضب، يرتدون أقنعة حديدية سوداء، أجسادهم مغطاة بالكتان والصوف وفرو النمر والذئب، وقد ارتدوا دروعا سوداء

مصنوعة من الصلب تشبه ظهر السلحفاة، وخوذات ذات و اقيات طويلة للأنف، يخرج من كل منها نابان نحاسيان وريشة سوداء طويلة وكل واحد منهما يبدو كجندي محارب لا مثيل له إلا أنهما في حقيقة الأمر مجموعة من الهمج.

لم يكن جيش ست مكونا من الكيمتين فقط، فكثير منهم مرتزقة من مملكة كوش وممالك أخرى استمالهم ست بالعملات الذهبية التي جمعها عنوة من تجار أهل الجنوب.

كان كثيرا من جنوده قد فروا من سوء حكمه، منهم من غادر إلى ممفيس في الشمال، فأصبح تحت إمرة أوزيريس، ومنهم من فر إلى قلعة زوجته نفتيس التي استمالت كل من لجأ إليها رغبة منها في تكوين قوة مضاهية لقوة زوجها.

صاح ست مخاطبا جنوده قائلا: «أنتم أبناء كيميت الأصليين، أخوة الدم والسلاح، المتعطشون دائما للدماء، لا تهابون ولائم الجثث، ولا يوجد قائد يكون فخورا بشيء أكثر من ذلك».

وتوقف عن الحديث لثوان معدودة، أشاح فيها بعينيه عنهم ملتفتا إلى تمثاله العملاق الذي يقف خلفه تماما بطول ثلاثين قدما شأنه شأن المسلات، ثم أضاف بكياسة مفتعلة: «ممفيس... عاصمة الشمال، أعظم مدينة كانت أو ستكون.

إنها مركز العالم، والبوابة بين الشمال والجنوب ومركز الشرق والغرب، أعتق من أن تدرك ذاكرة البشر منشأها، وبديعة لدرجة أنها لا تستحق أن تُحْكَم إلا بأيدينا».

صاح الجنود بقوة ودقوا برماحهم الطويلة وسيوفهم الصلبة على الدروع فاهتزت الأرض أسفل أقدامهم. واسترسل ست قائلا: «الجنود المتمردون حرقوا جميعا على يد يورشو».

وهز رأسه وخفض صوته قليلا وهو يقول بلهجة محذرة أكثر منها معلومة: «والغيلان... علقت رؤوسهم على الرماح».

ثم رفع صوته مجددا قال: «والبقية هربوا إلى قلعة نفتيس حيث أنهم يستعدون لمواجهتنا، لكن أنتم يا ذئاب الجنوب سوف تسحقونهم عند عودتنا بعد إسقاط ممفيس»...

أنهى جملته وهو يترجل بضع خطوات نحو عربة جرها فيل عملاق قاده بعض الحراس حتى وقف خلفه تماما، رفع أحد حراسه الغطاء عن العربة كاشفا صناديق مليئة عن آخرها بقطع العملات الذهبية. وحمل ست واحدا من الصناديق وقام بإفراغه قذفا أسفل أقدام جنوده ومن خلفه فعل ثلاثة من حراسه مثله، فقال وهو يستدير مغادرا الساحة: «أنتم تستحقون، تستحقون الذهب والمجد».

بعد ثلاثة أيام، جاءت ظهيرة، اهتدت فيها نفتيس إلى حيلة ماكرة، إذ وقفت في نافذة غرفتها تطل على النهر، من ثم تواصلت ذهنيا مع يورشو الذي كان في عجلته الحربية خلف إله الجنوب ست برفقة قادة فيالق الجيش، ومن خلفهم خمسة الآف مقاتل متوجهين صوب العاصمة ممفيس.

كانوا قد تجاوزوا الحدود الشمالية لمدينة كاهون و اقتربوا من الحدود الجنوبية لمدينة ميديوم، فباتت ساعات قليلة تفصلهم عن

بوابات ممفيس، فهمست له بأقتضاب: «أرغب فيك، سأنتظرك وقت الأصيل». في اللحظة ذاتها، سمعت طرقة خفيفة على الباب، فالتفتت بعيدا عن النافذة، وقالت: «ادخل!».

دلفت اثنتان من الخدم بعمر يقل عن عشرين عاما وانحنيتا لها، ثم بدأتا تمارسان عملهما مباشرة.

كانت نفتيس مشغولة الذهن، ولم تنبس ببنت شفة، لكن إحدى الفتاتين عوضت صمتها، كانت المفضلة لدى سيدتها، فتاة في الثامنة عشر من عمرها، ناعمة الشعر بنية العينين لم تكف عن الثرثرة وهي تعمل، فخلعت أسمال فستانها، ثم خلعت سترتها القطنية وثيابها الداخلية.

ملأت خادمتها الأخرى المغطس بالماء الساخن الذي جاءتا به من المطبخ وعطرتاه بالزيوت الفواحة، وساعدتاها على النزول إلى المغطس. وحممتها واحدة وغسلت شعرها ووجهها وبينما نظفتها بالصابون وصببن الماء الدافيء على رأسها، لم تر أمامها غير وجه يورشو الذي رغبت في إفراغ رأسه من جميع ما فيه من مخططات.

عندما صارت نظيفة تماما ساعدتها الخادمتان على الخروج من المغطس وأحضرتا المناشف القطنية لتجفيف جسدها، ومشطت الفتاة شعرها حتى تألق كالحرير الأحمر، بينما ضمختها الأخرى بعطر زهرة الياسمين البري القادمة من سهول بلاد كوش، مسحت به على كل معصم ووراء أذنيها وعلى حافتي نهديها، ثم مسحة باردة أخيرة على ساقيها وما هو أبعد من ذلك.

بعدها ألبستها الاثنتان الثياب التحتية، وفوقها الوشاح الحريري ذا اللون الأرجواني المائل إلى الأزرق الذي يبرز لون عينيها الزرقاوين، ثم وضعت خادمة قدميها في الصندل المموه بالذهب، بينما ثبتت الأخرى التاج المرصع بالجواهر على رأسها، ووضعت نفتيس سوارها الذهبي المزين بالنجوم حول معصمها، وفي النهاية كان الطوق الذهبي الذي نُقِشت عليه رموز بالكيمتية القديمة وأمرت الخادمتين بمغادرة الغرفة.

مع اقتراب وقت الأصيل، كانت عجلته الحربية تطوي الأرض طيا عندما نظر يورشو إلى ست الذي كان منطلقا أمامه فوق عجلته الحربية يقودها قائد أحد فيالق الجيوش للأمام يشق رمال الصحراء دون هواده بعدما قطعوا مدينة ميديوم، وميز أنه منشغل بالإسراع في قطع الطريق أكثر من أي شيء آخر، وأنه لم يلاحظ غيابه عن الموكب.

فشرد بعجلته الحربية مبتعدا عن صفوف الجيش وتوارى خلف تلة صغيرة ثم قال: «الوهوموروا».

انفتح الباب السحري في الفراغ، فقذف عبره قطعة نقود ذهبية، فتح الباب في غرفة نفتيس وسقطت القطعة النقدية على الأرض، ابتسمت نفتيس ابتسامة الواثقة في حالها وحيلتها لدى رؤيتها القطعة النقدية تسقط أرضا.

انحنت وقبضت عليها، لم تردها عبر البوابة، رمقت انعكاسها أولا في المرآة ذات الإطار الفضي، وابتسمت وهي تحرك لسانها بين شفتيها، ثم تعمدت إظهار جسدها من أسفل وشاحها الأرجواني

المتدلي عن كتفيها لتبدو شبه عارية وهي تقترب من فراشها، وتمددت على بطنها على الفراش، ثم ألقت بالقطعة الذهبية عبر البوابة ودفنت رأسها في وسادتها.

عبر يورشو من البوابة، وتفاجأ بها ممددة شبه عارية في فراشها، فتساءل غير مصدق لما يراه: «حقا؟»، وهز كتفيه متابعا وهو يتحسس لحيته: «يبدو أنني مدعو لأحظى بالقليل من المرح».

لم تحرك الملكة ساكنا، فدنا منها حتى جلس على حافة الفراش وشعر أن عينيه ترى جسدا مصنوعا من حليب، وانبهر لرؤيته خليط العسل باللبن والقشدة إلى جوار قارورة من النبيذ.

تجرأ ووضع يده على جسدها، ارتعشت، فتبسم قائلا: «أتسمحي لي بالقليل من المرح يا سيدتي».

تنهدت، فأمسك بخليط العسل مع الحليب وسكب شيئا منه أسفل كتفيها، وشرع يدهن على ظهرها وانتقل إلى ساقيها، قبل أن يمزج لها جرعة من نبيذ النوم ويضيف إليه العسل ليساعدها على الاسترخاء، ولما تحركت كالثعبان أسفل راحة يده قال لها وهو يناولها الكأس: «نامي قليلا يا صغيرة، سيبدو كل هذا حلما لذيذا فحسب عندما تستيقظين».

فكرت نفتيس: «كلا، لن يبدو كذلك أيها الأبله»، لكنها احتست النبيذ على كل حال وتركته يعبث في جسدها.

كان الظلام قد حل حين استفاق يورشو للوقت ومدى المسافة التي تفصله عن مكانه الصحيح إلى جوار سيده، إلا أن ما تفعله به

نفتيس ومنظرها كان قمينا بأن يجعل كل شيء فيه ينتصب بشدة، و انتفض جسده، فترك وشاحه يسقط أرضا، ثم صعد على الفراش وقبل كتفيها، ولما غمغمت نفتيس بشيء ما قبلها ثانية ولعق رقبتها، وأخذ يتجول على كتفيها حتى أطلقت أنة خافتة وارتعدت.

حاول أن يعتليها، فابتعدت واستدارت حتى أصبح وجهها لوجهه فأطلقت ضحكة ساخرة شديدة العلو. كانت عيناها مفتوحتين طوال الوقت، وتبسمت وملست على شعره هامسة: «لا تتعجل... لا تتعجل يا صغيري، لا تتعجل».

لهث يورشو وارتعد وهو ير اقبها تنهض عن الفراش. ترجلت صوب الباب وركلته لتغلقة، لفت انتباهه منظر آخر عندما انحنت وشدت وشاحها من حافته وسحبته لأعلى ثم ألقته بعيدا ليلوح أنها ربما تخلت عن ثيابها الداخلية أو أنها تخلت عنها بالفعل، وقالت: «لن تتمكن من الراحة أبدا بعد اليوم».

قالتها وهي تقف أمامه عارية متوردة تسر العين، وقد وضعت يدها على وركها، وأضافت: «ستفكر فيَّ كلما خلدت إلى فراشك، وعندها ستتصبب عرقا، ولن تجد أحدا يساعدك، ولن تستطيع النوم أبدا حتى...». وارتسمت على شفتيها تلك الابتسامة الخبيثة التي يحبها يورشو، وقالت مستكملة: «تركت سيدك لأجلي!» فقال آمرا على الرغم أنه مازال يلهث: «اصمتي، وقبليني».

جارته فيما يريد، فتركته يتذوق طعم النبيذ على شفتيها، وأحس بنهديها المشدودين الناهضين يضغطان عليه وهي تلامس جسده بأصابعها.

دفعها برفق نحو الفراش، فأشارت بسبابتها رافضة وهي تهمس قاطعة: «لا»، وأضافت: «عليك أن تدفع لتنال، أخبرني أولا بما لكم في ممفيس!»، وتلعثمت وهي تضيف: «فأنا قلقة كثيرا على سيد الجنوب.. ست».

كان ينظر إليها وهي أمامه بأعين حائمة وحادة، كما لو أنه يصطاد شيئا في ملامحها، يقترب بتمعن غريب، يبدأ تنفسه بالتخبط بثقل كلما مد كفيه ليتحسسها، وأدرك أنه يصعب على رجل صلب مثله أن ينصهر لهذا الحد، وأن ترتعد أطرافه كلما تخيل أنه قد يغادر المكان دون أن يطالها.

كانت النار تطقطق بمرح مزعج في المستوقد لثوان معدودة استغرقها يورشو في التفكير فيما عليه أن يفعله.

في النهاية، استسلم السحر للأنوثة الطاغية، وفاض يورشو بالحديث، فأخبرها أن زوجها ست دبر احتفالية عظيمة تقام في القصر الإلهي لشقيقها أوزيريس، بمناسبة الحصاد الوفير في مملكة الشمال، كما أنه صنع تابوتا رائعا من الذهب الخالص، سيكون هدية من يكون على مقاسه تماما.

هزت نفتيس رأسها وانحنت تمسك بوشاحها لتضعه على كتفيها وهي تقول متهكمة على حديثه: «كما تريد!»... انتفض يورشو شاعرا أن غضبا ما استحوذ عليها، فأضاف: «تابوت ملعون.. ملعون بتعويذة تجلعه لا يغلق إلا على جسد أوزيريس، ما إن يغلق عليه ستتمزق أحشائه وينفجر القلب فتأخذ روحه إلى العالم الآخر مباشرة».

كانت نفتيس قد أعطته ظهرها، واحتقن وجهها غضبا لما سمعته حتى كادت تنفجر منه الدماء، وهمست في نفسها، وهي تمسك بسوارها وتزفر الكلمات: «خونة... خووونة».. ورفعت صوتها قليلا وهي تلتفت إليه وتضيف: «الإنسان هو الكارثة الأولى والأخيرة في هذه الأرض».

استغرق يورشو لحظات ليستوعب كلماتها، لكن عندما جاء الفهم أخيرا وغادر الظلام عينيه تفاجأ بها وهي تطلق تعويذة صائحة: «سيكتوسيمبرا».

انتفض قفزا من مكانه مستغلا رشاقته ومتفاديا قوة التعويذة التي اصطدمت بالستائر الحريرية والقناديل على الحائط فدمرتها.

صاحت نفتيس تطلب الحراس وألقت تعويذة أخرى، إلا أنه تفاداها مجددا بالاحتماء خلف أحد التماثيل.

ثم قفز من النافذة بسرعة كقرد وهو يلقي تعويذة: «الوهوموراً»، لينفتح له باب ضوئي وهو يسقط في الهواء فيعبر من خلاله ويختفي في الحال.

كان القمر قد ارتفع في السماء لحظة وصول ست وجنوده إلى بوابات ممفيس. وقبل أن يعبروا البوابات المفتوحة منذ الصباح، التفت حوله باحثا بعينيه عن يورشو: «مالي لا أرى يورشو أم أنه من الغائبين!»، قالها لأحد قادة فيالق الجيش.

وقبل أن يرد عليه ظهر يورشو من خلفه وقال مازحا مزحا مصطنعا: «أفكر.. ماذا سيكون دوري في خطتك يا جلالة الملك».

كان مصفر الوجه شاحب الملامح، وحينها عرف ست أن ساحره أتى بفعل ما على غير ما يرام.

حاول يورشو أن يشتت انتباه سيده، فأشار بسبابته للقائد الو اقف أمامه مباشرة وكان ذا فك مفلوق، وله عينان غائرتان في وجهه خلف القناع، وسأله: «أنت! ماذا سيكون دورك في خطتنا؟»

أجاب القائد بتردد لكن بحماس: «أن ألقي الرعب في قلوب الأعداء كما يتوجب على من يحمل اسمك أن يفعل... سأقود قو اتنا وأزحف إلى قلب العاصمة تماما».

وتدخل قائد آخر، قال وهو يتفقد الأسوار: «تلك القلعة قوية، قوية بما فيه الكفاية... الأسوار حجرية، ترتفع ثلاثين قدما، وثمة أبراج مستديرة بطول السوروم ربعة عند كل ركن، مما يعني أن قصرا إلاهيا منيعا في الداخل».

أمن قائد الفيلق الأول على كلامه قائلا: «ولا يمكننا إضرام النار في الأسوار الحجرية، فكيف نقـ...».

قاطعهم ست بصوت هدار: «صه، اخرسوا جميعا».

كانت هناك خطة معدة مسبقا بالفعل، وكل هذا الحديث محض هراء.

على أسوار ممفيس دق الحراس النو اقيس معلنين أن موكب إله الجنوب ست أقبل، بينما نفخ آخرون في أبواق كبيرة الحجم، تلتف حول أجسادهم كأفاع برونزية ضخمة، وخرج صف من الخادمات

ليتخذوا مواقعهم ليستقبلوا الموكب بالورود وزهر الياسمين والقرنفل.

تساءل أحد الحراس على أبواب القصر الداخلية لدى رؤيته خمسة آلاف مقاتل يتبعون الإله ست والساحر يورشو في ساحة القلعة قادمين نحوه: «لماذا تأتي كل هذه الجنود من خلفه؟!».

رد حارس آخر يقف على مقربة منه، قال: «الظلم يحتاج دائما قوة تحميه، بعكس العدل، يحمي نفسه بنفسه».

بدا أن الحارس الأول لم يفهم شيئا مما سمعه فهز رأسه وشرد بنظره بعيدا.

كانت قاعة العرش شبه ممتلئة بالعشرات من الضيوف، كانت محاطة كلها بالستائر الحريرية الخضراء والزرقاء المطرزة بخيوط من الذهب والفضة، ومليئة بتماثيل وكؤوس وأباريق ذهبية أعدت خصيصا لهذه الاحتفالية.

رص على جانبيها عشرات المقاعد، أمامها موائد خشبية مغطاة بمفارش من الحرير الموشى بالساتان قرمزي اللون، رصت عليه أصناف مختلفة من الطعام إلى جانب عصير التفاح والخمور المتبلة، وقد تشبع الهواء بروائح الملح والأسماك المقلية ولحم الضأن والغزلان والديوك.

وكان صوت الضحكات والهمز واللمز بين العامة يصنع ضجيجا رغم خفوت الأصوات المتحدثة.

خرج أوزيريس بصحبة زوجته إيزيس ومن خلفها ثلاثة من خادماتها، توجها مباشرة صوب العرش. وضجت القاعة بالترحيب لدى ظهورهم.

ما إن جلسا على العرش حتى دلف ست من بوابة القاعة واختال في مشيته وهو يقطع أرضيتها سيرا صوب العرش واعتمر تاجه قبل أن يصل أمام شقيقاه والتمع البرونز والذهب بلون قاتم في ضوء المشاعل، وأخفت الظلال عينيه وهو يتطلع بخبث في عدد الحراس داخل القاعة ومدى ما يحملونه من أسلحة.

ابتسمت إيزيس لدى رؤيتها شقيقها مجددا في ممفيس، فلم يكن قد زارها منذ انقسام الأرض إلى مملكتين وتوليه مملكة الجنوب. احتضنه أوزيريس بحفاوة شديدة بينما اكتفى ست بهز رأسه في وجه كليهما وقال معتذرا: «أتيت متأخرا، اغفرا لي ذلك». فابتسم أوزيريس وهو يقول: «كعادتك دائما».

رد عليه ست: «على أي حال، ما زال الوقت أمامنا، و أقسم أنك لا ترغب في انقضاء الوقت الليلة».

ثم التفت من حوله يتفقد المكان وسأل مستفهما: «التابوت؟».

ابتسم أوزيريس هازا رأسه وأشار إلى واحتي الواقف على مقربة منه، فالتفت الأخير وأشار بدوره الى حارسين و اقفين في آخر القاعة.

فتح الحارسان بابا جانبيا، دخل منه أربعة حراس يحملون التابوت على الأكتاف، ترجلوا به حتى وضعوه أمام العرش جهة اليسار وسط صياح وتهليل الحضور الذين وقفوا مذهولين لرؤية

التابوت الذهبي أمام أعينهم وكل منهم يمني نفسه لو يناله بنهاية الليلة.

صاح ست بوجه ارتسمت في قسماته ابتسامة مصطنعة يطالبهم بالصمت وهو يدق بقبضته على سطح مائدة من الخشب قريبة منه، فران الصمت في القاعة، واهتزت نيران المشاعل والأباريق على الحوائط. ثم قال ست في هدوء شديد: «لثلاث سنوات عمل أفضل النحاتين في أبيدوس على صناعة هذه التحفة التي ترونها، واليوم أهبها لمملكة الشمال، للشخص الذي يمكن للتابوت أن يغلق عليه».

كان الحضور يتناولون الطعام والشراب، وتوقف الجميع في تلك اللحظة واستعد كل واحد منهم لنيل فرصة الاستلقاء داخل التابوت. أشار ست إلى واح تي أن يختار بنفسه الأشخاص الذين سيشاركون في نيل فرصة الاستلقاء داخل التابوت. أشار واح تي للحضور تباعا واحدا تلو آخر، وفي كل مرة حاول الحراس إغلاق التابوت، فشلوا.

كان ست يتابع الأمر وقسمات وجهه الخبيثة تدل على ثقة مفرطة في أن التابوت لن يغلق أبدا على أي أحد من الحضور.

في هذه الأثناء، استغل يورشو انشغال جميع من في القاعة بما فيهم الحراس بأمر التابوت، وانتشر برفقة مجموعة من الغيلان المتخفية في ملابس الجنود في أركان القاعة، مدججين بالسيوف والرماح، ومن موقعه العالي على يسار العرش رأى واح تي جنود يورشو ينسلون في مؤخرة القاعة واستغرب أحجامهم العملاقة وطريقة تسللهم بين الناس.

قبل أن يفكر في شيء، فاجأه يورشو بالترجل في منتصف القاعة مشيا صوب سيده ست وهو يقول: «الآن حان دوري... علي أن أحظى بفرصة لأفوز بهذا التابوت». فابتسم ست وأشار له قائلا: «لك ذلك».

ترجل يورشو وهو يتنقل بعينيه بين كل واحد من غيلانه يتأكد من اتخاذهم أماكنهم المحددة لهم. من ثم استلقى داخل التابوت. حاول الحراس إغلاق بابه عليه، وكما الحال في كل مرة، باءت المحاولة بالفشل.

نهض يورشو وعلى غير حال جميع من خسروا التجربة كان مبتسما. هز ست رأسه شاعرا كأن وقتا طويلا جدا مر عليه في القاعة قبل أن يحرك رأسه بطريقة أوحت أن شيئا ما مثيرا طرأ في رأسه. فألتفت صوب أخيه الجالس على كرسي العرش وقال: «أوزيريس.. إنه لك الآن».

تهلل وجه إيزيس وأشارت إلى زوجها تشجعه على التجربة، و ابتهج أوزيريس وهو ينزل درجتين أسفل العرش ويخطو في اتجاه التابوت. وفي هذه اللحظة، دلف الكاهن كاي تاي ومن خلفه حارساه شبسكاف ونياخ هاوتر أفقهما حتبت رع التي أبت أن تتركهما وحدهما.

لاحظ واح تي أن الكاهن ومن معه دخلوا إلى القاعة متأخرين ومندفعين، فأشار إليهم أن يقفا بعيدا. أراد الكاهن أن يقترب من إله الأرض أوزيريس وأن يمنعه من التقرب للتابوت، فأشار واح تي إلى الأخوين مونتورع أن يمنعاه. وترجل الأخوين مونتورع صوب الكاهن ومنعاه من التقدم، مما جعل أوان فعل شيء قد فات خاصة بعدما أصبح سيده أوزيريس داخل التابوت.

أشار يورشو لاثنين من الغيلان في مؤخرة القاعة بإغلاق الأبواب عليهم من الداخل. في اللحظة ذاتها دنا ست من شقيقه الذي تمدد بالفعل داخل التابوت.

انحنى وجلس على ركبته هازا رأسه في سخرية وفاجأه بالقبض على السوار في معصم يده وانتزعه منه بطريقة ما بين اللطف والقسوة وقال في خبث واضح: «أخشى أن يعيقك داخل التابوت الذي ستبقى فيه إلى الأبد»، من ثم أعطى أمرا للحراس أن يغلقوا فوهة التابوت.

انقبض التابوت على جسد أوزيريس، فانغلق بابه بكل يسر عليه، فصاح الحضور مهللين لفوز سيدهم بالتابوت، على الرغم أن غصة أصابت بعضهم لفقدان مثل هذه التحفة الفنية، وبعد ثوان قليلة، ران صمت في القاعة، وسمع الحضور صوت سيدهم أوزيريس قادما من داخل التابوت يستغيث... استغرب الجميع وأنصتوا، انتظروا أمر إله الجنوب ست بفتح التابوت إلا أن ذلك تأخر قليلا.

حالة من الوجوم خيمت على وجوه الجميع، ونادت إيزيس شقيقها باستغراب: «ست!!».

صاح الكاهن كاي تاي من منتصف القاعة في الحارسين مونتو رع: «افتحوا أعينكم، إنها مؤامرة.. خيانة». وحاول شبسكاف ونياخ هاو تجاوز الأخوين مونتو رع، إلا أن الأمر كاد يتحول لمعركة. من مكانه المرتفع إلى جوار العرش خاطب يورشو الكاهن كاي تاي بصوت جاف قائلا: «حضرة الكاهن، أناشدك ألا تتعجل موتك الآن».

تسبب ما قاله في تفشي حالة من التوتر الشديد والخوف بين العامة في القاعة. ومن موقعه العالي قرب العرش قال ست بثقة مفرطة: «كل شيء قد انتهى». وأخذ جرعة طويلة من النبيذ، ثم ألقى الكأس الفارغ على الأرض ومسح فمه بظهر يده، وقال ساخرا: «عاصمة الشمال عاصمة الشمال». ثم أطلق ضحكة طويلة تردد صداها في القاعة.

تلك اللحظة، رفعت الغيلان الأقنعة عن وجوههم واستل كل واحد منهم سيفه من الغمد. لم تستطع إيزيس استيعاب ما يفعله شقيقها ست، سألته في هدوء محاولة السيطرة على غضبها: «ست.. ما الذي تنتويه؟».

أطلق ضحكة مفاجأة كالعاصفة واستطرد: «جميعكم موتى»، وكانت هذه إشارة، إذ شرع جنوده من الغيلان في قتل وذبح جميع من بالقاعة.

نظر يورشو في عيني السيدة إيزيس وقال وهو يوجه كلتا يديه صوب التابوت: «أفادا كدافرا»، انتفض التابوت عن الأرض وطار بقوة شديدة صوب الحائط في آخر القاعة ليرتطم بها بشدة قبل يسقط على الأرض مرة أخرى.

صرخت إيزيس مفزوعة: «لا»... فأعاد يورشو توجيه يديه صوب التابوت، و ابتسم في خبث وقال: «كروشيو».

انطلقت طاقة حمراء ارتطمت بالتابوت، فدوى صوت صرخة مكتومة أطلقها أوزيريس داخل التابوت قبل أن يتقطع جسده

ويتحول إلى أشلاء وتتسلل الدماء من على حافتي باب التابوت لتصنع سيلا على جانبيه. فصرخت إيزيس صرخة مدوية اهتزت لها قاعة العرش، وقالت وهي تصوب بيديها على يورشو: «سيكتوسيمبرا». إلا أنه تفادى قوة التعويذة.

ولما حاولت مطاردته بالتعويذات يدفعها الغضب، لم يكن يُخَيل لها أن ست سيتدخل لمعونة ساحره، وتفاجأت به يقول: «فيرا فيرتو»، فاختفى من مكانه و انتقل في لمح البصر إلى جوارها.

تفاجأت به يمسك يدها من المعصم وينتزع عنها السوار، حاولت مقاومته، فصفعها بقوة كبيرة على وجهها، فسالت الدماء على إثر قوة اللطمة.

كان الأخوان مونتورع قد التفتا أخيرا وأصبحا إلى جوار شبسكاف ونياخ هاو مع الكاهن كاي تاي وجها لوجه مع ست ويورشو وجنودهم. استل شبسكاف السيف وألقى الغمد أرضا وكذلك فعل الأخوان مونتورع.

وحده نياخ هاو قرر أن يستخدم السوار فأخذ يصيح وهو يوجه كلتا يديه صوب من يقترب منه أو من الكاهن قائلا: «أفادا كدافرا»، فيجعله يطير عاليا للخلف ويرتطم بالموائد والحوائط. محاولا عدم استخدام التعويذات المحرمة خوفا من فقدان قوته التي يحتاجها لإنهاء القتال.

كما وجه الكاهن كلتا يديه على الغيلان قائلا: «سيكتوسيمبرا»، مرة بعد مرة، وفي كل مرة كان يتسبب في حرق وقتل أحد الغيلان، إلا

أنهم كانوا بالفعل قد قتلوا أغلب ممن في القاعة من سادة الأقاليم وكبار التجار في حين أن الأخوين مونتو رع وشبسكاف تولوا أمر قتل بعض الحراس ممن كانوا برفقة الغيلان.

كان واحي تي مذعورا، لا يعرف أين يتوارى وسط هذه المعركة التي نشبت فجأة، ولاحظه يورشو عندما كان يتراجع للخلف محاولا الفرار من القاعة، فلحق وضرب عنقه، وأطار رأسه بضربة واحدة من سيفه، والتف مرة أخرى بوجهه يتابع القاعة، فوجد الأخوين مونتو رع يحسنان القتال إلى جوار الكاهن وحارسيه، فأنتقل على الفور إلى جوارهما، شاهرا سيفه إلا أنه لم يستخدمه، إذ قال وهو يوجه يديه صوب الأخوين: «كروشيو»، فأسقطهما أرضا على الفور، وتعالت صوت صرخاتهم وتمرغهما على الأرض وهما يتركان سيفيهما وتتفجر الدماء من أعينهم وأذنيهما قبل أن يفارقا الحياة.

حاول كاي تاي استخدام سواره في مواجهة يورشو فصاح وهو يوجه كلتا يديه عليه: «سيكتوسيمبرا»، إلا أن الأخير اختفى على الفوروظهر من خلفه تماما ووضع نصل سيفه على رقبته، في حين أن شبسكاف ونياخ هاو توقفا في مكانيهما ساكنين دون حركة خوفا على سيدهما، بيد أن يورشو لم يأبه لشيء وقام بسحب نصله على رقبة الكاهن بقوة شديدة جعلت رأسه تنفصل عن جسده وسط ذهول الحارسين.

اقترب حارسان من حراس يورشو، وقفا بسيوفهما إلى جوار شبسكاف ونياخ هاو الذي لم يأبه للأمر بقدر اهتمامه لاختفاء حتبت رع التي لم يظهر لها أثر.

لاحظ شبسكاف بدوره تغيبها ففزع قلبه عليها، وبدأ يتجول بعينيه في القاعة بحثا عنها على الرغم من شعور النهاية الذي خيم على روحه وروح نياخ هاو.

في هذه الأثناء، تعالت أصوات السيوف والفؤوس خارج القصر الإلهي بعدما بدأت قوات ست في الاستيلاء على الأسوار الخارجية بالفعل. اقترب ست من النافذة وأطل برأسه للخارج، فشاهد جنوده يقتلون، ويحرقون جميع حراس ممفيس ويستولون على المدينة أو أنهم بالفعل استولوا عليها بعدما بدأ الحراس يفرون أمامهم.

وقعت عينا شبسكاف على حتبت رع وهي تتسلل ببطء شديد خلف كرسي العرش؛ تحاول الاقتراب من إله الجنوب ست الذي كان ما يزال ممسكا بسوار شقيقه أوزيريس وبدأ يقربه من سواره، فبدأ ينصهر ويذوب ليندمج فيه.

في هذه اللحظة، انفتح باب ضوئي في الفراغ بالقرب منهم، دلفت منه السيدة نفتيس، وقالت فور عبورها من الباب وهي توجه كلتا يديها صوب الساحر يورشو: «كروشيو»، إلا أنه انتبه لها في اللحظة الأخيرة وقفز عن مكانه وسقط أرضا. فوجهت تعويذة أخرى صوب الحارسين الواقفين خلف شبسكاف ونياخ هاو اللذين قفزا من فورهما تاركين الحارسين من خلفهما يعانيا من قوة التعويذة قبل أن يفارقا الحياة.

التفت زوجها ست إليها، وجدها تستعد لتلقي عليه تعويذة إلا أنه كان أسرع منها إذ قذفها بخنجر استله من الغمد المعلق في ملابسه، ليستقر في قلبها مباشرة، قبل أن يوجه يديه عليها ويقول:

«إنسينيدو» لتشب فيها النيران وتحرقها وسط دوي صرخاتها وصرخات متتالية من شقيقتهما إيزيس التي كانت ما تزال جاثية على ركبتيها في الأرض.

هز رأسه بملامح ثابتة جامدة غير راض عما آلت إليه النهاية، وترجل نحوها وهو يرفع سوار إيزيس ويلوح به في الهواء وهو يقول: «فليسقط الشمال، ولتحيا أبيدوس».

انحنى على جسدها المحترق ونزع السوار من معصمها، كانت النيران قد شبت في ستائر القاعة، وبدأت رائحة الدخان تنتشر من حولهم في اللحظة التي انفتح فيها باب في أقصى يمين العرش.

دلف من الباب صبي صغير بعمر أقل من سبع سنوات، هرول خائفا من النيران باتجاه الملكة إيزيس وكان ممسكا بورقة من البردي، صاحت إيزيس مفزوعة: «حورس!!» وهمت تحتضنه، كان الصبي خائفا، إلا أنه أطمأن لدى وصوله بين ذراعي والدته.

ترجل ست صوب الملكة، وانحنى حتى صارت رأسه إلى جوار الطفل الصغير ونظر بعينيه صوب البردية وسأله: «أيمكنك قراءتها؟»، كانت إيزيس تنتفض فزعا على صغيرها، وأرادت لو تصرخ في وجه شقيقها تطالبه أن يترك الصغير وشأنه، إلا أنها فقدت صوتها في هذه اللحظة.

كرر ست سؤاله للصبي: «أيمكنك قراءتها لأجلي؟» قرأ حورس ما في البردية قائلا: «الأمل أكبر قوة في الدنيا، وهذه القوة هي ما تجعلنا على قيد الحياة».

قال يورشو ساخرا بعدما جلجل صوته بضحكة عالية وكان يقترب من شبسكاف الذي كان و اقفا مذهولا يشاهد احتراق الملكة نفتيس والنيران التي شبت في ستائر القاعة وصوت سليل السيوف في الخارج يدوي في أذنيه وخوفه على الطفل يستحوذ على قلبه: «لا شيء هنا يدعو للأمل». ثم قام بطعن شبسكاف بخنجر في ظهره فأسقطه أرضا أسفل قدمي صديقه نياخ هاو.

صرخت حتبت رع صرخة مدوية وكأن الخنجر اخترق قلبها لا ظهر شبسكاف، و اندفعت مهرولة بأقصى ما لديها صوب إله الجنوب ست الذي كان ما يزال منحنيا قرب الصبي حورس وممسكا بسوار نفتيس بعدما صهر سواري أخيه وزوجته.

قامت بدفعه بكل ما تملك من قوة، ورغم ضآلة جسدها وقوة بنيان ست، إلا أنها أسقطته من ارتفاع منصة العرش فتدحرج من أعلى الدرج إلى أسفله وسقط السوار من يده فور اصطدامها به وتدحرج حتى استقر أسفل أقدام الملكة إيزيس.

ارتعد يورشو لسقوط ست وهرول صوبه يساعده، فهمست إيزيس إلى نياخ هاو وهي تنظر إليه: «اهرب في الحال».

نظر نياخ هاو في عين شقيقته، وجد عينيها مغرورقتين بالدموع تتأملان شبسكاف، فانحنى عليه وحمل جسده وهو يقول: «ألوهومورا». فانفتح باب سحري على يساره.

توقف للحظات يتنقل بعينيه بين الباب، وبين شقيقته والملكة إيزيس.

اقتحم جنود ست القاعة بعدما حطموا الأبواب، وهرول ثلاثة في المقدمة حاملين الفؤوس والسيوف صوب نياخ هاو الذي هز رأسه في يأس وقفز على الفور داخل البو ابة حاملا جسد صديقه.

حاول يورشو مساعدة ست الذي كان ينهض متثاقلا من أثر قوة السقوط على الدرج، إلا أن ست الغاضب دفعه بقوة شديدة فأسقطه أرضا.

كانت إيزيس قد حصلت على سوار نفتيس وهمت تضعه حول معصمها وهي ما تزال محتضنة صغيرها حورس، وفي هذه اللحظة نظر إليها ست، فقالت: «فيرا فيرتو».

واختفت وصغيرها في الحال، ثم ظهرا سويا إلى جوار حتبت رع التي كانت ما تزال و اقفة في مكانها خلف ست إلى جوار العرش وقد تجمدت أوصالها فزعا لموت شبسكاف ودموعها كالسيل تجري على خديها.

ازدحمت القاعة بجنود ست حاملين السيوف والرماح مختفيين خلف أقنعتهم الحديدية السوداء ينظرون ويصوبون رماحهم صوب إيزيس وحتبت رع.

استدار ست بجسده والتفت بوجهه إلى الخلف، وكان يعرف أن إيزيس قد ظهرت من خلفه.

نهض يورشو عن الأرض في ذات اللحظة وصوب كليهما يديه عليها، ران صمت لثوان معدودات، ابتسم ست ساخرا من شقيقته وهز يورشو رأسه فبدا أنهما سوف يتحدثان، وقبل أن تنبث شفاههما

بكلمة واحدة سمع صوت مواء كثير، وجلبة شديدة أعقبها ظهور قطعان من القطط السوداء تقتحم القاعة من النو افذ والأبواب وبعضها يقفز من نو افذ مرتفعة.

ارتبك ست ويورشو والتفتا من حولهما في محاولة منهما فهم ما يحدث. فاستغلت إيزيس ارتباكهما في أمر القطط السوداء، فقبضت بيدها على معصم صغيرها وبالأخرى على معصم حتبت رع وصاحت: «بيترو فلايز»، فتحول ثلاثتهم إلى عصافير صغيرة الحجم وطارا عبر نافذة مستديرة في مؤخرة القاعة بينما تردد صوت إيزيس في القاعة وهي تقول: «الأمل أكبر قوة في الدنيا، وهذه القوة هي ما تجعلنا على قيد الحياة».

تمت..

ولكن!!

كما نثق بكتابنا نثق بصوتك / هنا نصغي إليك!

الهالة للنشر والتوزيع
AL HALA PUBLISHING & DISTRIBUTION

تواصل معنا، ونحن نسمعك!
https://www.facebook.com/alhalapublishing
info@alhalapublishing.com